أُسُسُ

الأخلاق الإسلامية

ومفاهيمها

بطاقة الفهرسة

مصدر الفهرسة :	IQ-KaPLI ara IQ-KaPLI rda
رقم تصنيف LC :	BJ1291 .Z33 2020
العنوان :	أُسس الأخلاق الإسلاميّة ومفاهيمها /
بيان المسؤوليّة :	تأليف جمع من المؤلّفين بأشراف مهدي علي زاده ؛ تعريب عقيل البندر.
بيانات الطبع :	الطبعة الأولى.
بيانات النشر :	كربلاء، العراق : العتبة الحسينيّة المقدّسة، مؤسسة الخُلُق العظيم، ٢٠٢٠ / ١٤٤٢ للهجرة.
الوصف المادي :	٣٣٥ صفحة ؛ ٢٤ سم.
سلسلة النشر :	(العتبة الحسينيّة المقدّسة ؛ ٧٩٥).
سلسلة النشر :	(مؤسسة الخُلُق العظيم ؛ ٥).
تبصرة ببليوجرافية :	يتضمّن هوامش، لائحة المصادر (الصفحات ٣١٣-٣٢٣).
مصطلح موضوعي :	الأخلاق الإسلاميّة (الشيعة الإمامية).
اسم مؤلف إضافي :	زادة، مهدي علي ـ مشرف.
اسم مؤلف إضافي :	البندر، عقيل ـ معرّب.
اسم هيئة إضافي :	العتبة الحسينيّة المقدّسة (كربلاء، العراق)، مؤسسة الخُلُق العظيم. جهة مصدّرة.

تمّت الفهرسة قبل النشر في مكتبة العتبة الحسينيّة المقدّسة

رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق ببغداد (٣٨٥٤) لسنة (٢٠٢٠م)

أُسُس الأخلاق الإسلاميّة

ومفاهيمها

تأليف

مهدي عليزاده — مهدي أحمد بور

محمّد رضا فلّاح — علي مهدوي فريد

محمّد عالم زاده نوري — حميد رضا مظاهري سيف

بإشراف

مهدي عليزاده

تعريب

عقيل البندر

مراجعة الترجمة وتصحيحها

اللجنة العلمية في مؤسسة الخلق العظيم

مؤسسة الخلق العظيم

الإصدار ٥

جَمِيعُ الحُقُوقِ مَحفُوظَة

لِلعَتَبَةِ الحُسَينِيَّةِ المُقَدَّسَة

الطبعة الأولى

١٤٤٢هـ-٢٠٢٠م

إصدار

مؤسسة الخلق العظيم

بسم الله الرحمن الرحيم

هوية الكتاب

عنوان الكتاب:	أُسس الأخلاق الإسلاميّة ومفاهيمها
المؤلّف:	جمع من المؤلفين بإشراف مهدي علي زاده
تعريب:	عقيل البندر
مراجعة الترجمة وتصحيحها:	اللجنة العلميّة في مؤسسة الخُلُق العظيم
تقويم النصّ:	الشيخ أسعد السلمان
الناشر:	العتبة الحسينيّة المقدّسة
الإخراج الفنّي:	يوسف أحمد العلي
التنسيق:	أحمد المذحجي
الطبعة:	الأولى
المطبعة:	دار المؤمن
سنة الطبع:	١٤٤٢هـ ـ ٢٠٢٠م
عدد النسخ:	٥٠٠

كلمة المؤسسة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربِّ العالمين، والصلاة والسلام على أفضل الأنبياء والمرسلين محمّدٍ وآله الطيّبين الطاهرين.

وبعد؛ فقد كانت الأخلاق ولا تزال هاجساً مهمّاً؛ يشغل مساحةً واسعةً من الفكر الإنساني على اختلاف اتجاهاته ومصادره المعرفيّة، وقد اشتركت في حمل هذا الهمّ الكبير مختلفُ المدارس الفكريّة والديانات والحضارات، وسعت إلى معالجته وفق رؤاها المتفاوتة ومبانيها المختلفة. ويدلّل هذا الاهتمام البالغ على حقيقة في غاية الأهميّة، تفيد أنّ الجانب الأخلاقي لدى أبناء البشر عصيٌّ على الإهمال والتجاهل، وأنّ أيّ محاولة لتجاهل هذا البُعد المحوري والفطري، أو التغافل عنه ليست إلّا محاولة لضبط بركانٍ هائج، أو السيطرة على ثورة عارمة في أعماق الإنسان تسوقه إلى ما يرى فيه خيره وسعادته وكماله، وهذا ما يدعو إلى التوقّف عند هذا الميل الفطري الجارف نحو الأخلاق؛ للإحاطة به والتعرّف على دقائقه وخفاياه، والسعي لمعالجته نظريّاً وعمليّاً.

إنّ التأمّل في ما تعيشه البشريّة ـ اليوم ـ من أزمات مختلفة على مستوى المجتمعات والأفراد يؤكّد حقيقةً مهمّةً؛ وهي أنّ قسطاً كبيراً من تلك الأزمات يعود إلى وجود فراغات كبيرة في المجال الأخلاقي، أخذت تنعكس سلباً على الجانبين الروحي والسلوكي للإنسان المعاصر، وقد كان لمجتمعاتنا الإسلاميّة نصيبها من تلك الأزمات المتعدّدة الجوانب، فأثّرت بشكلٍ كبيرٍ على التراجع الأخلاقي الملحوظ، سيّما مع ملاحظة مدى التعقيد الذي تتسم به التحدّيات الراهنة، وما تحمله الحياة المعاصرة من

تغيّرات مهمّة، وانفتاحٍ غير مسبوقٍ على الأفكار والثقافات والأنماط السلوكيّة المختلفة في ظلّ الثورة المعلوماتيّة، والتنوّع المُذهل في وسائل الإعلام والتواصل.

لا ريب أنّ ملاحظة ما مرّ ذكره، تدعو المهتمّين بالشأن الفكري والثقافي إلى وضع الحلول المناسبة، والعمل الجادّ في سبيل مواجهة هذه الأزمات ومعالجتها على المستويين: النظري والعملي، من خلال التأسيس لرؤية أخلاقيّة شاملة، تقوم ـ في جانبها النظري ـ على الوعي التامّ والدقيق بطبيعة الإنسان، وأبعاده الوجوديّة، وخصائصه، وميوله، ورغباته، والعمل على إحياء القيم والفضائل الأخلاقيّة ـ في الجانب العملي ـ بشتّى الطرق والوسائل المتاحة. ولا تخفى حاجة هذا العمل المهمّ إلى جهد مؤسساتي منتظم، تتظافر فيه المساعي والخبرات في سبيل مواجهة التحدّيات، والنهوض بالواقع الأخلاقي للمجتمع المسلم. وقد سعت (مؤسسة الخُلُق العظيم) لتكون السبّاقة في هذا المجال، وإليك عزيزي القارئ هذه الإطلالة السريعة عليها.

(مؤسسة الخُلق العظيم) ودوافع تأسيسها

لقد كان الشعور بالحاجة الملحّة للعمل الجادّ في المجال الأخلاقي، من قِبَل القائمين على العمل في العتبة الحسينيّة المقدّسة، حافزاً مهمّاً لإنشاء مؤسسة متخصّصة، ينصبّ جهدها على إحياء النهج الأخلاقي الإسلامي على المستويين: الفكري النظري، والسلوكي العملي، ونشره وترويجه بين أبناء المجتمع الإسلامي بطرقٍ ونشاطاتٍ مختلفة، فتمخّضت تلك الجهود المباركة عن تأسيس (مؤسسة الخُلق العظيم)، التي اشتُقّ اسمها من قوله تعالى في كتابه المجيد: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾(١)؛ تيمّناً بما نعت به الجليلُ الأعلى نبيَّه الكريمﷺ بهذه الصفة السامية، على أمل أن تسدّ جزءاً من الفراغ الملحوظ في المجال الأخلاقي.

---

(١) القلم: آية ٤.

رؤية المؤسسة

تنطلق المؤسسة من الرؤية الإسلاميّة للأخلاق، وتتبنّى استراتيجيةً عامّةً تقوم على ثلاثة عناصر أساسيّة يمكن أن نُعبّر عنها بـ(الأُسس الميتافيزيقيّة للأخلاق)، وهي:

أوّلاً: الله تعالى بصفاته الكماليّة والجماليّة

تنطلق الرؤية الأخلاقيّة الإسلاميّة من مبدأ التوحيد، والإيمان بالله تعالى وصفاته وأفعاله، وتبتني على أنّ الله تعالى قد أودع في الإنسان ميلاً فطريّاً يدفعه نحو الخير وتحصيل الكمال بإرادته واختياره، وتُعدّ الغاية القصوى للأخلاق هي الوصول إلى القرب الإلهي باعتباره الكمال المطلق، وتكمن السعادة الحقيقيّة للإنسان في وصوله إلى تلك الغاية والاصطباغ بصبغة الله، ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً﴾[1]. فالله تعالى هو الموجِد للميل الأخلاقي لدى الإنسان، وهو المقصد والمبتغى الذي يجب على الإنسان التوجّه إليه في كلّ محطّات مسيرته الأخلاقيّة، وأن يكون التوجّه إلى الله عزّ وجلّ هو الروح السارية في كلّ فعّالياته الأخلاقيّة.

ثانياً: النظام الأخلاقي

تعتمد الرؤية الأخلاقيّة المتبنّاة على أنّ الله تعالى كما أودع نظامه الأحسن في الكون، والذي يسير فيه كل مخلوق إلى كماله المطلوب، أوجد ـ كذلك ـ نظاماً أخلاقيّاً متكاملاً، من شأنه أن يوصل الإنسان إلى الكمال من خلال رسم الهدف الأسمى له، وتعيين طريقه، وبيان العقبات التي تعترض مساره، وتعيين القدوة والمرشد في هذا السير، وهو ما تكفّل ببيانه الدين الإسلامي الحنيف، بل هو من أهمّ الوظائف التي بُعث لأجلها سيّد الرسلﷺ، كما بيّنه بما روي عنهﷺ: «**إنّما**

---

(١) البقرة: آية١٣٨.

بُعثتُ لأُتمِّمَ مكارمَ الأخلاق»[١]. ما يعني أنّ هناك نظاماً أخلاقيّاً متكاملاً ومنسجماً مع فطرة الإنسان، تكفّلت ببيانه الرسالة الإسلاميّة؛ فيتحتّم علينا التعرّف عليه، واستكشاف ركائزه وتعاليمه، والعمل على نشرها وترويجها والتثقيف عليها بمختلف الوسائل والأساليب.

ثالثاً: الإنسان

يُشكّل الإنسان المحور في السجال الأخلاقي؛ فهو الموضوع الذي تدور حوله كلّ الجهود والفعّاليات الأخلاقيّة بكلّ ما يمتلكه من خصائص وجوديّة، ونفسيّة، وطبيعيّة، وعقليّة، وميتافيزيقيّة، وما له من احتياجاتٍ ورغباتٍ وميول، وكلّ ما يؤثّر في اتصافه بالصفات الأخلاقيّة، وفي صدور الأفعال الاختياريّة منه. ومن الواضح أنّ كل محاولة تهدف إلى تهذيب الأخلاق الإنسانيّة يجب أن تنطلق من رؤية صحيحة وواضحة ومتكاملة عن طبيعة تلك الخصائص والميول والمؤثّرات. ونعتقد ـ جازمين ـ أنّ الرؤية الأخلاقيّة الإسلاميّة تتوفّر على قراءة واقعيّة ودقيقة وتامّة وشاملة، تغطّي العناصر المهمّة والأساسيّة في وجود الإنسان وطبيعته وخصائصه وميوله، وكلّ المؤثّرات في مسيرته الأخلاقيّة.

وما ذكرناه ـ آنفاً ـ لا يمانع من الانفتاح على العلوم والمعارف المهتمّة بدراسة الإنسان وشؤونه وأبعاده المختلفة، سيّما مع التطوّر الكبير الذي شهدته تلك العلوم وتخصصاتها الدقيقة، كالعلوم الطبيعيّة والإنسانيّة؛ من قبيل علم الإنسان (الأنثروبولوجيا)، وعلم النفس (السيكولوجيا)، وعلم الاجتماع (السيسيولوجيا)، وعلم التربية وغيرها، حيث يُمكن الاستفادة من معطيات تلك العلوم والمعارف في

(١) المجلسي، محمّد باقر، بحار الأنوار: ج١٦، ص٢١٠.

المجالات التي تصبُّ في سبيل تحصيل الوعي بخصائص الإنسان، والتعرّف على الوسائل المؤثّرة في التربية والتهذيب، شريطة أن لا تتصادم مع الأُسس العقائديّة، ولا تتنافى مع المبادئ والقِيم الأخلاقيّة والتعاليم التربويّة الإسلاميّة.

أهداف المؤسسة

تجدر الإشارة ـ في سياق الحديث عن مؤسسة الخُلق العظيم ـ إلى الأهداف المتوخاة من وراء تأسيسها؛ إذ تهدف إلى:

١ـ رفد المكتبة الإسلاميّة بالنتاجات العلميّة التحقيقيّة في المجال الأخلاقي؛ من خلال تأليف الكتب والموسوعات والبحوث والمقالات العلميّة الرصينة.

٢ـ إحياء التراث الأخلاقي الإسلامي؛ من خلال رصد الكتب والمخطوطات الأخلاقيّة المهمّة، والعمل على تحقيقها ونشرها، وفهرسة التراث الأخلاقي والتعريف به.

٣ـ النهوض بالجانب الأخلاقي والسلوكي للفرد والمجتمع؛ من خلال نشاطات مختلفة، تخاطب فئات المجتمع من الناشئة والشباب، وطلبة الجامعات، والأساتذة والكوادر العلميّة والثقافيّة والمهنيّة، وأصحاب الاختصاص في المجال الأخلاقي، فضلاً عن الأُسر، والمجتمعات بأطيافها كافّة.

٤ـ رصد المحاضرات والدروس والخُطب الأخلاقيّة النافعة والمؤثّرة التي أفادها العلماء والمختصّون في هذا المجال، والعمل على نشرها بأساليب مختلفة؛ كتدوينها وتحويلها إلى كتب، أو نشرها على شبكات الإنترنت ووسائل التواصل الاجتماعي.

٥ـ إقامة المؤتمرات العلميّة، والندوات البحثيّة المختصّة؛ من أجل إثراء الفكر الأخلاقي، وفتح آفاق بحثيّة جديدة، تتناسب مع روح العصر ومتطلباته، وإقامة الدورات المختصرة في الأخلاق العمليّة، سواء منها ذات الموضوعات العامّة، كالأخلاق الإسلاميّة، أو الخاصّة كأخلاق المهنة، وأخلاق الأُسرة، وغيرها.

٦ـ رصد الظواهر السلبيّة في المجال الأخلاقي، والمشاكل السلوكيّة التي يعاني منها المجتمع، والسعي لتقديم دراسة متكاملة حولها؛ بغية وضع الحلول المناسبة لها.

٧ـ إعداد البرامج الإعلاميّة التي تُسهم في معالجة المشاكل الفرديّة والاجتماعيّة المختصّة بالجوانب الأخلاقيّة، سواء منها البرامج المُعدّة للبثّ على شاشات التلفاز، أو المناسبة للنشر على شبكات الإنترنت ووسائل التواصل الاجتماعي.

٨ـ رفد الساحة الفكريّة بالنتاجات الأخلاقيّة المهمّة عبر ترجمتها من اللغات المختلفة إلى اللغة العربيّة، وكذلك ترجمة النتاجات المكتوبة باللغة العربيّة إلى اللغات الأخرى.

٩ـ فتح آفاق التعاون مع الجامعات والمراكز العلميّة والمؤسسات والشخصيّات المختصّة والمعنيّة بهذا الشأن؛ لترشيد العمل وتطويره، والإفادة من الكفاءات في هذا المجال.

١٠ـ إعداد كوادر متخصّصة بالأخلاق الإسلاميّة؛ من أساتذة وخطباء وباحثين.

١١ـ السعي لإعداد المناهج الدراسيّة في مجال الأخلاق الإسلاميّة، وتقديمها للمدارس الدينيّة، والمدارس والمعاهد والجامعات الأكاديميّة، والمراكز العلميّة الأخرى.

مشاريع المؤسسة

باشرت مؤسسة (الخُلق العظيم) بإنشاء جملة من المشاريع في سبيل الوصول إلى أهدافها المنشودة، سواء المشاريع الطويلة الأمد والاستراتيجية أو غيرها، وقد صدر لها بعض الإصدارات في هذا الصدد، فيما سيرى بعضها النور قريباً بإذن الله تعالى، وهذه المشاريع هي:

١ـ موسوعة المواعظ الحَسَنة

ويعمل هذا المشروع على تدوين وتحقيق خطب الجمعة الدينيّة ذات المضامين الأخلاقيّة، التي ألقاها ممثّل المرجعية العليا في النجف الأشرف والمتولّي الشرعي للعتبة الحسينية المقدّسة سماحة الشيخ عبد المهدي الكربلائي (دامت بركاته) في الصحن الحسيني الشريف منذ عام (٢٠٠٣م)، حيث تعمل المؤسسة على إخراجها بصيغة كتاب، بكل ما يتطلّبه من تعديل وتحقيق واستخراجٍ للعناوين وغير ذلك.

٢ـ موسوعة الأخلاق الإسلاميّة الألفبائيّة

يهدف هذا المشروع إلى تأليف موسوعة ألفبائيّة أخلاقيّة، أو ما يُسمى بـ(دائرة المعارف الأخلاقيّة) تهتم بجمع المفاهيم الأخلاقية ـ والمقصود منها الصفات والأفعال الأخلاقيّة ـ مرتّبةً بحسب الترتيب الهجائي، وتقديم عرضٍ كاملٍ ومستوفٍ وموثّق لكلّ ما ورد حول تلك المفاهيم وفق الأسلوب المتّبع في تدوين الموسوعات ودوائر المعارف؛ من بيان المعنى اللغوي والاصطلاحي، وبيان حقيقة المفهوم الأخلاقي، ووصفه في القرآن والسنّة والتراث الأخلاقي، وبيان أقسامه وأسبابه ومناشئه وآثاره ونتائجه، والآليّة العمليّة للتحلّي به إن كان من الفضائل، والتحرّز عنه إن كان من الرذائل، وما إلى ذلك من المباحث المتعلّقة بكل موضوع؛ وهذا ما يجعل من هذا المشروع سابقةً مهمّةً في المصنّفات الأخلاقيّة الشيعيّة، ومرجعاً مهمّاً ومعتبراً في الأخلاق الإسلاميّة.

٣ـ ترجمة النتاجات الأخلاقيّة

تهتمّ المؤسسة بترجمة الكتب الأخلاقيّة المهمّة إلى اللغة العربيّة وبالعكس، ونشرها بعد المراجعة الدقيقة لها وتقويمها من قِبَل اللجنة العلميّة في المؤسسة، وقد تمّ العمل على ترجمة عدّة كتب، منها: الكتاب الماثل بين يدي القارئ الكريم.

٤ـ مشروع التراث الأخلاقي

يتضمّن تعريفاً مختصراً بالكتب الأخلاقيّة، وفق الترتيب الهجائي، مع فهرسة تفصيليّة للمباحث الأخلاقيّة في كلّ كتاب، وينتهي بفهرس موضوعي للمباحث الأخلاقيّة في جميع تلك الكتب؛ ليكون دليلاً نافعاً للمحققين والباحثين.

٥ـ تأليف سلسلة الفضائل والرذائل

تعمل المؤسسة على تأليف سلسلة كتيّبات حول جملة من الفضائل والرذائل الأخلاقيّة، يتمّ من خلالها مخاطبة الشريحة المتوسّطة من القرّاء، وتتناول المواضيع الأخلاقيّة المهمّة وذات الأولويّة على الساحة الاجتماعيّة، لمعالجة أهمّ المشاكل الأخلاقيّة، والحثّ على مكارم الأخلاق الإسلاميّة، والترويج لها.

٦ـ مشروع المؤتمرات والملتقيات والندوات الأخلاقيّة

تعمل المؤسسة على إقامة سلسلة من المؤتمرات والملتقيات والندوات الأخلاقيّة، بحضور نخبة من الأساتذة والباحثين المختصّين بالجانب الأخلاقي، لبيان المواضيع الأخلاقيّة التخصصيّة المهمّة، وعرض أهم الآراء والنظريّات فيها، كفلسفة الأخلاق، وتاريخ علم الأخلاق، والمدارس الأخلاقيّة، والمقارنة بين علم الأخلاق والعلوم والحقول المعرفيّة الأخرى وما شابه ذلك؛ بغية إثراء الساحة الإنسانيّة والدينيّة بالفكر الأخلاقي الرصين الذي يعتمد بالدرجة الأساس على الأُسس والمبادئ الإسلاميّة.

٧ـ المشاريع الإعلاميّة

تعمل المؤسسة على إعداد جملة من البرامج الإعلاميّة المختلفة، سواء منها ما يُعدّ للبثّ التلفزيوني، أو ما يكون مناسباً للنشر على مواقع التواصل الاجتماعي، من مقاطع وملصقات تعليميّة وتثقيفيّة ذات مضامين أخلاقيّة.

٨ـ إقامة دورات في الأخلاق الإسلاميّة

من مشاريع المؤسسة الاستراتيجيّة هو إقامة دورات قصيرة في الأخلاق العمليّة لمختلف الفئات، يتمّ فيها تدريس التعاليم الأخلاقيّة الخاصّة بكل فئة من الفئات، كأخلاق المهنة، وأخلاق الأُسرة، وما شابه ذلك.

٩ ـ المكتبة الإلكترونيّة الأخلاقيّة

إذ قامت المؤسسة بعمليّة مسح ميداني في المكتبات والمواقع الإلكترونيّة وجمع النسخ المتوفّرة للكتب الأخلاقيّة والتربويّة؛ لتكون مصدراً مهمّاً للباحثين في هذا المجال، ليتم العمل على إعداد تطبيقٍ مختصٍّ بالمجال الأخلاقي.

هذا الكتاب

الكتاب الماثل بين يديك ـ عزيزي القارئ ـ هو من تأليف نخبة من الأساتذة والباحثين في قسم الأخلاق والتربية في مركز الأبحاث للعلوم والثقافة الإسلاميّة في مدينة قمّ المقدّسة، وقد أُعدّ ليكون منهجاً دراسيّاً في مادّة الأخلاق الإسلاميّة في جامعة العلوم الإسلاميّة، وحمل عنوان: (أخلاق إسلامي، مباني ومفاهيم) وتضمّن مباحث مهمّة في أسس الأخلاق الإسلاميّة ومفاهيمها، كما اعتمد المنهج العلمي في عرض المباحث وبيانها، والأسلوب التعليمي في تنظيم المباحث والفصول، وقد عمدت (مؤسسة الخُلُق العظيم) إلى ترجمة هذا الكتاب، وتقديمه للأساتذة والطلاب وعموم القرّاء الكرام عسى أن يُساهم في تنمية الدرس الأخلاقي في المحافل العلميّة، وأن يرفد المكتبة العربيّة بمصدر مهمّ في الأخلاق.

لقد كان للمترجم الأستاذ عقيل البندر دورٌ مهمّ في إنجاز هذا العمل، كما عملت الكوادر العلميّة في المؤسسة بشكلٍ جادٍّ على المراجعة المتأنية والدقيقة للترجمة، ومطابقتها مع النصّ الفارسي، وما يستدعي ذلك من إصلاح وتعديل وإضافات تُسهم في إيصال المعنى المقصود بصورةٍ صحيحة ودقيقة، وتلافي ما قد

تُعانيه الترجمة من قصور. وقد تطلّب ذلك إعادة ترجمة العديد من المواضع، وتصحيح الكثير من العبارات حرصاً على دقّة الترجمة، وحفاظاً على الطابع العامّ للكتاب الذي أُعدّ كمنهج دراسي، مع ملاحظة أنّ الكتاب الأصل قد جمع بين الدقّة العلميّة والصياغة الأدبيّة، وهو ما ضاعف الجهد على الكوادر العلميّة في المراجعة والتصحيح. فبارك الله جهد جميع الإخوة الأكارم، وشكر سعيهم.

كما تمّت إضافة بعض التعليقات والتوضيحات المهمّة التي لم توجد في أصل الكتاب وإدراجها في الهامش، وقد رمزنا لها بحرف (خ) للدلالة على أنّها من إضافات (مؤسسة الخُلق العظيم).

لا يفوتنا ـ في نهاية المطاف ـ أن نتقدّم بوافر الشكر لجميع مَن ساهم في إنجاز هذا العمل، لا سيّما سماحة المتولّي الشرعي للعتبة الحسينيّة المقدّسة الشيخ عبد المهدي الكربلائي(دامت بركاته) على دعمه الدائم للمؤسسة ومشاريعها، وللمترجم المحترم، وللسادة أعضاء اللجنة العلميّة، كما نتقدم بالشكر الخالص إلى كلّ من: الدكتور السيّد زيد البطّاط، والدكتور الشيخ نعيم الساعدي، ومقوّم النصّ الدكتور الشيخ أسعد السلمان على ما بذلوه من جهود حثيثة في سبيل إنجاز هذا العمل وإنجاحه.

نسأل الله أن يتقبّل منّا ومنهم بأحسن القبول، وأن يجعل هذا العمل ذخراً لنا ولهم يوم نلقاه، والحمد لله ربِّ العالمين.

اللجنة العلميّة في

مؤسسة الخُلق العظيم

٢٨/ ذي القعدة/ ١٤٤١هـ

٢٠/ ٧/ ٢٠٢٠م

كلمة البدء

من الجوانب الوجودية للإنسان ـ إن لم نقل أهمّها ـ هي خصوصيّته الأخلاقيّة، وهذه الخصوصيّة كسائر الأمور الفطرية لها بعدان، هما: الإدراك، والميل أو الرغبة. فإنّ الإنسان وفي ضوء الفطرة الإلهيّة يُدرك القواعد الكلّيّة للأخلاق، قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾[1]، كما أنّه يكمن في ذاته الميل نحو الخير الأخلاقي والنفور من الانحراف والاعوجاج. ولعلّه لهذا السبب؛ نرى أنّ النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله يُبيّن بأنّ فلسفة بعثته كانت عبارة عن تتميم مكارم الأخلاق لا تأسيسها وتعريفها.

وعلى كلّ حال فإنّ مجموع الإدراكات والميول الأخلاقيّة تُشكّل رصيداً كبيراً لحركة الإنسان نحو الكمال، فالاهتمام بأُصول القيم الأخلاقيّة ومراعاتها على المستويين الفردي والاجتماعي يُهيّئ الأرضيّة المناسبة لسموّ جميع أفراد المجتمع الإنساني وتكاملهم. ورغم أنّ ذلك أمر شامل لجميع الأزمنة والأمكنة، غير أنّه يكتسب أهميّة مضاعفة في عصرنا الحاضر في ظل الهجمة الواسعة والشرسة التي يتعرّض لها الإنسان المعاصر في سائر أبعاده الأخلاقيّة والقيميّة، عبر أدوات عديدة وأساليب متنوّعة.

هذا، وتتّضح بشكل أكبر أهمّيّة هذا الأمر ـ أي: الاهتمام بالقيم الأخلاقيّة ورعايتها ـ عند ملاحظة مكانتنا التاريخيّة والجغرافيّة كمسلمين، ونحن نعيش عصر

---

(١) الشمس: آية٧ ـ ٨.

النموّ والازدهار الإسلامي، فلا بدّ أن يُشكّل الاهتمام بمكارم الأخلاق ـ وصولاً إلى قمم السعادة والكمال ـ هاجساً جماعيّاً علاوة على ضرورة الاهتمام به على المستوى الشخصي، كما أنّه يجب أن يقوم على خطّة متكاملة وبرنامج رصين في النظام الإسلامي؛ لكي نشهد حركة اجتماعيّة ـ علاوة على الحركة الفرديّة ـ نحو تأسيس نموذج ثقافي يَحتذِي به سائر الأفراد والمجتمعات الأُخرى. وعليه؛ فإنّ إدراج درس الأخلاق الإسلاميّة ضمن المقرّرات الدراسيّة العامّة لطلّاب الجامعات الأعزّاء وصنّاع المستقبل يأتي في هذا الإطار، وهو أمر مفرح بل ضروري.

والكتاب الذي بين أيديكم هو مادّة دراسيّة تتناسب مع المقرّرات المعتمدة في درس (الأخلاق الإسلاميّة؛ الأُسس والمفاهيم)، قد تمّ إعداده من قِبل جملة من الكتّاب والباحثين المتخصّصين في هذا المجال، وبإشراف فضيلة حجّة الإسلام والمسلمين مهدي علي زاده.

هذا، وكلّنا أمل ورغبة أن يكون هذا الكتاب مفيداً ونافعاً للأساتذة وطلّاب الجامعات وسائر المثقّفين والمهتمّين بهذا الجانب، ونحن هنا إذ نُقدّم لهم هذا الكتاب نُرحّب بكلّ ملاحظة أو نقد يُسهم في تطوير نتاجاتنا العلميّة.

معاونيّة البحوث

في جامعة العلوم الإسلاميّة

قسم الأخلاق الإسلاميّة

المقدمة

إنّ من أهمّ أهداف الدين هو التكامل الروحي للإنسان ونيل الفضائل والكمالات الأخلاقيّة؛ ومن هنا فإنّ البعد الأخلاقي يُعدّ واحداً من الأبعاد التي تشتمل عليها رسالات جميع الأديان ووظيفة من وظائفها، كما أنّه على هذا الأساس يمكن القول: إنّ الهدف الأساسي من جميع الأوامر والنواهي الواردة في التشريع الديني هو التكامل والسموّ الأخلاقي للإنسان، والغاية القصوى من ذلك هي الوصول إلى القرب الإلهي؛ ولهذا السبب اعتبر النبي محمّد ﷺ أنّ الهدف الأسمى من بعثته والغاية من تبليغ رسالة الإسلام السمحاء هو إتمام مكارم الأخلاق.

فالإنسان هو المخلوق الوحيد ـ تقريباً ـ الذي يمكنه تحديد منزلته الوجوديّة، وتقرير مصيره على أساس أعماله وسلوكيّاته، وتشخيص أهدافه في ضوء ما يكسب من فضائل ورذائل، ويمكنه أيضاً إدراك أنّ قيمة المرء في الدنيا والآخرة ستكون في ضوء هذا الأصل والمعيار. وبما أنّ الإنسان موجود مختار، وأنّ المعرفة ـ كما هو معلوم ـ تشكّل حجر الزاوية في الفعل الاختياري؛ لذا فإنّ بلوغ المنازل الرفيعة من الكمالات الإنسانيّة لا يتيسّر دون المعرفة الدقيقة بالفضائل الأخلاقيّة وسبل تحصيلها، والوعي العميق بالرذائل الأخلاقيّة وكيفيّة اجتنابها، وقد دُوِّن هذا الكتاب لتحقيق هذا الغرض.

إنّ هذا الكتاب يحتوي على مدخل عامّ يتضمّن جملة من المباحث العامّة بالإضافة إلى خمسة عشر فصلاً، الهدف منها التعريف بالأخلاق والتربية الإسلاميّة،

وهي مطابقة للمقرّر الدرسي لمادّة (الأخلاق الإسلاميّة؛ الأسس والمفاهيم)، وقد اختصّت الفصول الأربعة الأُولى بمقدّمات في معرفة الإنسان والتعريف بأهداف التربية الأخلاقيّة وإمكانيّات التكامل وموانعه، وبُيِّنت في الفصلين الخامس والسادس خصائص الإنسان والمجتمع الأخلاقي ومميّزاتها الدنيويّة بشكل تفصيلي، وكان الفصل السابع وحتّى نهاية الكتاب عبارة عن استعراض للفضائل والرذائل الأخلاقيّة في ثلاثة مجالات، هي: أخلاق العلاقة مع الذات، وأخلاق العلاقة مع الخالق تعالى، وأخلاق العلاقة مع المجتمع، وفي كلّ واحدٍ من هذه المجالات تمّ عقد فصل حول الرذائل الأخلاقيّة وأضرارها، وكيفية تجنّبها (أخلاق الحدّ الأدنى)، وفصل آخر لبيان العلاقة النموذجيّة المطلوبة (أخلاق الحدّ الأعلى).

وحيث إنّ الغرض الأساسي من تدوين هذا الكتاب هو إحداث تغيير روحي عبر سيرٍ معنوي ونفسي، فلم يُغفل فيه عن اتّباع المنهج الذوقي والوعظي في بعض الموارد، وتجدر الإشارة إلى أنّ الأساتذة الأفاضل عند تصدّيهم لتدريس هذا الكتاب يُمكنهم بيان كلّ رذيلة بما يقابلها من فضائل في حصة واحدة، ويُمكنهم أيضاً تغيير ترتيب مباحث الكتاب بما يرونه مناسباً.

وبعد التوجّه إلى الله تعالى بالشكر على توفيقه لأداء هذه الخدمة العظيمة، أرى لزاماً عليّ أن أتقدّم بوافر الشكر والثناء إلى كلّ مَن ساهم في تقديم يد العون والمساعدة لي في تأليف هذا الكتاب من الباحثين المحترمين في مركز الدراسات الإسلاميّة للعلوم والثقافة، وهم كلّ من: حجّة الإسلام والمسلمين فضيلة الشيخ محمد عالم زاده نوري الذي قام بكتابة الفصل الثاني والثالث والرابع، والذي ساهم أيضاً في تدوين الفصل العاشر والحادي عشر والثاني عشر، وعليّ أن أشكره شكراً خاصّاً لما بذله من جهود مشكورة في مراجعة الفصول الأُخرى وإبداء بعض الملاحظات المهمّة.

كما أتقدّم بالشكر الجزيل للسادة الأفاضل حجج الإسلام محمد رضا فلّاح مؤلّف الفصل الأوّل، والسيّد حميد رضا مظاهري سيف مؤلّف الفصل الخامس والسابع والثامن والتاسع، والسيّد علي مهدوي فريد مؤلّف الفصل العاشر والحادي عشر والثاني عشر، والسيّد مهدي أحمد بور مؤلّف الفصل الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر. كما وأشكر كلّ من حجّة الإسلام والمسلمين السيّد دليري وحجّة الإسلام السيّد مرادي على مساعدتهما لي في البحث عن مصادر الكتاب ومراجعه.

كما أنّني كنت قد تكفّلت بمهمّة الفصل السادس، وبما أنّني كنت المشرف العامّ على كتابة سائر فصول الكتاب ومتابعتها فإنّني أتحمّل ما يُلاحظ على هذا المشروع من نقص، واعتبر أنّ نقاط القوّة فيه تعود إلى ما يحمل زملائي الأعزّاء من فكر وقلم.

وفي الختام أثني على رئيس جامعة العلوم الإسلاميّة جناب حجّة الإسلام والمسلمين الدكتور كلانتري وأشكره على المساعدة السخيّة التي أبداها هو وزملاؤه في معاونيّة البحث والتحقيق في الجامعة لا سيّما السيّد الدكتور گرامي وحجّة الإسلام والمسلمين علي مختاري في إتمام مشروعنا هذا؛ إذ لم يكن تأليف هذا الكتاب وإنجازه ممكناً لولا تشجيع كلّ هؤلاء الأعزّاء ومتابعتهم.

وحيث إنّ كلّ أثر لا يخلو من ضعف أو نقص، فإنّي أرجو من الأساتذة والباحثين والطلاب الأعزّاء ألّا يبخلوا علينا بآرائهم ومقترحاتهم في سبيل الارتقاء بمضامين هذا الكتاب، ورفع مواضع النقص الموجودة فيها.

مهدي علي زاده

صيف [٢٠١٠م] عام ١٣٨٩هـ ش

المفاهيم العامّة

لا شكّ في أنّ الوجه القبيح باعث للنفور، كما أنّ الوجه الحسن يسحر القلوب، ويُعدّ هذا الانجذاب والنفور نوعاً من اتّخاذ الموقف النفسي تجاه الحُسن والقُبح، ودائماً ما يتأطّر سعي الإنسان بنتيجة التوتّر الحاصل بين هذين الجانبين، وكذلك تكون لنا ـ على أساس ذلك ـ أحكام نفسيّة ومواقف داخليّة حول حُسن أعمال البشر وأحوالهم، لكنّ مع وجود تفاوت أساسي، هو أنّ تقييم الحُسن والقُبح الظاهريين يتمّ بسهولة، بينما الحكم بحُسن سلوك الشخصيّة الإنسانيّة وطبائعها أو قبحها فلا يتمّ إلّا متأخّراً.

إنّ علم الأخلاق هو: علم يبحث في قُبح الروح والطبيعة البشريّة وجمالهما، ويُعمّم بحثه في ذلك أيضاً على رغبات البشر وأعمالهم، ويُعبّر عن الكَرِيه والجميل في الأخلاق بالقبيح والحَسَن.

هذا، وتهتمّ الأخلاق بسموّ الإنسان وتكامله، فإنّ الأخلاق والتربية تريد أن ترتقي بالبشر في سائر ميادينه الوجوديّة، وتهدف إلى تكامله في جميع جوانبه الحياتيّة.

إنّ جمال الصورة هو أمر غير اكتسابي، بخلاف جمال السيرة وحُسن السلوك فهو أمر اكتسابي، ومن أجل بلوغ السيرة الحسنة وبلوغ الخصال الملائكيّة يجب أن نسعى إلى صناعة ذواتنا وتنقية بواطننا؛ لتصفو وتزداد نصوعاً وتلألؤاً كما يتلألأ الدرّ الثمين في أصداف المحار، ولا شكّ فأنّنا بحاجة إلى الوعي جيّداً بالمقاصد والعقبات والسُّبل والأدوات التي تبعث على هذا التحوّل والتغيّر في دواخلنا، والأخلاق الإسلاميّة في الواقع تشتمل على مباحث من هذا الشكل.

فالأخلاق الإسلاميّة في ضوء المنهج العامّ للدين هي تحفيز الفطرة وإحياؤها في العمق الإنساني، هذه الفطرة التي تقوم على معرفة خاصّة ينبغي أن يتحلّى بها الإنسان؛ كما أنّ علم الأخلاق البشري أو الأنثربولوجيا الأخلاقيّة هي أنثربولوجيا

تحوليّة، بمعنى: أنّ الإنسان يكون على أساسها في حالة حركة وتطوّر دائمين، ويجعل من نفسه موضعاً للمراجعة والتقييم.

والآن وقبل تناول علم الأخلاق واستعراض مسائله، نتعرّض إلى مكانة الأخلاق ومنزلة التربية الأخلاقيّة بشكل مختصر، ومن ثَمّ نتطرّق إلى الأُسس المهمّة لهذا العلم؛ بمعنى شرح الأُسس الأُولى للمعرفة الإنسانيّة، وبيان أسس تلك المعرفة وغاياتها.

مكانة الأخلاق في الدين

تحتوي التعاليم السماويّة للدين الإسلامي على أنواع ثلاثة، هي:

العقائد: وهي التعاليم التي تقوم بتوصيف نظام الخلق توصيفاً واقعيّاً وشاملاً، مع توضيح أهمّ العناصر المؤثّرة فيه، فهي التي تُفسّر مبدأ الوجود ونهايته في نظام منسجم ومتكامل. وتتعلّق مسائل هذه الفئة من التعاليم بالمعرفة والاعتقاد الإنساني. ويُذكر أنّ الاعتقاد بالعقيدة الصحيحة يُعدّ من الأفعال الإنسانيّة الاختياريّة التي يمكن الحكم عليها وتقييمها أخلاقيّاً.

الأخلاق: وهو النظام القيمي والمعياري الذي يقوم الإنسان في ضوئه بتنظيم تصرّفاته وسلوكيّاته من أجل الحصول على الكمال والسموّ الروحي والمعنوي وفق جملة من التعاليم والتوصيات.

أمّا القضايا الأخلاقيّة فهي القضايا التي تعكس تأثير الصفات والسجايا الإنسانيّة على سعادة الإنسان.

الفقه: وهو عبارة عن قسمين، هما: الأوّل: هو سلسة مسائل تتضمّن جملة من الأوامر والنواهي والتشريعات التي تُنظّم الحدود القانونيّة للعلاقات الاجتماعيّة، والثاني: عبارة عن الشروط والضوابط التي تُبيّن صحّة العبادات بلحاظ شكلها، وهو كذلك مجموعة من التعاليم التي تُبيّن أُطر السلوكيات المشروعة للأعمال الدينيّة.

الأخلاق

الإنسان هو المخلوق الوحيد الذي يُمكنه أن يختار ـ بإذن الله ـ الشكل والطبيعة التي تكون عليها شخصيّته، ويستطيع أيضاً تحديد الأبعاد الوجوديّة لحياته ومكانته ودوره في الوجود من بين سائر الموجودات. ويتبلور مصير الإنسان نتيجة مجموعة من الخصال الصالحة والطالحة التي يعيشها ويُفكّر بها ويحكم بها ويُقرّرها ويمارسها، وفي ضوء ما يقوم به من ذلك تمتلئ صفحات عمره، وتنتهي حياته، فيُقبر ثمّ يُحشر، وفي النهاية سوف يرسم مصيره حلواً كان أو مرّاً على أساس تلك الأفعال والصفات.

وكلمة الأخلاق في اللغة جمع (خُلُق)، والذي يعني السجيّة أو الصفة الثابتة في النفس، وفي الاصطلاح: هو العلم الذي يضطلع ببيان الأوصاف القِيَميّة للصفات والأفعال الاختياريّة، ويُبيّن كيفيّة اكتسابها أو الاجتناب عنها؛ فإنّ كلّ قضيّة أخلاقيّة تشتمل على موضوع ومحمول[١]، وموضوع هذه القضية هو أمر اختياري؛ وذلك لكون القيمة الأخلاقيّة مبتنيةً على الاختيار، وبدون الاعتقاد بالاختيار سلفاً لا يمكن الحكم الأخلاقي على الأفعال والصفات الإنسانيّة[٢].

وأمّا محمول القضية الأخلاقيّة فهو عبارة عن واحدٍ من المفاهيم القِيميّة الأربعة التالية، وهي الحُسن والقُبح، والصواب والخطأ، وما ينبغي وما لا ينبغي، والحقّ والوظيفة (الواجب)[٣].

---

(١) الموضوع والمحمول اصطلاحان منطقيّان، يمكن التعبير عنهما ـ بتعبير أوضح ـ بالمبتدأ وهو الموضوع، والخبر وهو المحمول.

(٢) يُطلق أحياناً على الأمور والموضوعات الاختياريّة الموجودات الممكنة أيضاً.

(٣) في ضوء بعض الأسس المختلفة لدى مدارس فلسفة الأخلاق يختلف معيار الحُسن والقُبح، فهو قد يتعيّن على أساس نتيجة العمل أو الوظيفة أو الفضيلة أو التوافق الاجتماعي.

النسبة	المحمول	الموضوع
ثبوت المحمول للموضوع من عدمه	أحد المفاهيم القيميّة: الحُسن أو القُبح أو..	الفعل أو الصفة الاختياريّة
ثبوت القُبح للكذب	قبيح	الكذب
ثبوت الحُسن للشجاعة	حسنة	الشجاعة

وكلّما توفّرت جملة من الأعمال الحسنة أو القبيحة أو مجموعة من الفضائل أو الرذائل، تتّضح معالم الإنسان وطبيعة شخصيّته، فإنّ مجموع القضايا الأخلاقيّة هو الذي يُحدّد نظام الغايات والرغبات النهائيّة لحركة الإنسان ومسيرته(١).

أبعاد علم الأخلاق ومدياته

تختلف علاقة الإنسان بغيره بحسب ذلك الغير الذي يكون طرفاً في هذه العلاقة، فتكون على عدّة أنحاء: العلاقة مع الخالق، والعلاقة مع المخلوق، والعلاقة الثانية إمّا أن تكون عبارة عن علاقة الإنسان بنفسه، وإمّا أن تكون عبارة عن علاقة الإنسان مع الآخر، وهذا الآخر إمّا أن يكون موجوداً بشريّاً مثله، وإمّا أن يكون موجوداً آخر غير بشري؛ وعليه يكون علم الأخلاق مشتملاً على الأخلاق العباديّة، والأخلاق الفرديّة، والأخلاق الاجتماعيّة، والأخلاق البيئيّة.

هذا، وقد عُرّفت الأخلاق العباديّة بأنّها: الممارسات الملائمة وغير الملائمة التي تعكس علاقة الإنسان بربّه، من قبيل: الإيمان والخوف والتوكّل والكفر والطغيان والتكبّر وعدم الاعتماد على الله. بينما عُرّفت الأخلاق الفرديّة بأنّها: القيم والمبادئ التي يتعاطى بها الفرد مع ذاته، ويصوغ بها حياته الشخصيّة بغضّ النظر عن علاقته

(١) يُشار إلى أنّه يوجد بين الأخلاق والمجموعة الأُخرى من المعايير الاجتماعيّة التي تعرف بـ(الآداب) اختلاف أساسي، وللاطّلاع أكثر على ذلك يرجى مراجعة الفصلين الثالث عشر والرابع عشر من هذا الكتاب.

بالغير: كفضائل الصبر والحكمة ورباطة الجأش، وكالرذائل التي من قبيل: الطمع والتسرّع والسذاجة. أمّا المقصود من الأخلاق الاجتماعيّة فهو عبارة عن المعايير والقيم الحسنة والقبيحة التي تحكم علاقة الفرد بسائر البشر: كالعدل والإحسان والحسد والتكبّر[١]. وأمّا الأخلاق البيئيّة فالمراد منها مجموعة الضوابط والقيم الحاكمة على علاقة الإنسان بالطبيعة، كتعامله مع النبات والحيوانات والحقول والغابات والمياه.

وبناءً على ما تقدّم؛ يمكن بيان الفروع الأساسيّة في علم الأخلاق على النحو التالي:

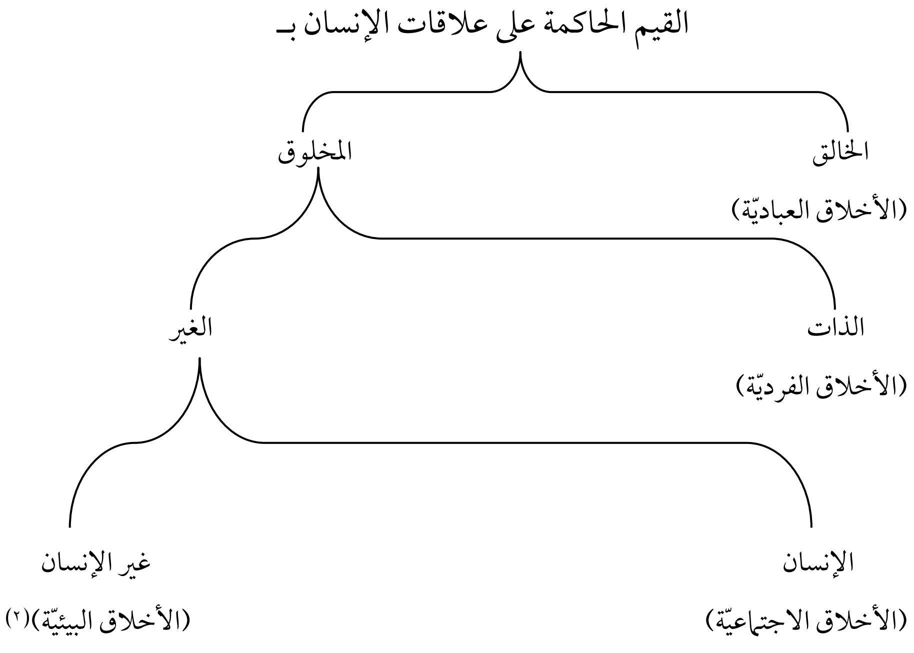

---

(١) تُستخدم مفردتا القيمة والمعيار في هذا الكتاب بمعنى واحد، فإنّ تفكيك معنى المفردتين المتّبع في العلوم الاجتماعيّة بين Value وNorm غير مقصود هنا.

(٢) ينبغي الالتفات إلى أنّ الأخلاق الفرديّة والاجتماعيّة والبيئيّة من وجهة نظر الإسلام يجب أن تتجلّى فيها الصبغة واللون الإلهيين، وهي تتأثّر سلباً أو إيجاباً بالعلاقة المحوريّة بين الإنسان وربّه.

التربية الأخلاقيّة

التربية الأخلاقيّة هي عمليّة بناء القيم والمبادئ الأخلاقيّة في الباطن الإنساني، وصياغة شخصيّة الفرد في ضوء الصفات والخصائص التي يتحلّى بها الإنسان الكامل. وهذا اللون من التربية هو السُّلَّم الذي يرتقي بالمرء إلى قمّة الكمال ويُخلّصه من واقعه المتسافل الذي يُعدّ نقطة الانطلاق في حركته هذه؛ ويسمو بالإنسان حتى ترتسم الصورة المثاليّة للإنسان المتخلّق في لوح وجوده. كما، تعتبر التربية الأخلاقيّة تجسيداً حقيقيّاً لكلّ التعاليم التي يحثّ عليها علم الأخلاق ويُرشد الإنسان إليها، فإنّ الأخلاق في الواقع تصوغ هدف الإنسان وغايته وحركته، في حين أنّ التربية الأخلاقيّة تُبيّن قواعد حركة الإنسان نحو ذلك؛ وبتعبير آخر: فإنّ الأخلاق تجيب عن الأسئلة المتعلّقة بالقيم والمعايير، بينما تُجيب التربية عن الأسئلة المتعلقة بكيفيّة الحصول على تلك القيم والمعايير(١).

---

(١) لا نتعرّض في مباحث التربية إلى مصاديق الحُسن والقُبح، ولا إلى مباحث الأخلاق أو فلسفة الأخلاق، وإنّما نحن في الحقيقة نأخذ الفضائل والرذائل الأخلاقيّة وما يجب فعله وما لا يجب في هذا المجال كفرضيّات وأُصول موضوعة، ونجعلها هدفاً لحركتنا، ومن ثَمّ نبحث في علم التربية عن كيفيّة تحقيق تلك الأهداف.

الفصل الأول

معرفة الإنسان

الأهداف

يُتوقّع من الطالب بعد دراسة هذا الفصل أن:

١ـ يُدرك طبيعة الإنسان ويتمكّن من تقييم محاسن هذه الطبيعة ومساوئها.

٢ـ يتعرّف على القوى والنزَعات الأساسيّة في وجود الإنسان.

٣ـ يطّلع على معنى المَلَكَة في الأخلاق وفوائدها، وأهم الأُصول والقواعد في تحصيلها.

٤ـ يتمكّن من توضيح حقيقة التربية الإنسانيّة والنزعة الفطريّة في نظام التربية الإسلامي.

طبيعة الإنسان

بما أنّ موضوع علم الأخلاق ومباحث التربية الأخلاقيّة هو صفات الإنسان وسجاياه وسلوكيّاته؛ لذا ينبغي أوّلاً وقبل الولوج في هذه المباحث التعرّف على طبيعة الإنسان وقواه ومكامنه النفسيّة، والتعرّف أيضاً ـ ومهما أمكن ـ على معالم الإنسان المُتخلِّق؛ إذ لا يمكن التخطيط لحركة الإنسان التكامليّة دون معرفة خصائصه كمبدأ للحركة، والتعرّف على ملامح الصورة النموذجيّة لـ(الإنسان المتخلِّق) كمقصد لهذه الحركة.

في الفترة ما بين عامي (١٩١٤م ـ ١٩٤٥م) اندلعت الحربان العالميّتان اللتان راح ضحيّتهما ملايين من البشر، مضافاً إلى ما لحق بالناس في اليابان من الفتك، بحيث لقي ما يُقارب مائتي ألف إنسان مصرعهم جرّاء إلقاء القنبلتين الذريّتين على

هيروشيما وناغازاكي. وقد ساقت هذه الأحداث بعد أن وضعت الحروب أوزارها العالم الصاخب والمضطرب إلى فترة من الهدوء والسكون النسبي، وفي تلك الحقبة من الزمن وبعد أن تجلّت للناس وبشكل واضح حقيقة البشر الدمويّة، مع ما أثارته فيهم من الحيرة والدهشة، فقد تولّدت لديهم رغبة في التساؤل ـ بروح جديدة ونفس نقيّة وخالصة ـ عن طبيعة الإنسان وحقيقته، وفي تلك الظروف كان من الصعب جدّاً إنكار الطبيعة الشرّيرة وتجاهل الجانب الحقير في الإنسان(١).

هذا، وربّما يكون موضوع (فطرة الإنسان) والبحث في ماهيّته وطبيعته من أهمّ مباحث معرفة الإنسان ودراسة حقيقته، وفي هذا السياق هناك تعاريف وبيانات عديدة حول طبيعة الإنسان وماهيّته، فبعضهم أنكر الطبيعة الواحدة للإنسان(٢)، واعتبر البعض الآخر أنّ إدراك حقيقة الإنسان وكنهه غير ممكنة(٣). فأمّا الذين رأوا أنّ الإنسان يتّصف بطبيعة واحدة فقد طرحوا قبل ذلك التساؤل التالي: هل أنّ الإنسان شرّير أم خيّر؟ وهذا التساؤل يحظى بأهمّيّة كبيرة في سبيل معرفة الإنسان أخلاقيّاً؛ وذلك لأنّ الإنسان لو كان شرّيراً بالطبع سوف يتلاشى

---

(١) إنّ الإنسان ـ وقبل حركته الاختياريّة نحو ما يقصده من أهداف ـ يتمتّع وبشكل فطري بجملة من الخصائص والقابليّات، وتُحيط به جملة من القيود والمناسبات، وتكمن فيه الكثير من نقاط الضعف، ولا شكّ في أنّ الوعي بهذه الخصائص والاطّلاع عليها ـ لا سيّما بالنسبة إلى الذين يرومون المسير، ويعزمون على الحركة نحو الكمال والانتقال إلى مدارج السموّ ـ أمر ضروري.

(٢) ومن هؤلاء مَن قال بأصالة الاجتماع: كـ(كارل ماركس) و(إميل دوركايم) وسائر الوجوديين، وبعضٌ اعتبر البشر عنصراً تاريخيّاً، وهو يفقد ذاته وهويّته بانصرام مقاطع التاريخ؛ وعليه فهو يُعرف بذات خاصّة في كلّ حقبة تاريخيّة تختلف عمّا هي عليه في الحقب الأُخرى. وأبرز مَن قال بذلك الفيلسوف الألماني فردريك نيتشه.

(٣) ومن أبرز مَن قال بذلك هو بليز باسكال. في هذا السياق أُنظر: كاسيرر، إرنست، رسالة في الإنسان: ص٣٤.

الدافع لتربيته وتعليمه، أو تتحوّل جهود التربية الأخلاقيّة على أقل تقدير إلى نوع من مقارعة الطبيعة الإنسانيّة(١).

وأمّا رؤية الإسلام فهي تعتبر أنّ الفطرة ـ التي تُعدّ من أهمّ أركان معرفة الإنسان في الدراسات الإسلاميّة ـ هي طبيعة إلهيّة واحدة، وتُؤكّد أنّها غير قابلة للتغيّر أو التحوّل في جميع البشر، هذا من جهة، ومن جهة أُخرى فإنّ الرؤية الإسلاميّة حيث إنّها تنظر إلى العالم بإيجابيّة وتفاؤل فهي تعتبر أنّ العنصر البشري يتأثر ـ بحسب الضرورة ـ بالظروف المعرفيّة، ويتأثّر أيضاً بنزعته وميله نحو الخير؛ ونتيجة ذلك فإنّ الإسلام يحكم على الإنسان بطريقة موضوعيّة مليئة بالأمل والطموح، قال تعالى في كتابة الكريم: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾(٢).

ففي ذلك (الاجتماع الإلهي) كان هناك حديث عن طبيعة الإنسان وسجاياه، وعندما قالت الملائكة: إنّ طينة الإنسان ليست إلّا مخلوقاً دمويّاً وكائناً سفّاحاً، قال خالقه العظيم علّام الغيوب ـ الذي كان لديه نظرة أعمق ممّا قالته الملائكة، قد كشفت

---

(١) لم يكن لدى سيجموند فرويد (١٩٣٩م ـ ١٨٥٦م) الطبيب النمساوي وعالم النفس المعروف نظرة إيجابيّة لطبيعة الإنسان، فقد رأى أنّ الإنسان مخلوق عدواني، وأكّد على أبعاد سلبيّة وأمراض نفسية عديدة في الوجود البشري، واعتبر أنّ تحقّق شخصيّة صحيحة وسالمة أمر غير ممكن، بل لا يوجد أي نموذج معافى نفسيّاً من أفراد الإنسان، وفي هذا الصدد ذهب البعض إلى أنّ الإنسان سيّئ الذات وشرّير بالطبع. كما أنكر توماس هوبز فكرة الاجتماع الإنساني وقال: إنّ الإنسان ذئب لأخيه الإنسان. اُنظر: روبرت دي. ناي، السلوك الإنساني ثلاث نظريات في فهمه، فرويد، اسكينر، روجرز. إعداد أحمد إسماعيل صبح، ترجمة: منير فوزي.

(٢) البقرة: آية٣٠.

عن حقيقة الإنسان وكنهه ـ: إنّ الأمر ليس كذلك، وخلاصة هذه الرؤية الربّانيّة العظيمة هي أنّ حقيقة البشر لا يمكن إدراكها وبلوغها بنظرة سطحيّة ساذجة.

الأبعاد المختلفة للوجود البشري

ربّما تعرّض كلّ واحد منّا ولعدّة مرّات إلى الكسل والتهاون، فنضرب بمقرّراتنا وعهودنا عرض الجدار، وفي هذه المواطن نحن مَن نُصمّم على ذلك ونحن مَن ننقض ما قرّرناه، أو نندم على ذلك ونلوم أنفسنا عليه، وتفسير هذا التناقض لا يتمّ إلّا بالتسليم بأنّ للوجود البشري بُعدين مختلفَين.

قوى النفس الإنسانيّة

إنّ روح الإنسان حقيقة غير مادّيّة، بل هي كائن ملكوتي مجرّد يُعبّر عنها بالنفس والقلب أيضاً.

وللنفس الإنسانيّة أربعة قوى أساسيّة، وهي:

القوّة العاقلة: وهي التي تعكس الجانب الملائكي المودَع في الإنسان.

القوّة الغضبية أو (قوّة الدفع): وهي التي تعكس النزعة السبعيّة وروح البطش والفتك لدى الإنسان.

القوّة الشهوية (قوّة الجذب): وهي الصفة التي تعكس صفة الحيوانيّة لدى الإنسان.

قوّة الوهم: وهي قوّة تعكس القدرة الشيطانيّة في الإنسان[1].

هذا، وتقوم القوّة الواهمة أو النزعة الشيطانيّة في الإنسان بالتحايل واتّخاذ النهج العملي الملتوي من أجل إيصال النفس إلى رغباتها الكامنة في القوّة الشهويّة والقوّة الغضبيّة، وليس الكذب أو الخداع اللذان يمارسهما البشر إلّا من خلال هذه القوّة.

إنّ عنصر الشهوة أو القوّة الشهويّة هي مصدر الرغبات والميول البشريّة،

---

(١) انظر: الخميني، روح الله، شرح حديث جنود العقل والجهل: ص١٥١.

ومهمّة هذه القوّة هي الحصول على الغرائز وما من شأنه إحياء اللذّة وبعث النشوة في الإنسان، وفائدتها هي المحافظة على استمرار الحياة الفرديّة والنوعيّة للإنسان. وأمّا القوّة الغضبيّة فهي مصدر الانفعال والغضب، وعمل هذه القوّة هو الحيلولة دون وقوع الأخطار التي قد تلحق بالفرد، ومواجهة العوامل التي تُهدّد حياته والأُمور المحبوبة لديه.

إنّ هاتين القوّتين هما مدعاة للطمع والجشع بشكل مستمرّ، وفي حال لم يتمّ ترويضهما والسيطرة على مواطنهما ستتحوّلان إلى مصدرين فتّاكين: أحدهما عبادة الشهوات، والآخر الضراوة والوحشيّة.

وفي المقابل فإنّ وظيفة القوّة العاقلة هي وعي الحقائق وتشخيص الخير والشرّ، فهي تقوم بردع كلّ واحدة من القوّتين المذكورتين في حال تمرّدهما وتعدّيهما الخطوط الحمراء، وتقوم أيضاً بإحياء حالة التعادل والتوازن في النفس، وذلك من خلال التحكّم بالقوّة الغضبيّة وترويضها وكبح جماح الطمع والوحشيّة، وتقوم هذه القوّة باحتواء مواطن الرغبة في القوّة الشهويّة وضبطها، كما أنّها ومن خلال المهارة التي تمتاز بها تستطيع إزاحة الأوهام الشيطانيّة.

وتتكامل هذه القوى من خلال التكامل والنضوج الطبيعي للإنسان، حيث يعتقد الحكماء المسلمون وفي ضوء عمليّة التكامل الطبيعي للبشر أنّ القوّة الشهويّة تسبق القوّة الغضبيّة في التفاعل والنشاط، والقوّة الغضبيّة تسبق القوة العاقلة في ذلك؛ وعليه ففي مقام التربية يجب البدء بضبط القوّة الشهويّة قبل ضبط القوّة الغضبيّة، والقوّة الغضبيّة قبل القوّة العاقلة(١).

وفي هذا الصدد يرى الحكماء أنّ هناك أربع فضائل تُعدّ أُصول الفضائل

---

(١) ابن مسكويه، أحمد بن محمّد، تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق: ص١٥.

الإنسانيّة، وهي: الحكمة والشجاعة والعفّة والعدالة؛ وهذه الفضائل هي نتيجة للاعتدال في القوى الثلاث: العاقلة والشهويّة والغضبيّة.

فالحكمة هي نتيجة اعتدال القوّة العاقلة وتهذيبها، والشجاعة هي انعكاس لاعتدال القوّة الغضبيّة وضبطها، والعفّة هي عبارة عن الاعتدال في القوّة الشهويّة وكبح جماح تجاوزها عن الحدّ. وبناءً على هذا؛ فإنّ خروج كلّ قوّة من هذه القوى عن حدّ الاعتدال يعني ميلها إمّا إلى الإفراط وإمّا إلى التفريط، وبالتالي حصول اختلال في تلك الفضائل الأربع، اختلال يجعلنا نواجه ثماني صفات أخلاقيّة، وهذه الصفات مع أُصولها المتقدّمة عبارة عن: العفّة بين إفراط الشره وتفريط الخمود، والشجاعة بين إفراط التهور وتفريط الخوف، والحكمة بين إفراط الجَرْبَزة وتفريط البله، والعدالة بين إفراط الظلم وتفريط الانظلام(١).

روي عن الإمام علي عليه السلام: «**إنَّ الله عزّ وجلّ رَكَّبَ فِي المَلائِكَةِ عَقْلاً بِلَا شَهْوَةٍ، ورَكَّبَ فِي البَهَائِمِ شَهْوَةً بِلَا عَقْلٍ، ورَكَّبَ فِي بَنِي آدَمَ كِلَيْهِمَا، فَمَنْ غَلَبَ عَقْلُهُ شَهْوَتَهُ فَهُوَ خَيْرٌ مِنَ المَلَائِكَةِ، ومَنْ غَلَبَتْ شَهْوَتُهُ عَقْلَهُ فَهُوَ شَرٌّ مِنَ البَهَائِمِ**»(٢).

أحوال النفس

عرض القرآن والروايات ثلاثة أنفس للإنسان تصنيفاً للأحوال الأساسيّة والأخلاقيّة له، وهي عبارة عن: النفس المطمئنة، والنفس اللّوّامة، والنفس الأمّارة؛ وكأنّ كلّ إنسان تقوم فيه أكثر من نفس في أعماقه وبواطنه، إلّا أنّه بعد التأمّل والتدقيق نجد أنّ هذه الأسماء للنفس قد أُطلقت عليها باعتبار اختلاف الأحوال والمناسبات التي تمرّ بها؛ بمعنى أنّ القوّة العاقلة لو انتصرت على القوى

---

(١) مصدر لـ(انظلَمَ) من باب المطاوعة؛ أي: احتمل الظُلم. انظر: ابن منظور، محمّد بن مكرم، لسان العرب: ج١٢، ص٣٧٧. (خ).

(٢) الصدوق، محمّد بن علي، علل الشرائع: ج١، ص٤ ـ ٥.

الثلاث الأُخرى، وتغلّبت الإرادة العقلانيّة، وتحقّق الاعتدال الكامل في الوجود البشري؛ لبلغت النفس الإنسانيّة مرحلة السكون والاطمئنان، وفي هذه الحالة يُقال لها: (النفس المطمئنة). وأمّا لو لم تتمكّن القوّة العاقلة من صرع الرغبة الجامحة في النفس، وظلّت تقارع وتدافع، فإنّه في أيّ مورد خسر العقل المنازلة بسبب ارتكاب المعاصي، وتبع ذلك توبيخ للنفس ولومها سيُطلق حينها على النفس: (النفس اللّوّامة)، وأمّا لو استسلمت القوّة العاقلة من دون دفاع أو مقاومة لرغبات النفس وميولها، سمّيت النفس حينها بـ(الأمّارة بالسوء)؛ وذلك لأنّه حينما تتنصّل قوى العقل عن المجابهة والمقارعة وتطيع القوى الشيطانيّة، سوف لا يبقى إلّا إرادة هزيلة وعجز تامّ تُسيطر من خلاله الشهوة والوحشيّة على سائر وجود الإنسان.

قابليّات الإنسان وقدراته

إنّ النفس البشريّة في بداية ولادتها ضعيفة بسيطة خالية من أيّ نزعة أو ميل، ولكن بمرور الوقت تبدأ باكتساب قدرات مختلفة، إلى جانب ذلك فإنّها قد تفقد في وقت لاحق بعض الخصائص والقوى المعيّنة التي كانت قد اكتسبتها. وهذه القدرات والطاقات التي تثبت وتستقرّ في النفس يُقال لها: مَلَكة، وكلّ مَلَكة هي صفة لروح الإنسان ونفسه، وهي التي تمنحه القدرة والسرعة في أداء جملة من الأعمال والوظائف وكسبها بيسر وعفويّة.

هذا، وتنقسم مَلَكات النفس إلى مجموعة من الأقسام المتشعّبة، وهي:

١ـ المَلَكات الجسمانيّة، تتجلّى وتظهر أكثرها في أعضاء البدن، ويُمكن الحصول على هذه المجموعة من المهارات والمَلَكات من خلال الرياضة البدنيّة، وذلك من قبيل: المشي والسباحة والفروسيّة وسائر أنواع الرياضة.

٢ـ المَلَكات الذهنيّة والقدرات العقليّة، التي تُكتسب من خلال التربيّة الذهنية والرياضة العقليّة، من قبيل: مَلَكة التركيز، والحفظ، والاستذكار، وسرعة البداهة، والقدرة على التحليل والنقد، والتفكير، والتخطيط، وسائر أنواع الفعاليّات الفكريّة.

٣ ـ المَلَكات الروحيّة والقلبيّة في الإنسان، وهي المَلَكات التي تناولتها الكتب الأخلاقيّة، فالإيجابيّة منها هي: مَلَكة الشجاعة، والسخاء، والحلم، والتواضع، والجلادة، والجديّة، أمّا السلبيّة منها فهي: الحسد، والكذب، والنفاق، والمكر، والرياء، والقسوة.

فوائد الملكة

كلّ مَلَكة تُعدّ بمثابة الأداة المفيدة والمؤثّرة تحت تصرّف الإنسان، وعند استخدامها نحصل على فائدة كبيرة بجهد قليل ومدّة قصيرة، فكما أنّ المبتدئ في تعلّم الخطّ يحتاج إلى وقت أطول وجهد أكبر لبلوغ الجماليّة في الخطّ والمهارة في رسم الحروف، بخلاف الخطّاط والشخص المتمرّس في هذا المجال، كذلك الحال بالنسبة إلى الملكات الأخلاقيّة، كحالة الخشوع في الصلاة[1] فإنّها تختلف بالنسبة للمصلّين العاديين عند قياسهم بمَن هذّبوا أنفسهم، وحصلوا على ملكة حضور القلب والخشوع في الصلاة. ومن هنا؛ فإنّ المهمّة تكون في البداية صعبة أو كثيرة المشقّة أو تبدو مستحيلة أحياناً، لكن مع تحصيل المَلَكة فإنّها لا تكون غير مستحيلة وحسب، بل بمرور الزمان تكون سهلة جدّاً، وبالتالي فإنّ من النتائج المهمّة والغنيّة للمَلَكة هي سهولة العمل وثباته وتحسين مستواه عند الأداء.

قواعد تحصيل المَلَكة

هناك جملة من القضايا والأمور لها إسهام في تحصيل المَلَكة، وإليك أهمّها:

١ ـ إمكانيّة التحقّق، والتي تعني أنّ تغيير المَلَكات أو تحصيلها في أيّ عمر أو

---

(١) إنّ حضور الذهن في الصلاة يعني حفظ التركيز الذهني والالتفات إلى معاني ومفاهيم الألفاظ وحركات الصلاة، وأمّا حضور القلب فيها فهو عبارة عن حفظ حالة الروح المنكسرة والذليلة والخاضعة أمام الباري تعالى، والتوجّه القلبي الخالص إليه.

فترة زمنيّة بالنسبة للإنسان هو أمر ممكن، وفرصة التحقّق تكون متاحة طوال الحياة، وإن كانت أسهل وأيسر في فترة الشباب.

٢ ـ التدرّج والتعاقب الزمني، بمعنى أنّ ظهور المَلَكة وتجلّيها يحتاج إلى وقت، فإنّه لا يمكن لأيّ مزيّة أو صفة أن تظهر دفعة واحدة في الوجود البشري؛ من هنا نجد أنّ ولادة مَلَكات النفس واضمحلالها وموتها تشبه إلى حدٍّ كبير حركات العالم المادّي والتحوّلات الحاصلة فيه، حيث تحتاج في تبلورها وصيرورتها إلى انصرام الزمان وتقادمه، فلو أراد طفل منّا أن نقوم بعمل خارق يجعل منه رجلاً كبيراً بسرعة، ماذا نقول له؟ هل يمكننا ـ مثلاً ـ أن نُرشده إلى تناول مقادير كبيرة ومختلفة من الطعام؟! قطعاً لا، فإنّ الأمر ليس كذلك، فإنّ كيفيّة الحصول على حضور القلب في الصلاة أو كبح جماح الغضب ـ مثلاً ـ تشبهان إلى حدٍّ ما أمر هذا الطفل؛ فلا بدّ أن يكون تحقيق هذه الأمور في النفس البشريّة بشكل تدريجي وليس بصورة دفعيّة مفاجئة، ثمّ إنّه وممّا لا شكّ به أنّ انطباعنا السلبي عن الدور الهامّ للزمان وحركة الوقت سوف يُؤدّي إلى العجلة في تنفيذ البرنامج المُعدّ لتحصيل المَلَكة، الأمر الذي ينتهي بنا إلى الإخلال في صناعة مَلَكاتنا، وبالتالي فسوف لا يكون الناتج عن هذا الاستعجال إلّا الهزيمة واليأس.

٣ـ الأثر العميق لاستمرار العمل وتكراره، إذ إنّ تحقّق أيّ مَلَكة يقع من خلال تكرار العمل المطلوب تحصيله، فمن أجل إجادة مَلَكة الخطّ ينبغي تكرار الكتابة ورسم الحروف والخطوط بشكل مستمرّ، كذلك فإنّ الحصول على مَلَكة قيادة السيّارة يجب أن يكون من خلال التعلُّم المستمرّ والقيادة المتكرّرة؛ ومن هنا فإنّ اكتساب أيّ صفة لا يكفي فيه التمنّي والدعاء فقط، بل إنّ الإقدام الفعلي والممارسة العمليّة شرط ضروري في تحصيل مثل هذه المهارات.

قال الإمام علي عليه السلام: «**مَن يعمل يزدد قوّة. مَن يُقصّر في العمل يزدد فترة**»(١).

٤ ـ التأثير الخفيّ والأكيد للعمل؛ وذلك باعتبار أنّ كلّ عمل عندما يكون مؤثّراً بنحو من الأنحاء في ظهور المَلَكة، فإنّ تأثيره سوف يكون في الغالب غير ملحوظ وغير محسوس، فلو كان تكرار ألف صفحة من الخطّ ضروريّاً في تحقّق ملكة المهارة في الخطّ، فإنّ الانتهاء من كلّ صفحة يعني الاقتراب من تحصيل تلك المَلَكة واحداً بالألف، ولكنّه رغم كلّ ذلك لا يُلاحظ الكاتب في الغالب تغييراً معتدّاً به على مستوى نضوج المهارة بعد كتابة بعض تلك الصفحات.

وهذه القاعدة تشمل المَلَكات الفاسدة أيضاً، بمعنى أنّه كلّما حصل تخلّف في الوعد أو نقض في العهود مثلاً فإنّ ذلك يعني التقدُّم خطوة باتّجاه اللؤم، طبعاً مع كون هذا الأثر غير محسوس، قال الرسول الأكرم محمّد صلى الله عليه وآله: «**إنَّ المؤمِنَ إِذَا أَذْنَبَ ذَنْبا كَانَتْ نُكْتَة سَوْدَاءُ فِي قَلْبِهِ، فَإِنْ تَابَ وَنَزَعَ وَاسْتَغْفَرَ صُقِلَ قَلْبُهُ، فَإِنْ زَادَ زَادَتْ**»(٢).

إنّ من حيل الشيطان المعقّدة هي قدرته على التعاطي مع أعمالنا الحسنة والقبيحة بشكل مزدوج، وقدرته أيضاً على توظيف كلّ منهما لصالحه لو تحقّقت استجابتنا له؛ وذلك لأنّ الإنسان كلّما اقترف عملاً قبيحاً يظهر الشيطان له بأنّ ما قام به لم يكن سوى عمل صغير جدّاً، يُمكنه تجاوزه وتغييره، وهذه الوسوسة تُؤدّي بالإنسان إلى التساهل مع نفسه، ومن ثَمّ تبرير تكرارها لذلك العمل بسهولة، هذا من جهة.

ومن جهة أُخرى فإنّ المرء كلّما زاول عملاً حسناً، زيّن الشيطان ذلك العمل في نفسه وأظهره أمامه بأنّه عظيم جدّاً، وهكذا يتظاهر أنّه بعد أن يقوم بهذا العمل

---

(١) الآمدي التميمي، عبد الواحد، تصنيف غُرر الحِكَم ودُرر الكَلِم: ص١٥٢وص١٥٨، ح٢٨٠٢ و٣٠٠٨؛ وفي هذا الصدد يُمكن أن يُقال كذلك: إنّ تأثير الصوم في حصول مَلَكة التقوى والسيطرة على النفس هو نتيجة هذه الحقيقة، قال الله تعالى في كتابه الكريم: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾. البقرة: آية١٨٣.

(٢) الحويزي، عبد علي بن جمعة، تفسير نور الثقلين: ج٥، ص٥٣٢.

سوف يكون في وضع مميّز يرغب فيه الناس ويُعجبون به، وهذه الوسوسة من الشيطان في نفس الإنسان تُؤدّي به إلى العُجُب، وتُشعره بالاستغناء، وتوقف حركته.

وحينما يظهر له من خلال القرائن والشواهد أنّ ما جاء به من عمل قليل لا يستتبعه ذلك الأثر المهمّ الذي كان ينتظره بسبب تسويل الشيطان وغوايته، فإنّ ذلك يُنتج حصول حالة اليأس وخيبة الأمل لدى ذلك الشخص، وسوف يتوقّف عن تكرار ذلك العمل، الأمر الذي سيجعله لا يُفكّر بالتكامل أو إصلاح ما فسد من نفسه، أو يجعله يُنكر المنازل الإنسانيّة العالية عند قياسها بضعف الهمّة وقلّة الحيلة اللتين بلغهما.

وفي الحقيقة، إنّ الشيطان عندما يتعاطى مع العمل القبيح للإنسان، يجعل العنصر الثاني من هذه النقطة، وهو (التأثير الأكيد للعمل) ضعيفاً جدّاً، بينما يجعل العنصر الأوّل منها، وهو (التأثير الخفيّ لكلّ عمل) عظيماً وكبيراً جدّاً. ومن جهة أخرى يسعى ـ في قبال العمل الصالح ـ إلى إنكار العنصر الثاني والتصديق بالعنصر الأوّل في هذه النقطة.

٥ ـ صعوبة تحصيل المَلَكة وضرورة الاستقامة، تمرّ فترة تحصيل المَلَكة بصعوبة على الإنسان، وعلى فاقد المَلَكة أن يبذل جهداً كبيراً، وأن يصرف وقتاً طويلاً لنيلها، وبما أنّه لا يُمكن للإنسان في العادة أن يبلغ النتيجة المطلوبة في بداية العمل، فإنّ هذا يكفي لإن يشعر الإنسان بالسأم والضجر(١)، إلّا أنّ الله سبحانه يُبشّر مثل هؤلاء الأفراد، بقوله: ﴿إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾(٢).

---

(١) إنّ التركيز والنَّظم في العمل يجب أن يقع بموازاة الاعتماد على الوعد والدعم الإلهي، فقد قال الله تعالى في كتابه الكريم: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾. العنكبوت: آية٦٩.

(٢) الشرح: آية٦.

٦ ـ اقتفاء الدقّة في مراحل تحصيل المَلَكة، فإنّ توفّر الإنسان على عنصر الانتباه في مراحل الوصول إلى المَلَكة، ودقّته في عمليّة اكتسابها، يُؤثّر دون شكّ في تحقّقها وبلوغها، مثال ذلك: ما يُكتب من الصفحات في أوقات الجدّ والنشاط وعند اعتدال المزاج، يكون له دورٌ كبير في اكتساب مهارة الخطّ وتنميتها.

قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**إن الله يُحب عبداً إذا عمل عملاً أحكمه**»(١)، وقال أيضاً: «**إذا عمل أحدكم عملاً فليُتقنه**»(٢).

٧ ـ التخطيط والاستفادة من تجارب الآخرين؛ إنّ التفكير في عمل ما والتخطيط له، والوعي بالتفاصيل اللازمة لاكتساب القدرة فيه، والاستفادة من تجارب الآخرين والتشاور معهم، ووجود الأُستاذ والمُربّي، كلّ ذلك سيُفضي بشكل مؤكّد إلى تحصيل المَلَكة بوقت أقلّ، ويُسهم كذلك في تقليل نسبة حصول الأخطاء والوقوع في العثرات.

٨ ـ الاعتدال والاحتياط، حيث قال رسول الله صلى الله عليه وآله في هذا الصدد: «**تكلّفوا مِن العَمَلِ مَا تُطِيقُونَ**»(٣). فإنّ البرنامج العملي الرامي إلى كسب المَلَكة ينبغي أن يتناسب مع الطاقة الفعليّة للفرد؛ وذلك لأنّ طاقة الإنسان في بداية العمل ضعيفة جدّاً، فإذا تمّ تحميل النفس (أو شخص آخر) أكثر من الطاقة المعتادة، فإنّه سينتهي إلى ترك العمل من الأساس، أو إلى عدم الاستمرار فيه، وربّما تكون مضرّة في بعض الأحيان؛ لذا فإنّه يُوصى ـ في المقام ـ باتّباع أمرين، هما:

الأوّل: جانب النهي، بأن لا يكلّف الفرد نفسه أكثر من طاقتها المتناسبة مع كلّ مرحلة.

---

(١) ابن بابويه الصدوق، محمّد بن علي، الأمالي: ص٣٨٥.

(٢) الكليني، محمّد بن يعقوب، الكافي: ج١، ص٢٦٣.

(٣) الأحسائي، ابن أبي جمهور، عوالي اللآلئ: ج١، ص٦٩.

الثاني: جانب الأمر، ويعني أنه كلّما ازدادت قدرة النفس وقابلّيتها، فعلى الفرد أن يزيد من تكاليفه؛ وذلك لأنّ التكليف لا ينبغي أن يكون أقلّ مستوى من حدود القابليّة.

إنّ الممازجة بين هاتين القضيّتين هي التوصية بالاعتدال في التخطيط؛ لأنّ القضيّة السلبيّة ناظرة إلى المعطيات السلبيّة، والقضيّة الإيجابيّة ناظرة إلى ضرورة الحركة المستمرّة والارتقاء بالمَلَكة وتقويتها، وفي هذا السياق هناك أمر مهمّ وهو ضرورة الاستفادة من المَلَكة بعد تحصيلها، بمعنى أنّه بعد أن تنغرس المَلَكة في الوجود الإنساني، يكون استخدامها والاستفادة من نتائجها وآثارها متاحاً للإنسان، فالخطّ بالنسبة للماهر بفنّ الخطّ أمر سهل ويسير، ولكنّ الاستمرار في هذا الفنّ يلزمه العزم والهمّة؛ وذلك لأنّه بمجرّد التوقّف والإحجام عن استخدام هذه الطاقة، سيكون مصير هذه المَلَكة هو الاندثار وانعدام الفائدة. كما أنّه لو تمّ كتابة اللوحات بلا مبالاة أو اهتمام ومن دون رغبة، فليس من البعيد أن يعتاد كاتبها بمرور الوقت على العجلة وعدم الدقّة، وبالتالي يكون ذلك جزءاً من سجاياه وصفاته اللصيقة؛ لذا فإنّ الممارسة المستمرّة تُضاعف الطاقات من أجل استثمار النتائج الحاصلة من العمل؛ ممّا يؤدّي في نهاية المطاف إلى نضوج المَلَكة الفاعلة والتحمّل والصبر والنشاط والاستقامة، للحيلولة دون حصوله حالة الكسل والضعف والملل.

نظام التقييم الفطري والبيئي ودورهما في بلورة الفضيلة أو العادة

إنّ عمل النجّار على الخشب يُسمّى (صنعة)، ورعاية البُستاني لأغصان الأشجار يُسمّى (تربية)، والهدف من الصنعة خلق ما نرغب فيه من أشياء، بينما يكون هدف البُستاني هو الغاية الوجودية التي يسير إليها الفسيل؛ وببيان آخر: إنّ ما يطلبه البُستاني هو نموّ الفسيل وتفتّحه، حيث تكمن في هذا الفسيل الغضّ قابليّات واستعدادات عديدة، يُمكن أن تتجلّى وتظهر لو أُتيحت له الظروف

الملائمة، وتوفّرت له المقدّمات التي يحتاج إليها. ومن هنا؛ فالصانع يرتئي لمُنتجه صورة أُخرى وحالة أخرى، ويُضفي عليه ذلك بيديه الماهرتين، بينما يبدأ البُستاني من أصل طبيعة الفسيل واستعداداته وقابليّاته، ومن ثَمّ يسلك بها إلى الغاية المثاليّة التي تقتضيها طبيعته وشأنه، وبحسب الواقع فإنّ الصانع يُلقي فنّه على لوحة الخشب، وفي حين أنّ البُستاني يكشف عن الفنّ والجمال الذي يحتوي عليه الغصن. وبعد هذا البيان المفصّل يُمكننا أن نتساءل: أيّ منهما[1] جدير بالاهتمام والعناية؟ ودعنا نطرح السؤال بطريقة أُخرى لنقول: أيّ منهما أكثر قيمة وشأناً ومنزلة؟

إنّ التقييم يعني تحديد أهمّيّة الشيء ومكانته وتشخيص محاسنه أو مساوئه، وبما أنّ قياس قيمة أيّ شيء والبحث عن شأنه بحاجة إلى معيار؛ لذا ينبغي الحديث عن نظام القِيَم والمعايير، وهنا نتسائل: من أين يمكن تحصيل هذه المعايير المنهجيّة؟ وجوابه: إنّ ذلك يعتمد على الرؤية التي نختارها، أو بعبارة أُخرى: في أيّ نقطة يجب أن نقف للحكم على عملي النجّار والبُستاني، وعلى أيّ أساس يكون ذلك؟

فنحن إذا نظرنا إلى الفسيل من الخارج سنراه مجرّد خشبة بغضّ النظر عمّا يحمله من استعداد، لكن إذا ما نظرنا إليه من الداخل فإنّ قابليّات الفسيل هي التي تُعيّن مسار التربية، وتُحدّد لنا ـ نتيجة لذلك ـ المعيار في التقييم. إنّ هاتين النظرتين هما اللتان توضّحان نظامي التقييم، ويُمكن تسميتهما بنظام التقييم البيئي (التقييم من الخارج)، ونظام التقييم الفطري (التقييم من الداخل).

ومن هنا؛ فالمرء بعد أن ترى عيناه النور سيتعرّف بشكل تدريجي على النظام القِيَمي المتعلّق به، ويحاول تعلّمه أيضاً، ويستخدمه من أجل التعامل مع محيطه، وهذا النظام القيمي هو حصيلة ثقافة محيطه الذي تربّى وعاش فيه.

فإنّ بني الإنسان يقومون ـ وبالرغم من كلّ القيود التي تُحيط بقابليّاتهم

---

(١) (أي: عمل النجّار أو رعاية البُستاني).

الفكريّة والعاطفيّة ـ بتأطير رُؤاهم ورغباتهم وطموحاتهم المحدودة ـ والخاطئة أحياناً ـ بإطار الرغبات والأهداف العامّة، حتّى يتمّ تحويلها ـ بعد ذلك ـ إلى ثقافة سائدة. وتزداد هذه العمليّة المضطربة تعقيداً إذا ما أضفنا لها عاملين آخرين، يمتلك كلّ منهما القدرة على إيجاد ثقافات فرعيّة مؤثّرة، وهذان العاملان هما: طمع الأثرياء والمتسلّطين من جهةٍ، والعادات والمقاصد والأوهام لبعض المتنفّذين من جهةٍ أُخرى. وبهذا الشكل؛ تبلور منذ البدء اتّجاهان في تربية الإنسان، أحدهما: التربية الفطريّة، والآخر: التربية الثقافيّة(١).

هذا، وقد أكّد القرآن الكريم إلى جانب تعاليم النبيّ والأئمّة الأطهار عليهم السلام على ضرورة التربية الفطريّة، في حين كان منطق المشركين هو الدعوة إلى عادات الآباء والأجداد الذين كانوا يعتقدون بنُظُم القيم الجاهليّة. وإنّ الدعوة التي كان ينادي بها نبيّ الإسلام صلى الله عليه وآله كانت تقوم على تعاليم الوحي والدين القيّم الذي عبّر عنه القرآن الكريم صراحة بـ(فطرة الله)(٢).

كما أنّه وفي نفس الصدد يقول الإمام علي عليه السلام: «**فَبَعَثَ فِيهِمْ رُسُلَهُ، وَوَاتَرَ إِلَيْهِمْ أَنْبِياءَهُ، لِيَسْتَأْدُوهُم مِيثَاقَ فِطْرَتِهِ، وَيُذَكِّرُوهُمْ مَنْسِيَّ نِعْمَتِهِ، وَيَحْتَجُّوا عَلَيْهِمْ بَالتَّبْلِيغِ، وَيُثِيرُوا لَهُمْ دَفَائِنَ العُقُولِ**»(٣)؛ أي: ليُسخّروا هذه الحجج الباطنة، ويستعينوا بها للوصول إلى السعادة والكمال المنشود.

وفي ضوء ما جاء في النصوص الشريفة فإنّ الإنسان مفطور على التوحيد، وقد حبّب الله إليه الإيمان به عزّ وجلّ، وهو الأمر الذي نطق به القرآن الكريم أيضاً(٤)؛

(١) وبتعبير علماء النفس من الجيل الثالث: إنّ الاتّجاه الأوّل يتّبع نظام التقييم العضوي المعتمد على البنية الوجودية للكائن الحي، فيما يتّبع الثاني نظام التقييم البيئي.

(٢) قال تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾. الروم: آية ٣٠.

(٣) نهج البلاغة: ص٤٣، الخطبة ١.

(٤) قال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ ۚ أُولَٰئِكَ

ومن هنا فإنّ عمليّة التربية هي عبارة إزاحة العقبات أمام نضوج الفطرة وتكاملها.

قال أحد الشعراء:

اكتشف جوهر ذاتك هذا هو الكمال وحسب

اعثر على نفسك في أعماق نفسك هذا هو الكمال وحسب(١)

ثمّ إنّه وفي ضوء ما جاء في قول الإمام أمير المؤمنين عليه السلام ـ أعلاه ـ أنّ الأنبياء عليهم السلام هم أكبر مربّين ومعلّمين للبشر، قد أرسلوا من أجل رفع الحُجُب عن نور العقل؛ وعليه فلأجل إيجاد المَلَكات الإيجابيّة أو الفضائل الأخلاقيّة ينبغي علينا في الخطوة الأُولى البحث والتنقيب عن الاستعدادات والحدود والحقائق الوجوديّة لأنفسنا والكشف عنها بدقّة، وفي الخطوة الثانية التخطيط من أجل إنعاشها وتكاملها، وفي الخطوة الثالثة تنفيذ ما جاء في الخطوة الثانية بعزم وقوّة وثبات.

الأسئلة

١ـ ما هو الدليل على اشتمال النفس الإنسانيّة على أكثر من قوّة باطنيّة؟ وما هي أبرز القوى في وجود الإنسان؟

٢ـ ما هو معنى المَلَكة في علم الأخلاق؟ استعرض أنواع المَلَكات الإنسانيّة وبيّنها باختصار؟

٣ـ ما هو الفرق بين الصناعة والتربية؟

٤ـ اذكر بعضاً من قواعد تحصيل المَلَكة؟

للبحث والتأمّل

١ـ لقد كان للحكماء المسلمين نظريّات مختلفة في بيان قوى النفس

﴿هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾. الحجرات: آية٧.

(١) گوهر خود را هويدا كن كمال اين است و بس

خويش را در خويش پيدا كن كمال اين است و بس

واستعراضها، وما جاء في هذا الدرس هو إحدى النظريّات في ذلك، هل يُمكنك استعراض بعض النظريّات الأُخرى؟

٢ـ ما هي فوائد القوّة الشهويّة والقوّة الغضبيّة ومساوئهما؟ وعلى الإجمال هل أنّ القوّة الشهويّة حسنة أو سيّئة؟

٣ـ هل أنّ هناك فرقاً بين العادة والمَلَكة؟ ولو اتخذ العمل الأخلاقي شكل العادة وصورتها هل سيفقد قيمته وشأنه؟ وما مدى إمكانيّة القول بالتفصيل في هذا الصدد؟

٤ ـ برأيك هل يُمكن اعتبار القول بالفطرة في الإسلام هو نفسه القول بالنظريّة الطبيعيّة، أو أنّ هناك اختلافاً بين القولين؟

٥ ـ لقد ذكر القرآن الكريم أسماءً أُخرى لحالات أُخرى للنفس، ابحث عنها واذكرها؟

الفصل الثاني

الهدف من التكامل الأخلاقي

الأهداف

يُتوقّع من الطلّاب الأعزّاء بعد دراسة هذا الفصل:

١ـ أن يسعَوا للارتقاء بهويّتهم الفرديّة والاجتماعيّة ضمن إدراكهم الصحيح والواضح لهما.

٢ ـ أن يقفوا عن كثب على الهدف من كمالهم وقابليّتهم في الميدانين الفردي والاجتماعي.

٣ ـ أن يُدركوا بشكل واضح مفاهيم القُرب، وتعلُّق النفس الإنسانيّة وتكاملها.

٤ ـ أن يرفعوا مستوى قُدراتهم في بُعدي الإيمان والعمل بعد الانتباه إلى الهدف من التكامل في الحياة الفرديّة والاجتماعيّة.

***

من الأسئلة المعروفة والمتكرّرة في كلّ مدرسة أخلاقيّة هو السؤال عن الغاية من الحياة الأخلاقيّة؟ وما هو الهدف الذي من أجله ينبغي مراعاة القيم والمعايير الأخلاقيّة؟

وفي مقام الإجابة عن هذا التساؤل طُرِحَت جملة من الخيارات والأجوبة لصياغة هدف واضح للأخلاق، من قبيل: الحصول على الهدوء والسكينة، والحصول على اللذّة والقدرة. وفي هذا الفصل سوف نبحث عن هدف الحياة الأخلاقيّة من وجهة نظر الإسلام.

فنحن بنو البشر ومنذ اليوم الأوّل الذي وعينا فيه الحياة وأدركنا معه وجود أنفسنا، كنّا دائماً ما نسعى ونطمح إلى الحصول على أفضل الحالات وأحسنها، وفي ظلّ هذا السعي الحثيث لبلوغ هذه الغاية تارةً نواجه الهزيمة والانكسار، الأمر الذي يُؤدّي بنا إلى الاستياء والضجر، وتارةً أُخرى نبلغ ما نرمي إليه وننال قصدنا، وهو الذي يجعلنا نرضى ونسعد، ولكن ما يحصل في الغالب أيضاً أنّنا ما أن نبلغ

الهدف والغاية الفُضلى التي كُنّا نهوى الوصول إليها، نُبادر إلى البحث عن وضع أفضل ممّا توصّلنا إليه، فلو أنّنا امتلكنا حاجةً ما، فبعد أن تأنس بها أنفسنا لمدّة معيّنة، سوف نعيش حُلُم امتلاك حاجة أفضل منها، بل سيُراودنا الشعور بالحرمان والإحباط لفقدانها. وبعد هذه التجارب من الطبيعي أن نسأل أنفسنا عن أفضل الحالات التي يُمكن أن ننالها، وما هي أسمى الأهداف السعيدة التي يُمكننا الوصول إليها؟ وما هو الكمال النهائي بالنسبة لنا نحن بني البشر؟ وأين سيصل الإنسان في نهاية مسيرته؟ هذا، وتظهر أهمّيّة مثل هذه الأسئلة بشكل أكبر ـ دون شكّ ـ بعد معرفتنا بأنّ الله تعالى فوّض للإنسان صناعة شخصيّته واختيار الطريق الذي يُريده.

ربّما يكون أهمّ لغز بشري وأعقده على طول التاريخ هو السؤال عن مصير الإنسان وعن غايته النهائيّة؟ فإنّ الإنسان كلّما انصرف عن الأمور الحياتيّة والمشاغل الدنيويّة، ومنح لذاته فرصة الخلوة والحديث مع النفس، وبدأ بالتحاور معها ـ وإن كان بشكل لا شعوري ـ فإنّه سيباشرها بالسؤال عن الغاية والهدف الذي يليق بالبشريّة وعن النهاية التي تنتظر الإنسان حقّاً؟ وبقليل من العناية والتأمّل يُمكن استعراض المزايا والخصائص التي يمتاز بها الهدف السامي للحياة على النحو التالي:

١ ـ الكمال والخلوّ من النقص.

٢ ـ بيان منزلة الإنسان والإجابة عن الأسئلة التالية: من أين جئتُ؟ ولماذا جئتُ؟ وإلى أين أنا ذاهب؟

٣ ـ كونه ذا أثر خارجي عامّ، يُمكنه رسم طبيعة علاقة أفراد المجتمع مع بعضهم البعض، ويُمكنه أيضاً أن يخلق من الفرد عنصراً فاعلاً ومفيداً في المجتمع الإنساني.

٤ ـ كونه منطقيّاً ومعقولاً.

٥ ـ كونه مُتاحاً وذا مراتب؛ لكي يتأتّى لكلّ إنسان الحصول على ما يُناسبه منها بمقدار قابليّته.

٦ ـ أنّه لا يضمحل أو يزول؛ وذلك ليبقى الحافز للحياة وبذل الجهد نابضاً دائماً.

ولا شكّ فإنّ الوعي الكامل بخصائص الهدف النهائي وحقيقته يكون ممكناً فقط عندما يضع الإنسان يده على تلك الخصائص والأوصاف، فلو كان هناك وصف يلفت انتباه الآخرين لإبعادهم عن النار وتحذيرهم منها، فذلك الوصف سيكون بيّناً أكثر بالنسبة للإنسان الذي بلغ مبلغاً من الكمال، واكتسب حقائق خاصّة، ونال بعض الوضوح تجاه الأشياء، وذلك بالقياس إلى الذين لم يتسنَّ لهم نيلها، ولم يكن لديهم أدوات إدراكها، فإنّ ذلك الوصف سيكون بالنسبة لهم مجرّد تصوّر مبهم ولوناً من ألوان الخيال. وبناءً على هذا؛ تختلف طبيعة الحذر والابتعاد عن النار، فمَن كانت لديه صورة النار واضحة وبيّنه فيما يتعلّق بحجم الخطر والضرر الذي سيلحق بالإنسان بسببها، ستكون حركته أسرع وأقوى من الذي لم تكن لديه الصورة واضحة بذلك الحدّ والمقدار.

البُعد الاجتماعي والفردي في وجود الإنسان

إنّ للإنسان ذاتاً وهويّة فرديّة، وله أيضاً ذات وهويّة اجتماعيّة(١)، وبالتالي فكما أنّه مكلّف بمعرفة نفسه والتعرّف على خصائصها وصناعة ذاته الفرديّة، فهو مكلّف أيضاً بمعرفة ذاته الاجتماعيّة والوعي بخصائصها وصناعتها. وبعبارة أُخرى: كما يجب على الإنسان أن يطّلع على إمكانيّاته الشخصيّة، وقابليّاته ومجالاته، وإدراك استعداداته، وما يجب عليه وما لا يجب، ومعرفة نقاط ضعفه، عليه أن يُعزّز من قيمته في الحياة الاجتماعيّة باعتباره عضواً في الجسد الاجتماعي.

---

(١) هويّة كلّ فرد تعني خصوصيّته التي لا توجد في غيره من الأفراد، بمعنى أنّها الصفات والنعوت التي يمتاز بها عن الآخرين.

إنّ الإنسان بمقتضى إنسانيّته مكلّف باجتياز هذا الطريق الطويل والصعب من أجل الوصول إلى هدفه السامي، وهو بلوغ الحياة الطيّبة التي تكون من دون شكّ هي الضامن لتحقُّق القيم الإنسانيّة في الحياة الفرديّة؛ ولذلك يكون الإنسان مكلّفاً أيضاً بالحضور الفاعل في الحياة الاجتماعيّة، وبمقتضى طبيعته الاجتماعيّة عليه أن يعيش في المجتمع. وبحسب الواقع، إنّ الكمال الإنساني المطلوب مرتهن بالحياة الاجتماعيّة، وأنّ تحصيله يتسنّى من خلال الحضور في الميدان الاجتماعي. وبعد هذا الإيجاز سنتناول هذين البُعدين بشيء من التفصيل.

١ـ هدف التكامل وقيمة الإنسان في الحياة الفردية

لقد بلغ الأنبياء والأولياء الصالحون الهدف السامي والكمال المنشود، وبعد عودتهم من هذا السفر المعنوي قالوا: إنّ الإنسان يُمكنه الوصول إلى منازل ومقامات أسمى ممّا بلغته الملائكة، ويكون أقرب إلى الحقّ تعالى، وبذلك يكون قد بلغ مقام (القرب الإلهي)، وفي هذه النقطة سوف نُسلّط الضوء على مفهوم (القُرب) ومفهوم (الحياة الطيّبة) بالنسبة إلى الإنسان.

مفهوم القُرب

لقد اعتبر القرآن الكريم والروايات الشريفة أنّ نهاية المسيرة الإنسانيّة وغايتها هي القُرب إلى الله؛ ومن هنا نجد أنّ إدراك مفهوم القُرب بشكلٍ أفضل يحظى بأهمّيّة كبيرة؛ لأنّه يزيد في معرفتنا بأنفسنا والمكانة السامية لنا ضمن النظام الكوني، هذا من جهة، ومن جهة أُخرى يخلق فينا الحافز والدافع الأقوى لإكمال هذه المسيرة[1].

---

(١) إنّ معرفتنا بالأشياء تكون على مراتب عديدة ومختلفة، فإنّنا ومن خلال الأدوات والقنوات المختلفة للإدراك يُمكننا معرفة جملة من الظواهر وفي أصعدة ومناسبات مختلفة، فمَن يصف النار من خلال بيان مفهومها ومعناها، فسوف يكون له في بداية الأمر فهم أوّليّ عن مفهوم النار، وفي مرحلة أُخرى لو شاهد النار سوف يعرفها أكثر، إلّا أنّه لو وضع في النار مثلاً وأحرقته لصار ←

إنّ القُرب إلى الله لا يعني تقليص المسافة المكانيّة والزمانيّة بيننا وبين الله؛ وذلك لأنّ وجوده سبحانه فوق الزمان والمكان، والموجودات المادّية بالنسبة إليه تعالى متساوية في كلّ زمان ومكان؛ ومن هنا فإنّ البُعد عنه والقُرب إليه بهذا التفسير غير مطروح وغير مفروض إطلاقاً، هذا من جهة ومن جهة أُخرى فإنّ القُرب منه تعالى ليس بمعنى القُرب الاعتباري الوضعي، مثال ذلك: المقرَّبون من الحاكم هم الذين يلتفت إليهم الحاكم ويعتني بهم، على الرغم من ابتعادهم عنه من حيث المسافة أو اختلاف تواجدهم المكاني بالنسبة إليه، لكنّ هذا القُرب مجرّد قُرب اعتباري قابل للتغيّر والاستبدال، بمعنى أنّه بمجرّد تغيّر الاعتبار يُمكن أن يكون شخص آخر هو المقرّب من الحاكم، فيشغل الوزارة أو الوكالة أو أيّ منصب آخر.

إنّ القُرب من الله في الحقيقة هو واقع وجودي؛ لأنّ الله هو الكمال المطلق، والقُرب من الكمال المطلق بمعنى التحقّق الأكمل، فعندما نقول: إنّ الجامعي المجتهد أقرب ليكون معلّماً وأستاذاً من التلميذ في الصفّ الثاني الابتدائي، فإنّنا لا نأخذ بعين الاعتبار أنّ القُرب هنا بمعنى المسافة الزمانيّة أو المكانيّة، أو المكانة

⬅

إدراكه لحقيقتها أكثر وأعمق. إلّا أنّه في المقابل نحن نفتقد الأدوات لإدراك جملة الحقائق الأُخرى، فمثلاً لو أردنا الحديث عن ملائكة الله المقرّبين لقلنا: إنّها موجودات لطيفة وجميلة لها أجنحة وريش أبيض، تأتي بالوحي والتعاليم الربانيّة من السماء إلى الأرض، وتُلقيها على صدور أنبياء الله، وفي الحقيقة أنّ هذا الفهم ليس صحيحاً، وإنّما يُقال عادة بسبب استئناسنا بالموجودات المادّية، والمسافة البعيدة بيننا وبين موجودات ما وراء الطبيعة؛ ومن هنا فنحن نُرجع تلك الموجودات إلى تجاربنا ومعطياتنا المادّية من أجل تفسيرها وتقريبها، إلّا أنّه في حال أصبح العلم بحقائق العالم المخفيّة أمراً ضروريّاً، وصارت المعرفة بمفاهيم ما وراء الطبيعة جدّاً، لوجب علينا ومن أجل الوصول إلى ذلك توسيع أدواتنا الإدراكيّة وقنواتنا المعرفيّة، ومن خلال تكاملنا الوجودي سوف ننتقل من عالم الحسّ إلى عالم العقل، ومن مرحلة العقل إلى مرحلة الشهود.

والوضع الاجتماعي، بل إنّ مقصودنا من القُرب هنا هو أنّ المسافة قريبة بين الطالب الجامعي والأستاذيّة بلحاظ الجانب العلمي والكمال الوجودي، وأنّ التشابه بينهما من هذه الناحية يكون كثيراً، والتقرّب إلى الله تعالى من هذا القبيل أيضاً، بمعنى أنّ الله سبحانه قريب من جميع الموجودات بلحاظ موجوديّتها وتحصّلها، وأمّا مع ملاحظة خصائصها وكمالاتها الوجوديّة فإنّ القُرب إلى الله هنا يختلف من موجود لآخر، فُقرب الجمادات من الله أضعف من قُرب الحيوانات؛ لأنّ الأخيرة تتّصف بالحركة والوعي، في حين تفقد الجمادات هذا اللون من الكمال، كما أنّ قُرب الحيوانات منه تعالى تختلف دون شكّ عن قُرب الملائكة منه؛ وذلك لأنّ طبيعة الوعي والخلقة لدى الملائكة لا تُقاس إطلاقاً بما لدى الحيوانات.

وأمّا بالنسبة إلى البشر فإنّهم قد خُلقوا بنحوٍ يُمكّنهم من اكتساب أكبر قدر من الكمالات التي تُقرّبهم منه سبحانه، ممّا يجعل القرب بينهم وبين الباري تعالى يزداد ويتضاعف، ويستطيعون تقليص المسافة والهوّة بينهم وبين خالقهم، فهو سبحانه الذي نفخ في الوجود الإنساني الروح ووهبه الحياة(١)، وخلقه على صبغته(٢)، الأمر الذي أشارت إليه الآيات القرآنيّة الشريفة.

وحيث إنّ الإنسان لا يملك شيئاً سوى ما وهبه الله إليه، وأنّ كلّ كمال يلحق الموجودات فإنّ مصدره أساساً هو الله تعالى، يمكن الاستنتاج بأنّ الإنسان كلّما تكامل وتسامى أكثر اشتدّ تعلّقه بالله تعالى وتمحّض في الافتقار إليه. مثال ذلك لو كان هناك موقدان للنار أحدهما صغير والآخر كبير جدّاً، وكلاهما يكتسبان الوقود من مصدر عظيم ويتقدان منه، فمن دون شكّ تحتاج النار الأكثر استعاراً والأشدّ حرارة إلى مصدر الوقود أكثر من النار الأقل اشتعالاً، وبالتالي يكون الموقد الكبير

---

(١) قال تعالى: ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَـٰجِدِينَ ﴾ . ص: آية ٧٢.

(٢) قال تعالى: ﴿ صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُۥ عَـٰبِدُونَ ﴾ . البقرة: آية ١٣٨.

أحوج إلى مصدر الوقود من الموقد الصغير. وبعبارة أُخرى: إنّ الإنسان لا يفقد القُرب الإلهي ويكون بعيداً عنه سبحانه إلاّ إذا اتّصف بصفة واحدة وهي: الاستغناء والاستقلال عنه تعالى.

وعليه؛ فكلّما تمكّن الإنسان من أن ينعكس وجود الله تعالى في وجوده، وأن يكون مظهراً من مظاهره جلّ وعلى بشكل أشدّ، كان هو الأقرب إليه، حتّى يكون ذلك الإنسان المرآة التامّة لانعكاس الحقّ سبحانه، وحينها فكلّ مَن ينظر إليه ويُشاهده فهو يُشاهد الله، وقد عُبِّر عن تلك المرآة التي تعكس جميع التجلّيات والصفات الربانيّة بأسماء وصفات عديدة، منها: خليفة الله، والمثل الأعلى، والاسم الأعظم، والمظهر التامّ، والتلألؤ الكامل، والوجه التامّ، والآية الكبرى(١).

وهناك حديثان قدسيّان أشارا إلى هذا المعنى:

الأوّل: «**عبدي أطعني حتّى أجعلَك مثلي، أنا أقول للشيء: كن، فيكون أجعلُك تقول للشيء: كن، فيكون**»(٢).

الثاني: «**يابن آدم أنا غنيٌّ لا أفتقر، أطعني فيما أمرتُك أجعلْك غنيّاً لا تفتقر، يا بن آدم أنا حيّ لا أموت، أطعني فيما أمرتُك أجعلْك حيّاً لا تموت، يابن آدم أنا أقول للشيء: كن فيكون، أطعني فيما أمرتُك أجعلْك تقول للشيء: كن فيكون**»(٣).

والآن جاء دور طرح السؤال التالي: ما هو الأمر الذي يكسبه الإنسان ليكون محلّا لتجلّي الله تعالى ومظهراً له؟ فهل أنّ حيازة الثروة والشهرة هو الذي يُقرّبه إليه أو أنّ ذلك يكون من خلال تحصيل العلم والمعرفة؟

---

(١) جاء في زيارة شهر رجب ما نصّه: «لا فرقَ بينكَ وبينهُم إلّا أنّهم عبادُك وخَلقُك». ابن طاووس، علي بن موسى، إقبال الأعمال: ص٦٤٦.

(٢) الفيض الكاشاني، ملّا محسن، علم اليقين في أُصول الدين: ج٢، ص٦١٠.

(٣) الحلّي، ابن فهد، عدّة الداعي ونجاح الساعي: ص٣١٠.

ممّا لا شكّ فيه أنّ الثروة والشهرة هي أُمور خارجة عن حقيقة الوجود الإنساني؛ وبالتالي فإنّ اكتسابها وحيازتها لا يعني التكامل والتسامي في حقيقته الوجوديّة. وعلى غرار ذلك نجد أنّ السمعة واستقطاب الأضواء ومحبّة الآخرين هي الأُخرى لا علاقة لها بعظمة الإنسان الواقعيّة وحقارته، ولا بمكانته الحقيقيّة. أمّا العلم والمعرفة فهي أُمور مختلفة تماماً عمّا تقدّم؛ وذلك لأنّها تختلط مع روح الإنسان وتنفذ إلى أعماقه، فتُغيّر هويته وشخصيّته؛ ومن هنا فإنّ العلم والمعرفة يُعدّان كمالين واقعيّين بالنسبة للإنسان، فهو إنّما يكون عظيماً ويحظى بالرفعة والكمال بمقدار علمه ومعرفته، يقول الإمام علي عليه السلام: «**قدرُ كلُ امرءٍ ما يُحسن**»(١).

إنّنا من خلال تعزيز المعرفة وتحصيل العلم يُمكننا الاطّلاع على العالم، فيصطبغ جوهر وجودنا بتلك المعارف والعلوم، فالمعرفة في الواقع تُوسّع دائرة وجودنا، وتمنح أبعاده آفاقاً أكبر وأرحب(٢)، فقد خُلِقَ الإنسان ليتسامى ويرتقي بوجوده نحو أكبر قدر من الكمال ويخلق من عالمه عالماً رحباً وواسعاً، وذلك من خلال مضاعفة مداركه وتعزيز المعرفة بحقائق العالم بشكل أكبر، فإنّ السرّ في عظمة الإنسان واللّغز في أفضليّته على الملائكة هو العلم والمعرفة(٣).

وبهذا نكون قد تعرّفنا على أنّ كمال الإنسان يرتبط بتحقّقه بتحصيل أكبر قدر من المعارف والعلوم. وهنا تجدر الإشارة أيضاً إلى أنّ السعي وراء المعرفة والعلم لا

---

(١) الطوسي، محمّد بن الحسن، الأمالي: ص٤٩٤.

(٢) ذُكِرَ هذا المعنى في الفلسفة الإسلاميّة بعنوان: (اتّحاد العلم والعالم والمعلوم)، ويُعدّ هذا البحث من المواضيع الدقيقة جدّاً في هذه الفلسفة.

(٣) قال تعالى: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمۡ عَلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسۡمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ﴾. البقرة: آية٣١ ـ ٣٢.

بدّ أن يتناسب مع قيمة الحقائق المُراد كسبها وقدرها؛ بمعنى أنّ الإنسان عند مجيئه لهذه الدنيا من أجل كسب المعرفة والاطّلاع على عوالم الوجود وحقائقها، فعليه أنّ يُدرك أنّ التعرّف على عالم الطبيعة ـ الذي هو جزء صغير من الوجود والعوالم الكونيّة الأُخرى ـ لا بدّ أن يكون بالمقدار الكافي والمعتبر الذي تحتاج إليه حياة الإنسان الزائلة والمنصرمة في هذا العالم. نعم، يكون التعرّف على عالم المادّة بشكل كامل ومفيد حينما يتحقّق التفاعل بين ظاهر الوجود وباطنه، وتنكشف كلّ الألغاز والأسرار، ويحصل التأثير المتبادل بين المادّة والمعنى، فلو لاحظ الإنسان أنّ الذهب والفضّة والنِّعم والشهوات تتراقص من حوله في هذا العالم، وغفل عن عظمة الله وقدرته، ونسي جمال ما وراء الوجود وبهاءه، فلا شكّ أنّه لا يلقى سوى حياة حقيرة عديمة الجدوى، ولا يشاهد فيها إلّا الذلّ والهوان مهما تفاخر واعتزّ بها.

٢ـ الهدف من تكامل الإنسان في الحياة الاجتماعيّة

إنّ معيار أهمّيّة الإنسان ودوره في الحياة الاجتماعيّة يوازي ما يُقدّمه من عطاء وخدمة، على نحو أنّ تلك العطاءات والخدمات كلّما كانت أكثر قيمةً وأوسع دائرةً كان تأثير وجود هذا الإنسان في المجتمع أكبر؛ وبالتالي فإنّه يكون أكثر نجاحاً وتوفيقاً في الجانب الاجتماعي. وعلى هذا الأساس؛ ينبغي على كلّ فرد أن يكون دقيقاً في معرفة نفسه وملاحظة ما يناسبها من دور اجتماعي يكون منسجماً مع قُدرات نفسه واستعداداتها، ليبلغ به القدر الأكبر من الفائدة والنفع في المجتمع، وبعد عمليّة الفحص والاختيار الدقيقة هذه عليه أيضاً أن يرفع مستوى العطاء والخدمات التي يُقدّمها، ويرتقي بدوره ليكون أكثر فاعليّة وحركة في مجتمعه ومحيطه(١).

إنّ الإيمان والمعرفة هما قيمة البُعد الفردي للوجود الإنساني، وأن يكون

---

(١) قال تعالى: ﴿قَالَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا يَـٰٓأَبَتِ ٱسۡتَـٔۡجِرۡهُۖ إِنَّ خَيۡرَ مَنِ ٱسۡتَـٔۡجَرۡتَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡأَمِينُ﴾. القصص: آية٢٦.

خدوماً هي قيمته في البُعد الاجتماعي، ففي الواقع إنّ (المؤمن الخدوم) سيكون أقرب إلى رحاب الكمال والتسامي، وبهذه الصفة يسوق المجتمع نحو الكمال؛ فإنّ نتيجة التكامل الأخلاقي في البُعد الفردي هي الحصول على شخص طاهر، ونتيجة التكامل الأخلاقي في البُعد الاجتماعي هي الوصول إلى مجتمع نقي وطاهر أيضاً[1]، وممّا لا شكّ به فإنّ البُعد الثاني يقع في طول البُعد الأوّل ووسيلة لتحقّقه وحصوله.

إنّ التعاليم التي جاءت للحثّ على ضرورة مساعدة الناس وقضاء حوائجهم تصبّ ـ بمعناها العامّ ـ في سياق تقديم العطاء والبذل للمجتمع، فعن الرسول محمدصلى الله عليه وآله: «**من أصبح لا يهتمّ بأُمور المسلمين فليس بمسلم**»[2]. ويقول الإمام عليعليه السلام: «**أفضلُ النّاسِ أنفعُهُم للنّاس**»[3].

ويُمكن هنا أن نُلاحظ ثلاث شخصيّات متفاوتة قد تولّوا الأُمور أثناء حكم الإمام عليعليه السلام، وهم:

الأوّل: مالك الأشتر النخعي الذي كان يمتاز بالمهارة الإداريّة العالية، كذلك بالقُدرة الجسمانيّة والفكريّة والروحيّة العظيمة، كما أنّه كان يتمتّع بدرجة كبيرة من الإيمان والتديّن والولاء؛ ومن هنا كانت حياته الفرديّة والاجتماعيّة محطّ قبول وإطراءٍ من قِبل الإمام عليعليه السلام، وحيث إنّهعليه السلام كان واثقاً من قُدرات هذا الصحابي الجليل وقوّة إيمانه فقد أوكل إليه مناصب مهمّة وحسّاسة في الدولة بقلب مطمئن وخاطر هادئ[4].

---

(١) يُشير السيّد محمّد حسين الطباطبائي في ذيل الآية الأخيرة من سورة آل عمران إلى ضرورة البُعد الاجتماعي في الحياة البشريّة، معتبراً أنّ عناية الإسلام بالمجتمع لها دور كبير في تربية الأفراد وتهذيب نفوسهم. انظر: الطباطبائي، محمّد حسين، الميزان في تفسير القرآن: ج٤، ص١٥٤ ـ ١٤٨.

(٢) الكليني، محمّد بن يعقوب، الكافي: ج٢، ص١٦٣.

(٣) التميمي الآمدي، عبد الواحد، غُرر الحكم ودُرر الكلم: ص١٩٢.

(٤) فقد قال عنه أمير المؤمنينعليه السلام: «فَإِنّهُ مِمَّنْ لاَ يُخَافُ وَهْنُهُ، وَلاَ سَقْطَتُه، وَلاَ بُطْؤُهُ عَمَّا الإِسرَاعُ إليه

الثاني: هو كُميل بن زياد، وهو صاحب الإمام أمير المؤمنين عليه السلام ووعاء العلوم العلويّة الجمّة، والحائز على النصيب الوافر من الإيمان والفضائل الإنسانيّة، وهو أنيس الإمام عليه السلام وحافظ سرّه ومعارفه[1].

هذا الرجل رغم ما حمل من المنزلة والمكانة، إلّا أنّه عندما كان عاملاً على

أَحْزَمُ، وَلاَ إِسْرَاعُهُ إلى مَا البُطءُ عَنْهُ أَمثَلُ». نهج البلاغة، تحقيق: صبحي الصالح: ص٣٧٢ ـ ٣٧٣، الكتاب ١٣.

كما قال عليه السلام عنه في موطن آخر: «أَمَّا بَعْدُ، فَقَدْ بَعَثْتُ إِلَيْكُمْ عَبْداً مِنْ عِبَادِ الله عَزَّ وَجَلَّ، لاَ يَنَامُ أَيَّامَ الخَوْفِ، وَلاَ يَنْكُلُ عَنِ الأَعْدَاءِ سَاعَاتِ الرَّوْعِ، أَشَدَّ عَلَى الفُجَّارِ مِنْ حَرِيقِ النَّارِ، وَهُوَ مَالِكُ بْنُ الحَارِثِ أَخُو مَذْحِج، فَاسْمَعُوا لَهُ أَطِيعُوا أَمْرَهُ فِيمَا طَابَقَ الحَقَّ، فَإِنَّهُ سَيْفٌ مِنْ سُيُوفِ الله، لا كَلِيلُ الظُّبَةِ، وَلا نَابِي الضَّرِيبَةِ، فَإِنْ أَمَرَكُمْ أَنْ تَنْفِرُوا فانْفِرُوا، وَإِنْ أَمَرَكُمْ أَنْ تُقِيمُوا فَأَقِيمُوا، فَإِنَّهُ لا يُقْدِمُ وَلا يُحْجِمُ، وَلاَ يُؤَخِّرُ وَلاَ يُقَدِّمُ إِلاَّ عَنْ أَمْرِي، وَقَدْ آثَرْتُكُمْ بِهِ عَلَى نَفْسِي لِنَصِيحَتِهِ لَكُمْ، وَشِدَّةِ شَكِيمَتِهِ عَلَى عَدُوِّكُمْ». نهج البلاغة، تحقيق: صبحي الصالح: ص٤١١، الكتاب ٣٨.

وقال عليه السلام عنه كذلك: «مَالِكٌ؟ ومَا مَالِكٌ؟ والله لَوْ كَانَ جَبَلاً لَكَانَ فِنْداً ولَوْ كَانَ حَجَراً لَكَانَ صَلْداً لاَ يَرْتَقِيهِ الحَافِرُ ولاَ يُوفِي عَلَيْهِ الطَّائِرُ». نهج البلاغة، تحقيق: صبحي الصالح: ص٥٥٤، الحكمة ٤٤٣.

وعندما وصله خبر مقتل مالك حزن عليه حزناً عميقاً، وتأثّر على ذلك كثيراً، وقال: «على مثل مالك فلتبك البواكي، وهل مرجوّ كمالك؟ وهل موجود كمالك». ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ج٦، ص٧٧.

وقال عليه السلام كذلك: «هلْ قامَتْ النّساء عنْ مِثلِ مالِك؟... لا أرى مثله بعده أبداً». المفيد، محمّد بن محمّد، الاختصاص: ص٨١.

(١) قال كُمَيْل بن زياد: أخذ بيدي أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، فأخرجني إلى الجبّان، فلمّا أصحر تنفّس الصّعَدَاء قال: «يَا كُمَيْل بن زِيَادٍ، إِنَّ هَذِهِ القُلُوبَ أَوْعِيَةٌ... هَا إِنَّ هَاهُنَا لَعِلْماً جَمّاً ـ وأَشَارَ بِيَدِهِ إِلى صَدْرِهِ ـ لَوْ أَصَبْتُ لَهُ حَمَلَةً». نهج البلاغة، تحقيق: صبحي الصالح: ص٤٩٥ ـ ٤٩٦، الحكمة ١٤٧.

مدينة هيت واجه انتقاداً شديد اللهجة من الإمامعليه السلام بسبب فشله في دفع تجاوز جيش العدو الذي أغار على المسلمين، ونهب أموالهم، فقال له: «**أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ تَضْيِيعَ المرءِ مَا وُلِّيَ وتَكَلّفَهُ مَا كُفِيَ لَعَجْزٌ حَاضِرٌ ورَأْيٌ مُتَبَّرٌ، وإِنَّ تَعَاطِيَكَ الغَارَةَ عَلَى أَهْلِ قِرقِيسِيَا، وتَعْطِيلَكَ مَسَالِحَكَ الَّتِي وَلَّيْنَاكَ، لَيْسَ لَهَا مَنْ يَمْنَعُهَا، ولَا يَرُدُّ الجيشَ عَنْهَا، لرَأْيٌ شَعَاعٌ، فَقَدْ صِرتَ جِسراً لِمَنْ أَرَادَ الغَارَةَ مِنْ أَعْدَائِكَ عَلَى أَوْلِيَائِكَ، غَيْرَ شَدِيدِ المنكِبِ ولَا مَهِيبِ الجانِبِ، ولَا سَادٍّ ثُغْرَةً ولَا كَاسِرٍ لِعَدُوٍّ شَوْكَةً، ولَا مُغْنٍ عَنْ أَهْلِ مِصْرِهِ، ولَا مُجْزٍ عَنْ أَمِيرِهِ**»[١].

الثالث: ومن عمّال الإمامعليه السلام في الأمصار زياد بن سميّة، وحيث إنّ أبا زياد غير معلوم، وعُرف عنه أنّه ابن زنا، فقد كان يُطلق عليه زياد ابن أبيه أو زياد بن سميّة[٢]، حتّى آن الأوان ليعتبره معاوية أخاً له، فسمّاه زياد بن أبي سفيان، وجعله ضمن رجالاته في الحكومة الأُمويّة آنذاك[٣]. ثمّ إنّه رغم ما يحمله من صفات جيّدة في إدارته شؤون البلاد، وما يمتاز به من المهارة فيما يوكل إليه، فإنّه وبسبب الأخطاء والخيانات التي صدرت منه، لم يكن معتمداً إطلاقاً لدى الإمام عليعليه السلام؛ لذا تعرّض للتوبيخ واللوم من قِبلهعليه السلام مرّات عديدة[٤].

---

(١) المصدر السابق: ص٤٥٠ ـ ٤٥١، كتاب ٦١.

(٢) كانت سميّة جارية عند الحارث بن كلدة الثقفي طبيب العرب.

(٣) ورد في التاريخ بأنّ زياداً تكلّم ـ وهو غلام حَدَث ـ بحضرة عمر كلاماً أعجَب الحاضرين، فقال عمرو بن العاص: للهّ أبوه! لو كان قرشيّا لساق العرب بعصاه، فقال أبو سُفْيان: أما والله إنّه لقرشيّ، ولو عرفتَه لعرفتَ أنّه خير من أهلك؛ فقال: ومَن أبوه؟ قال: أنا والله وضعتُه في رَحِم أمّه. انظر: ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ج١٦، ص١٨١. ولاحظ ما يتعلّق بزياد بن سميّة في: نهج البلاغة، تحقيق: صبحي الصالح: الكتاب ٢٠ و٢١ و٤٤، والحكمة ٤٧٦.

(٤) من كتاب لهعليه السلام إلى زياد بن أبيه قال فيه: «وَإِنِّي أُقْسِمُ باللهِ قَسَماً صَادِقاً، لَئِنْ بَلَغَنِي أَنَّكَ خُنْتَ

إنّ دراسة هذا النوع من الشخصيّات يُعطي أبعاداً اجتماعيّة وفرديّة مختلفة، فأحد هذه الشخصيّات كان ناجحاً على المستوى الفردي، وكان يمتاز بالإيمان والتقوى والإخلاص والأخلاق والروح المعنويّة العالية، إلّا أنّه غير قادر على إدارة الأُمور والشؤون الاجتماعيّة، في المقابل فقد كان الآخر يتمتّع بالقدرة اللّازمة لإدارة قضايا المجتمع، إلّا أنّه كان يفتقد إلى المقدار اللّازم من التقوى والأخلاق والوفاء بالعهد، وهاتان الشخصيّتان يُمثّلان طيفين عريضين من البشر، فتعاطى معهما الإمام عليه السلام ـ وهو المسؤول عن هداية المجتمع وإصلاح شؤونه ـ بواقعيّة وموضوعيّة، فاعتبر كلا الشخصّيتين غير لائقتين بالثقة ولا جديرتين بالاعتماد. وفي عصرنا الراهن يُدرك جيّداً كلّ مَن له أدنى دراية ومعرفة بأبجديّات الإدارة أنّ أهمّ عنصر للنجاح في هذا المجال هو تأسيس دائرة الموارد البشريّة، هذه الدائرة التي تعني مركز القوى والطاقات الحائزة على خصوصيّتين، إحداهما الالتزام، والأُخرى التخصّص، ولا شكّ في أنّ توفّر واحدة من هاتين الخصوصيّتين فقط لا يوصلنا إلى الغاية والهدف.

ومن هنا؛ فإنّ مَن يتميّز بالأخلاق والإخلاص وصفاء الروح، ويبلغ تكامله في هذا الجانب مستوى الطموح، لكنّه يكون عاجزاً عن قيادة المجتمع وإدارة شؤونه، فإنّه سوف يفتقد إلى القدرة والقوّة التي تُؤهّله للوصول إلى ما يبتغيه

⮕

مِنْ فَيْءِ المسلِمِينَ شَيْئاً صَغِيراً أو كَبِيراً، لَأَشُدَّنَّ عَلَيْكَ شَدَّةً تَدَعُكَ قَلِيلَ الوَفْرِ، ثَقِيلَ الظَّهْرِ، ضَئِيلَ الأَمْرِ، وَالسَّلاَمُ». نهج البلاغة، تحقيق: صبحي الصالح: ص٣٧٧، الكتاب ٢٠.

وقال عليه السلام له أيضاً: «اسْتَعْمِلِ العَدْلَ واحْذَرِ العَسْفَ والحَيْفَ؛ فَإِنَّ العَسْفَ يَعُودُ بِالجَلاَءِ، والحَيْفَ يَدْعُو إلى السَّيْفِ». المصدر السابق: ص٥٥٩، الحكمة ٤٧٦.

الإسلام؛ ومن هنا لم ينل البعض ثقة الإمام عليه السلام لأنّه على الرغم ممّا كان يتمتّع به من قوّة الهمّة والعزيمة وبذل الجهد الكبير في صناعة مهاراته وقدراته الذاتيّة، وكان جديراً بالإمساك بزمام الشؤون والقضايا الاجتماعيّة الهامّة، لكنّه يضعف في مواجهة الأهواء والنزوات الحيوانيّة، فيقع في أسرها؛ لذلك لم يرضَ عنه الإمام عليه السلام وقد وبّخه على ذلك، على الرغم من القدرة على جعل هؤلاء ـ من خلال الإشراف والمتابعة الشديدة ـ في خدمة الدين في بعض المواطن.

إنّ المقارنة بين هاتين الفئتين من الناس وجعلهما في عرض بعضهما البعض، لهو خطأٌ كبيرٌ حتماً، وهذه الموازاة لا ينبغي أن توهم التساوي بينهما، ففي الواقع لا يقصد بالبيان المتقدّم المساواة بين (الإنسانيّة) ومقدار (اللياقة)؛ فالإيمان والإنسانيّة حتّى لو كانا من دون الاقتدار واللياقة، فإنّه يكون لهما قيمة في تأمين سعادة الإنسان أيضاً، لكنّ ذلك يُعدّ من أضعف الإيمان، ولا يرتقي بالإنسان إلى مراتب عالية من السعادة؛ فإنّ ثمرة الإيمان والعبادة تعود أوّلاً إلى نفس الشخص المؤمن والعابد، في حين أنّ ثمرة الاقتدار واللياقة ناظرة إلى متطلّبات الناس ومقاصدهم. ففي حالة الاضطرار إلى اتّخاذ أحد هذين الخيارين فلا شكّ أنّ المرجّح هي القيم الفرديّة دون أيّ خوف من ملامة اللّائمين؛ قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡ ﴾(١).

وقال الإمام علي عليه السلام بهذا الصدد: «**وَإِنِّي لَعَالِمٌ بِمَا يُصْلِحُكُمْ، وَيُقِيمُ أَوَدَكُمْ، وَلكِنِّي واللهِ لَا أَرَى إِصْلاَحَكُمْ بَإِفْسَادِ نَفْسِي**»(٢).

---

(١) المائدة: آية١٠٥.

(٢) نهج البلاغة، تحقيق: صبحي الصالح: ص٩٩، الخطبة ٦٩.

إنّ الاهتمام بالمسؤوليّة الاجتماعيّة والتعاطي معها من الأهمّيّة بمكان، بحيث حتّى أنّ العبادة الفرديّة لا تحلّ محلّها، ولا يصحّ إهمالها بذريعة عبادة الخالق، فقد كان الإمام الكاظم عليه السلام يُناجي ربّه وهو في سجن هارون الرشيد بما يلي: «**اللّهُمَّ إِنَّكَ تعلم أَنِّي كُنْتُ أَسْأَلُكَ أَنْ تُفَرِّغَني لِعِبادَتِكَ، اللّهمّ وَقَدْ فَعَلْتَ فَلَكَ الحَمْدُ**»(١).

ومن هذا البيان يتّضح أنّ الإنسان لا يحقّ له الاكتفاء ـ وهو يعيش وسط المجتمع ـ بالشؤون العبادية فقط، بل ما دام له أثر في المجتمع عليه أن يتحمّل مسؤوليّة مهمّة في هذا الصدد(٢).

إنّ المؤمن كما يطمح أن يكون إنساناً مثاليّاً، عليه أن يُفكّر بجدٍّ في المجتمع المثالي أيضاً، ويسعى لتحقيق ذلك بكلّ المهارات والطاقات اللّازمة. فعلى كلّ فردٍ من أتباع أهل البيت عليهم السلام أن يسعى في ظلّ انتظار الفرج ـ الذي هو من أفضل الأعمال ـ إلى أن يؤهّل نفسه لتشييد الدولة المهدويّة، حتى يكون عند حضور الإمام المعصوم عجّل الله تعالى فرجه الشريف قائداً جديراً وقادراً على المساهمة في بسط العدل ونشر التوحيد، فإنّ عناية الإمام المهدي عجّل الله تعالى فرجه الشريف تشمل كلّ فرد بما يتناسب مع مدى تأثيره وعطائه الاجتماعيَين.

---

(١) المفيد، محمّد بن محمّد، الإرشاد: ج٢، ص٢٤٠.

(٢) لا ينبغي أن يتصوّر أحد أنّ هناك تعارضاً وتزاحماً بين التكامل الفردي والواجبات الاجتماعيّة؛ وذلك لأنّ التكامل والنضوج الفردي يتحقّق بالعبادة، ومعلوم أنّ عبادة الله إنّما تكتمل في ضوء أداء المسؤولية والواجب بأكمله، فلو قام الإنسان بالواجب الفردي والاجتماعي جنباً إلى جنب، سيكون التسامي والتكامل بمقدار أدائه للواجبين معاً، ولا ينبغي له أن يجعل أحدهما حائلاً دون الآخر. قال تعالى: ﴿ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا ۝٦ إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ﴾. المزمل: آية٥ ـ ٧.

تقول فاطمةعليها السلام: «**إنّي سمعت أبيصلى الله عليه وآله يقول: إنَّ عُلَماء أُمَّتِنَا يُحشرون، فيُخلع عَليهِم مِن الكرامات عَلى قَدَر كَثرةِ علومِهِم وَجِدِّهِم في إِرشَادِ عِبَادِ الله**»(١).

وفي مثالٍ حيٍّ يمكن استذكار الأيام الأُولى لانتصار الثورة الإسلاميّة، حيث كان الإمام الخمينيرحمه الله راضياً عن كلّ واحد من أفراد الشعب الإيراني، وكان يُباهي بما لديه من شعب وأمُةّ الأُممَ والشعوبَ الأُخرى، ولكن وممّا لا شكّ به أنّ رضاه عن عامّة الشعب لا يُقارن برضاه عن أمثال بهشتي ومطهّري، كما أنّ الألم الذي داخله باستشهادهما كان بمثابه فقدانه لأُمّة كاملة(٢).

الأسئلة

١ ـ أرجو بيان خصائص الأهداف المعقولة؟

٢ ـ ما هو مفهوم القُرب من الله، وما أهمّيّة إدراكه بالشكل الصحيح؟

٣ ـ أرجو توضيح معنى الحياة الطيّبة وبيان آثارها ونتائجها.

٤ ـ ما هي العلاقة بين نفس الإنسان وإدراك الافتقار إلى؟ أرجو بيان ذلك.

٥ ـ ماذا يعني تجلّي المخلوقات وتمظهرها بمظهر الله؟

٦ ـ ما هي القيمة الاجتماعيّة للإنسان؟ وما هي العلاقة بينها وبين القيمة الفرديّة؟

للبحث والتأمّل

١ـ ابحث فيما يلي:

---

(١) التفسير المنسوب للإمام العسكريعليه السلام: ص٣٤٠.

(٢) وتجدر الإشارة هنا إلى أنّ الشهادة في المنظومة الإسلاميّة لا تعني إطلاقاً موتاً تافهاً وعاديّاً أو فناءً أبديّاً، بل تُعدّ أعظم خدمة وسخاء اجتماعي.

أ ـ هل هناك تزاحم بين حيازة القيم الفرديّة والقيم الاجتماعيّة؟

ب ـ هل يمنع الاهتمام بالأُمور الاجتماعيّة الإنسان من بناء ذاته؟

ج ـ لماذا يتجنّب بعض كبار السالكين الحضور في الميدان الاجتماعي؟

٢ ـ لو أردنا أن نحظى بشخصيّة متكاملة، فما هي الأبعاد التي ينبغي مراعاتها في هذا المجال؟ أرجو بيان أبعاد تكامل الإنسان وفقاً لجوانب الحياة المتعدّدة.

الفصل الثالث

موانع التكامل

الأهداف

يُتوقّع من الطالب بعد دراسة هذا الفصل:

١ـ أن يتعرّف على عقبات السير إلى الله وطبيعتها وأنواعها.

٢ـ أن يتعلّم طرق مواجهة (هوى النفس) بعد تحصيل المعرفة الواعية به.

٣ـ أن يكتشف كيفيّة تأثير البيئة والمحيط الاجتماعي على الإنسان.

٤ـ أن يتعرّف على حبائل الإغواء الشيطانيّة.

٥ـ أن يُدرك مفهوم الطاغوت بوضوح.

❋❋❋

تبيّن في الفصل السابق أنّ على الإنسان السير نحو الله حتّى يبلغ مقام القُرب والدنوّ منه سبحانه، فإنّ المسافة بين الإنسان وربّه ـ التي يُعبّر عنها بالصراط المستقيم ـ ليست بعيدة.

ولكنّه رغم قصر مسافة هذا المسير[1]، وعلى خلاف المتوقّع فإنّ تشخيص الطريق إليه تعالى وتحديد طبيعة مسافته[2] يواجه جملة من العقبات والعُقد، يقول الإمام الصادق عليه السلام: «**الصراط أدقّ من الشعر وأحدّ من السّيف**»[3].

---

(١) لقد ورد في الدعاء: «إنّ الراحل إليك قريب المسافة». علي بن موسى بن طاووس، إقبال الأعمال، دعاء أبي حمزة الثمالي: ص٦٧.

(٢) بيد أنّ تحديد هذا الطريق والعثور عليه يتمّ من خلال الإنابة والرجوع إليه تعالى، «يا من سبيله واضح للمنيبين». إبراهيم بن علي العاملي، الكفعمي، المصباح، دعاء الجوشن الكبير: ص٢٥٧.

(٣) ابن بابويه القمي، محمّد بن علي، الأمالي: ص١٧٧. والكليني، محمّد بن يعقوب، الكافي: ج٨، ص٣١٢.

وفي هذا الفصل دعونا نتعرّف على أهمّ ما يحتاج إليه الإنسان في سيره وحركته نحو الله، ومتى تكون ممتنعة؟ وأين تكمن الصعوبة في هذه الحركة؟ وما هي عوامل سقوط الإنسان أخلاقيّاً؟ وما هي أبرز العقبات التي تحول دون تكامله؟

عادة ما تواجه الحركة والمسير جملة من العقبات والمنغّصات، فمَن لا حركة له لا يشعر إطلاقاً بالمضايقة، ولا يواجه أمامه ما يمنعه، ولكنّ الإنسان الطموح الذي يسكنه همّ الوصول، والذي قرّر أن يمضي قُدماً، يشعر أنّ ما يمنعه ويحول دون وصوله هو عدّو له، يسعى دائماً لإبعاده عمّا يرمي إليه، أو أنّه يُطيل عليه زمان الوصول.

ومن أجل هذا السير، فكما يجب على الإنسان معرفة طبيعة الطريق عليه أن يمتلك الحافز الكافي لذلك، مضافاً إلى ذلك يجب عليه تسخير كافّة طاقاته للاستمرار في طيّ ذلك الطريق وبلوغ نهايته؛ ومن هنا فعلى الإنسان حتّى يصل إلى مقصوده أن يُحّرك جسمه وذهنه وقلبه.

هذا، ويُمكن تصنيف المشاكل والصعوبات التي تواجه الإنسان في حركته إلى الله إلى ثلاثة أشكال، فهي إمّا أن تسلب القدرة عن الحركة والسير نحوه تعالى، وإمّا أنّها تمنع المعرفة الصحيحة للهدف والغاية المطلوبة، وإمّا أنّها تُضعف الحافز والروح المعنويّة الداعيين إلى المضيّ في هذه الحركة، وهنا يبرز الضلال، ويذوب الحماس والاندفاع لمواصلة الطريق. وبناءً على ذلك؛ يُمكن عرض هذه العقبات على النحو التالي: عقبات معرفيّة، وعقبات تحفيزيّة ، وعقبات سلوكيّة.

ويضاف إلى ذلك، فإنّ هناك صعوبات من نوع آخر، وهي صعوبات غير إراديّة وغير اكتسابيّة تواجه السير المعنوي للإنسان، وحيث إنّ نظام الخلقة لا يُمكن أن يستمرّ ويمضي دون تفاوت واختلاف(١)، فإنّ الإنسان بمقتضى خلقته

---

(١) إنّ التباين والاختلاف من لوازم عالم الخلقة، فلو أنّ رسّاماً ملأ لوحته باللون الأبيض فقط، لن

وخصوصيّته وبسبب مزاياه الجسمانيّة والروحيّة مقيّد بقيود عديدة، ولا شكّ في أنّ تلك القيود خارجة عن حدود اختياره وإرادته، هذا من جهة، ومن جهة أُخرى فإنّ الموجودات في العالم ومنها الإنسان تختلف فيما بينها في طبيعة الخلق؛ ونتيجة ذلك تجد أنّ بعض هذه المخلوقات محاطٌ بقيود أقلّ، والآخر محاطٌ بقيود أكثر، والإنسان ـ وهو أفضل هذه المخلوقات ـ يواجه في مسيرته الحياتيّة العديد من القيود والعقبات الطبيعيّة غير الاكتسابيّة الخارجة عن إرادته بطبيعة الحال.

إنّ الظروف والقيود التاريخيّة، والاجتماعيّة، والجسمانيّة، والروحيّة، والوراثيّة، كلّ واحد منها يحمل مقداراً من الجبر. مثال ذلك: الظروف التاريخيّة المعاصرة التي ضاعفت فرص الحصول على المعرفة والتنمية الأخلاقيّة، وحمّلت الإنسان مسؤوليّة أعظم، يمكن أن نرصد في ظلّها ثلاث عقبات وراثيّة على الأقلّ، وهي: ضعف مستوى الذكاء والنباهة، وتعكّر صفو المزاج، والحالات الجسميّة المعرقِلة، بيد أنّ هذه العقبات يُمكن تخطّيها من خلال قوّة الإرادة.

كما أنّه من وجهة نظر أُخرى يُمكن تقسيم عقبات النموّ الأخلاقي على النحو

تكون هذه اللوحة زاهية وجميلة إطلاقاً؛ وعلى غرار ذلك فإنّ عالم الخلقة هو الآخر لوحة فنيّة رائعة، لا يظهر جمالها إلّا في ظلّ هذا التفاوت والاختلاف، لذا فإنّ نقمة النقاط السوداء في اللوحة ظنّاً منها بوقوع الحيف عليها غير مبرّرة، وحسرتها على عدم كونها بيضاء غير مجدية؛ إذ أنّ جمال هذه اللوحة لا يتجلّى عند النظر إليها كاملة إلّا إذا كانت تلك الألوان السوداء في مكانها الذي هي فيه. أجل قد يتعسّر إدراك هذا الجمال على النقاط السوداء نفسها؛ لعدم تمكّنها من رؤية اللوحة بتمامها والحكم عليها. وقد جاء في الشعر ما ترجمته:

حيث إنّ العالم مثل الخال والعين وخطّ الحاجبين، فإنّ كلّ واحد منها في مكانه رائع وجميل.

(جهان چون خط وخال وچشم وابروست   كه هر چيزي به جاي خويش نيكوست)

التالي: العقبات الداخليّة التي تُصاب بها روح الإنسان، والعقبات الخارجيّة؛ وهي التي تحدث للإنسان جرّاء محيطه وبيئته الخارجيّة. ونقدّم فيما يلي شرحاً لهذين النوعين من الموانع.

النوع الأوّل: الموانع الداخليّة الذاتيّة

١ـ هوى النفس

يجب تقصّي أهمّ ما يمنع من سعادة الإنسان ويقود إلى سقوطه، وينبغي للمرء البحث عنه في باطنه الروحي، فقد ورد عن الرسول الأكرمﷺ «**أعدى عدوّك نفسك التي بين جنبيك**»(١). وتوضيح ذلك أنّه فيما يتعلّق بخلقة الإنسان هناك موضوع جدير بالاهتمام، وهو أنّ هذا المخلوق كما أنّ لديه القابليّة على السير في مدارج الكمال والسموّ الروحي والأخلاقي، كذلك لديه القابلية على الهبوط والشقاء والاستغراق في الشرّ، وعادة ما يُعبَّر عن ذلك بهوى النفس، الأمر الذي سنتناوله الآن.

يمتاز البشر بأنّ لديه رغبة في الكمال وحافزاً وميلاً إلى السعادة، كذلك لديه ميل ودافع شديد نحو اللذائذ الدنيويّة والمنافع الماديّة، ولكنّ هناك تفاوتاً بين الميول الغريزيّة والماديّة كالأكل والنوم، التي غالباً ما تكون فعليّة، وتنمو وتترعرع بشكل عفوي، وبين ميول أُخرى تُعدّ ميولاً بالقوّة، ويُمكن تفعيلها في ظروف وشروط معيّنة.

ممّا لا شكّ فيه أنّ متطلّبات الإنسان وحاجاته ورغباته كثيرة ومتنوعة، ولا يُمكنه في هذه الدنيا تحقيق كلّ تلك الرغبات؛ وذلك لأنّ أغلب هذه الرغبات

---

(١) الحلّي، أحمد بن فهد، عدّة الداعي ونجاح الساعي: ص٣١٤.

تتضادّ فيما بينها، فإنّ (الأكل والنوم والراحة والاستجمام) تختلف عن غيرها من أنواع الرغبات البشريّة، من قبيل (تحصيل العلم)، ورغم أنّ هذه الحاجات مرغوبة لكلّ إنسان، لكنّ النوع الأوّل منها يُقابل الثاني. بتقريب: إنّ الاستغراق في الرغبات من النوع الأوّل يمنع تحقيق الرغبات من النوع الثاني، كما أنّ السعي لتحصيل متطلّبات النوع الثاني يمنع الوصول لرغبات النوع الأوّل. وبذلك يتّضح أنّ الراحة وإشباع الغرائز الدنيويّة والاستغراق في طلب الملذّات لا تجتمع مع طلب العلم وتحصيل المعارف العالية، أو أيّ نجاحات من هذا القبيل. ومن هنا فإنّ الإنسان مضطرّ لأن يتغاضى عن بعض الأهواء والرغبات.

وعند التزاحم في مثل هذه الرغبات فإنّ العقل يحكم بشكل قاطع بضرورة الحدّ من الانجرار وراء الغرائز الماديّة، ويحثّ على السعي من أجل الارتقاء بمستوى الكمال وبلوغ اللذّة المعنويّة؛ فإنّ أهل العقل والفهم ومَن لديهم العمق في النظر والرؤية يختارون غالباً النوع الثاني من الرغبات المتقدّمة، ولكن أولئك الذين هم أُسارى للملذّات العابرة لا يُمكنهم الاستغناء عنها، ممّا يجعلهم يُحرمون من السعادة المعنويّة. وعليه؛ ومن أجل بلوغ الهدف تجب المواجهة مع القوى الداخليّة المزعجة التي تُلهينا بأمورٍ قليلة الأهميّة.

إنّ هوى النفس كما يُعتبر من العقبات التي تعيق الوصول إلى النجاحات الماديّة والاجتماعيّة، فهو عقبة بوجه الإنسان في مقام الوصول إلى الدرجات المعنويّة والروحيّة أيضاً، فمن المؤكّد أنّ الوصول إلى هذا النوع من الكمالات والسموّ الروحي والأخلاقي بحاجة إلى جهد استثنائي، يكمن في ضرورة التخلّص من مجموعة الميول والغرائز والملذّات الدنيويّة؛ ومن هنا جاء التعبير عن ذلك في الأحاديث الشريفة بالجهاد الأكبر الذي يُعتبر أشدّ عناءً وإعياءً من المشاركة في ساحة الحرب.

إنّ ما يقابل موضوع اتّباع هوى النفس والانقياد لها هو القدرة على السيطرة عليها، والتمكّن من كبح جماح طموحاتها الطبيعيّة وميولها ورغباتها الماديّة، فصاحب الخُلق الرفيع هو الذي يُقننّ إحساساته وعواطفه ويُسيطر عليها، ولا يستسلم أو يضعف أمام ميوله وإرادته الباطنيّة التي تجرّه إليها نفسه، وهو الذي لا يشعر أبداً بالجبن والانهزام، فما هو موجود في أعماق مثل هذا الإنسان عقله الأمير على الهوى(١)، وليس عقله الأسير لهواه(٢).

إنّ من أهمّ مصاديق اتّباع هوى النفس هو ارتكاب الإثم ومعصية الخالق، فذلك يُعدّ أهمّ عامل في السقوط المعنوي للإنسان، فإنّ الله سبحانه وتعالى جعل بلطفه وكرمه ما هو ضروري لكمال الإنسان وسُموّه واجباً، وجعل ما هو عقبة وحائل دون بلوغ ذلك الكمال حراماً، وفي ضوء ذلك اعتبر كبار أهل التربية والسلوك أنّ الحركة المعنويّة للإنسان تبدأ من طاعة الله في أداء الواجبات وترك المحرّمات، وأكّدوا على أنّها أوّل التوصيات المعنويّة وأهمّها(٣).

---

(١) هذا العقل هو العقل العملي وليس العقل النظري، ويُراد من العقل العملي الإفادة من القوّة التي تُشخّص الحسَن من القبيح من الأعمال، والالتزام بأحكام هذه القوّة وأوامرها في مقام العمل. وما يُقابل هذا العقل هو الجهل والغباء والاستخفاف. والجهل تارةً يكون بمعنى عدم المعرفة والاطّلاع (في مقابل العلم)، وأُخرى يكون بمعنى اتّباع هوى النفس (في مقابل العقل). وأمّا العقل النظري فهو: القوّة التي تقوم بتشخيص حقائق عالم الوجود.

(٢) يقول الإمام علي عليه السلام: «وكم من عقل أسير تحت هوى أمير». نهج البلاغة، تحقيق: صبحي الصالح: ص٥٠٦، الحكمة ٢١١.

(٣) علينا أن نُدرك صغاراً وكباراً أنّ السبيل الوحيد لسعادة الدنيا والآخرة، هو طاعة الله وعبادته؛ والطاعة هي ترك المعصية في العقيدة والعمل. بهجت، محمّد تقي، به سوى محبوب [نحو المحبوب]: ص٢٣.

٢ ـ الجهل

مَن يجهل الهدف أو القواعد الخاصّة بهذا المسير ومن لم يدرك ضرورته، فسوف لن يصل إطلاقاً إلى المقصد، ومَن لم يشخّص طريق الحقّ ولم يسعَ إلى اكتشافه، فإنّه مهما اتّصف بحالة الثبات والقوّة والسعي الحثيث، سوف يمضي في طريق الباطل إلى أقصى مدى، «**العَامِلُ عَلَى غَيْرِ بَصِيرَةٍ كَالسَّائِرِ عَلَى غَيْرِ الطَّرِيقِ، لَا تَزِيدُهُ سُرْعَةُ السَّيْرِ إِلَّا بُعْداً**»(١).

ومن الأمثلة التاريخيّة لهذا الفريق من الناس هم الخوارج الذين كانوا قد سلكوا طريق الباطل، وتمسّكوا بسبيل الشرّ، حيث يبدو أنّ هذه الفرقة لم تكن تحت تأثير الاستقطابات الماديّة والرغبات والغرائز النفسيّة، فقد كان أصحابها يعتقدون أنّ ما يصنعونه موافق للحقّ والصواب، ولكن حيث إنّهم لم يُشخّصوا طريق الحقّ، لم يحصدوا من جهادهم سوى الضلال.

أجل، إنّ الجهل واتّباع الهوى هما العقبتان الكؤودتان اللتان تقفان حائلاً قويّاً أمام الحركة والسّير نحو التكامل والتسامي المعنوي، مقابل ذلك فإنّ العلم والعمل هما أهم عنصرين لتخطّيهما؛ لذلك ومن أجل التخلّص من هاتين العقبتين المتقدمتين، فإنّ الإنسان يحتاج للتذكير والتواصي باستمرار(٢).

٣ ـ العجز

العقبة الأُخرى التي تحول دون بلوغ السعادة وبلوغ الكمال هي العجز وفقدان القدرة، فمَن لم يكن لديه الاستعداد الروحي الكافي، ولا يمتاز بالقوّة في الشخصيّة، سوف يُحرم من بعض المزايا والبركات؛ وبالنتيجة فإنّ الاستفادة من

---

(١) الكليني، محمّد بن يعقوب، الكافي: ج١، ص٤٣.

(٢) ﴿... وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ﴾. العصر: آية٣.

العبادات ومجاهدة النفس وبعض الرياضات الخاصّة، سوف لا تكون من نصيب الإنسان العاجز الذي ليس لديه طاقة جسميّة أو فكريّة أو روحيّة.

٤ ـ العادات السيّئة

الكثير من الناس يُدرك مساوئ الأعمال وقبائح السلوك لكنّه يلوّث نفسه بممارستها، من قبيل الأطبّاء الذين يُدركون مخاطر التدخين بدقّة بحكم علمهم ودرايتهم، وليس ذلك فقط، بل إنّهم يبيّنون تلك المخاطر للآخرين بشكل دقيق، لكنّهم من المبتلين بها، فمَثَل هؤلاء لا يواجهون عقبة معرفيّة ولا عقبة تحفيزيّة تمنعهم من الاندفاع لترك التدخين، بل إنّ داءهم أمر آخر، وهو ظاهرة سلوكيّة تُدعى (العادّة)، وهي التي قيّدت أقدامهم عن الحركة. ومن هنا ينصح المربّون الكبار ومعلّمو الأخلاق ويُحذّرون من أن تتحوّل الأعمال القبيحة ـ على أثر الغفلة عنها والتقصير في ضبطها ـ إلى عادات سلوكيّة، وعندها يصعب القضاء عليها واستئصالها.

النوع الثاني: الموانع والعقبات الخارجيّة (البيئيّة)

وهي مجموعة من الموانع والعقبات التي يُمكن رصدها من خارج وجود الإنسان، والتي يكون لها أثر سلبيّ على معرفة الإنسان أو إرادته أو سلوكه، حيث تُضعف لديه احتمال نيل السعادة، أو تثبّط عزيمته واندفاعه نحو ذلك، أو تحرفه عن المسار الصحيح، أو تُقيّد حركته من الخارج. وسنتناول الآن أهمّ العقبات الخارجيّة، وهي كما يلي:

١ ـ الدنيا

تُطلق مفردة الدنيا على كلّ المظاهر الماديّة الجاذبة للإنسان والخادعة له التي تشدّه إليها. قال النبيّ محمّد صلى الله عليه وآله: «**حبّ الدنيا رأسُ كلِّ خَطيئَة**»(١).

---

(١) الكليني، محمّد بن يعقوب، الكافي: ج ٢، ص١٣٠.

وقال تعالى في القرآن الكريم أيضاً: ﴿ اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ ...﴾(١).

هذا، وإنّ الدنيا تُؤثّر في الإنسان عن طريق إثارة العقبات الداخليّة لديه، فلو كان هذا الإنسان قويّ الأعماق، ولم تتمكّن هواجسه وبواطنه من هزيمته، سوف لن تستطيع جميع المؤثّرات الخارجيّة إيقاف حركته نحو الكمال؛ فإنّ مظاهر الدنيا وبهارجها تخدع الإنسان، وذلك من خلال تأثيرها المتوالي على نفسه وأعماقه وغرائزه، الذي يُضعف مقاومته ومجاهدته، ويُشلّ فكره عن الحركة باتّجاه الكمال، ويجرّه إلى الاستغراق في تفاصيلها الماديّة، قال الإمام السجّاد عليه السلام في الصحيفة السجاديّة: «**ولا تشغلني عن شكر بإكثار منها تلهيني عجائب بهجته، وتفتنني زهرات نضرته، ولا بإقلال عليّ منها، فيقصر بعملي كدّه، ويملأ صدري همّه، وأعطني من ذلك يا إلهي غنى عن شرار خلقك، وبلاغاً أنال به رضوانك**»(٢).

ويُفهم من كلام الإمام عليه السلام أنّ الثروة والفقر من العقبات الخارجيّة التي تُؤدّي إلى انشغال القلب والباطن الإنساني، وتنتهي به إلى نسيان الهدف المنشود، وهو القُرب من الحقّ؛ ومن خلال نصّ الدعاء المتقدّم نجد أنّ التأثير التدريجي لهذه العوامل المدمّرة على درجة عالية من الخطورة بحيث إنّ الإمام المعصوم يستجير بالله منها، ولعلّ أفضل مَن عبّر عن الدنيا واختصر وصفها هو الإمام أمير المؤمنين عليه السلام الذي يقول بأنّها: «**تغرّ وتضرّ وتمرّ**»(٣).

---

(١) الحديد: آية٢٠.

(٢) الصحيفة السجّاديّة، تحقيق: السيّد محمّد باقر الموحّد الأبطحي: ص٥٧٢ ـ ٥٧٣.

(٣) نهج البلاغة، تحقيق: صبحي الصالح: ص٥٤٨، الحكمة ٤١٥.

٢ ـ الشيطان

من ألدّ أعداء الإنسان هو الشيطان الذي يحول دون حركته في طريق الكمال، ويكون تأثيره على نحو الإثارة والاقتضاء، لا على سبيل الإجبار والإكراه. وباختصار: إنّ عمل الشيطان هو الوسوسة وتزيين القبائح؛ بمعنى أنّه يُلقي في روع الإنسان جمال الدنيا، ويوهمه أنّ التفريط بها باعث للحسرة والندم، وبهذا الشكل يُزيل عن ذهنه التفكير بالحركة نحو الله. وقد قال تعالى بهذا الصدد حكاية على لسان الشيطان: ﴿ وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ۖ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾(١).

وقال تعالى معبرّاً عمّن تمكّن الشيطان منهم بقوله: ﴿ ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾(٢).

ومفردة الشيطان بمعناها العامّ تُطلق على جميع أسباب الشرّ، وبالتالي فمَن يُؤدّي دور المسبِّب للشرّ من الناس يُعدّ شيطاناً موسوساً، قال تعالى: ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ﴿٣﴾ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ﴾(٣).

إنّ علاقة النفس والشيطان بالإنسان يُمكن تصويرها على النحو التالي: إنّ النفس هي المسؤولة عن المطالبة بما ترغب، بينما يتكفّل الشيطان تزيين تلك الرغبة وتحسينها المعسول، فالنفس تزرع ما تريد من باطل وفساد في القلب، والشيطان

---

(١) إبراهيم: آية٢٢.

(٢) المجادلة: آية١٩.

(٣) الناس: آية١ـ ٦.

يُلبسه لباساً جميلاً فاخراً، وفي الكثير من الأحيان يسعى الشيطان لتزييف الحقيقة أمام الإنسان ليكسب موافقته على مزاولة العمل القبيح(١). ويُمكن الإشارة إلى مجموعة من حيل الشيطان ومكائده كما يلي: إبراز عدم جدوى العمل الصالح وصعوبة أدائه، وزرع العُجب والاعتماد المزيّف على النفس، وإثارة سوء الظنّ والحسد والحقد والضغينة إزاء الآخرين.

٣ ـ الطاغوت

تُطلق مفردة الطاغوت على العنصر الخارجي الذي يُسخّر قدرته من أجل تقييد سلوك الآخرين وحركتهم نحو التكامل والسمو، ويحرفهم عن طريق الهداية. ويظهر من معنى هذه المفردة أنّها تُقال بحقّ من كفر بالربّ وجحده، وخرج عن ربقة عبوديّته، وصار يدعو سائر الناس إلى اتّباعه والانصياع إليه من دون الله؛ وواجب الإنسان إزاء الطاغوت هو الكفر به وعصيانه، وإعلان الخروج عن طاعته وجبروته وعدم الاستجابة إلى أوامره، قال تعالى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾(٢).

فإنّ طاعة الطاغوت والانصياع له دون أدنى شكٍّ هو عبوديّة له من وجهة نظر القرآن الكريم، إذ يقول الله تعالى في كتابه: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجۡتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعۡبُدُوهَا وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰۚ فَبَشِّرۡ عِبَادِ﴾(٣). فإنّ العبادة بحسب المفهوم القرآني هي التسليم والطاعة المطلقة مقابل القوّة الواقعيّة أو المفترضة، سواء كان ذلك بداعي الرغبة،

(١) اُنظر: الطباطبائي، محمّد حسين، الميزان في تفسير القرآن: ج٦، ص١٢٠.

(٢) البقرة: آية٢٥٦.

(٣) الزمر: آية١٧.

والاختيار أم بداعي الإكراه والإجبار، وسواء كان بمرافقة شعور التقديس والتعظيم المعنوي أم بدونه.

وأخيراً، فإنّ الطاغوت في عصرنا الحاضر يتجلّى بأشكال وصور مختلفة، فقد كان يتجسّد في العصور القديمة بشخص الظالم ذي السلطة والنفوذ العريض كفرعون ونمرود، ولكن في أيّامنا هذه تحوّل الطاغوت إلى نظام واسع ومعقّد، يتجلّى في الأبعاد التعليميّة والاقتصاديّة والعسكريّة، ويتمتّع بقدرات هائلة وخطط دقيقة لغرض التسلّط على الشعوب.

الأسئلة

١ ـ بيّن مُعلِلاً: ما هي أهمّ عقبات التكامل الأخلاقي؟

٢ ـ اُذكر العقبات الذاتيّة والخارجيّة للتكامل؟

٣ ـ ما هي أهمّ تبعات العجز؟

٤ ـ كيف تُؤثّر البيئة الفاسدة على الإنسان؟

٥ ـ ما هو تعريف الطاغوت؟

للبحث والتأمّل

١ـ لقد جاء هوى النفس في المصادر الروائيّة للشيعة الإماميّة وفي الأدعية المأثورة في مقابل العقل، أرجو البحث عن مفهوم العقل واستخداماته.

٢ـ أرجو التحرّي عن موضوع الذكاء العاطفي الانفعالي (EQ) في كتب علم النفس، والبحث عن العلاقة بين القدرة على إدارة الانفعالات ومفهوم التقوى ومجاهدة النفس، وكيف يُمكن توظيف مديات هذا البحث في إثراء المباحث الأخلاقيّة؟

٣ ـ هل أنّ الاستمتاع بالملذّات الدنيويّة ينافي المقاصد الأخلاقيّة، ويمنع من السير إلى الله؟ أرجو البحث عن حدود الاستمتاع بالدنيا.

الفصل الرابع

عناصر التكامل

الأهداف

يُتوقّع من الطالب بعد دراسة هذا الفصل:

١ ـ أن يتعرّف على العناصر الأساسيّة للتكامل الإنساني، وأن يتمكّن من تبيين دورها في مقام العمل بالوظائف الأخلاقيّة.

٢ ـ أن يتعرّف على أقلّ ما يلزم من أجل التخلّق بالأخلاق الفاضلة.

٣ ـ أن يتمكّن من تفسير التأثير المتبادل بين العلم والعمل.

٤ ـ أن يستطيع ـ بعد الالتفات إلى العلاقة بين اليقظة والإرادة ـ أن يُعدّد عوامل اليقظة ويُحلّل دورها.

٥ ـ أن يطّلع على دور الإيمان والتقوى في مقام العمل بالوظائف الأخلاقيّة.

❋❋❋

تُعدّ الظروف البيئيّة الحسَنة المحيطة بالإنسان من أهمّ عناصر التكامل الأخلاقي والمعنوي لديه، كما تُعتبر الظروف البيئيّة السيّئة من أهمّ موانع ذلك. نعم، إنّ البيئة لا تبلغ بالإنسان مرحلة الجبر والإلجاء، ولا تسلب قدرته على النمو المعنوي والروحي، فإنّ عظمة الإنسان التي امتاز بها تتجلّى في أنّه لا يفقد حريّته الأصيلة ـ تلك الجوهرة الممنوحة له ـ مهما اشتدّت عليه القيود، فهو يتحلّى دائماً بالقدرة الكافية للمضيّ قدماً في سيره المعنوي، ومن هنا فلا توجد عقبة لا يُمكن تخطّيها في سبيل التكامل المعنوي. ومن جهة أُخرى فإنّ الإنسان بحكم اختياره يكون مكلّفاً بجملة من الوظائف، رغم ما يُحيط به من قيود جمّة.

إنّ (العلم) و(القدرة) و(الوعي) تُعدّ شروطاً أساسيّة في التكليف، وهي

ثلاثة عوامل محوريّة مهمّة في التكامل، فإنّ كلّا من الجاهل والعاجز والغافل والناسي يسقط عنهم التكليف كما هو معروف[١]، إلّا أنّ الباري تعالى أتاح للإنسان فُرص التكامل والنضج، حتّى لا يكون ذلك ذريعة له للهروب من التكليف والتقاعس عنه. هذا وأنّنا سنقوم في هذا الفصل بالتطرّق إلى العوامل الثلاثة أعلاه بشيء من التفصيل.

العامل الأوّل: العلم

لا يخلو الإنسان في مسيرة حياته من أقّل مستوى من (المعرفة)، وقد نعتقد ـ خطأً ـ أحياناً أنّ المشكلة الأساسيّة التي تواجهنا في طريق التكامل والنضج هي الجهل؛ ولذلك نرى أنّ علينا التخلصّ من هذه المشكلة والقضاء على الجهل والحيرة بالعلم والمعرفة ليتسنّى لنا مواصلة الطريق في مدارج الرقي والكمال. أجل، إنّ ما نمتلكه من قضايا يقينيّة ستكون كافية للبدء بالسير في هذا الطريق، وبالتالي فلا يُقبل منّا الاعتذار بعدم العلم، حيث إنّ الإنسان مهما تحيط به من ظروف يعي الضرورات والواجبات الأساسيّة في حياته؛ حيث ألهمه الله تعالى الخير والشرّ[٢]، وبيّن له سُبل الهداية والنجاة[٣]. هذا من جانب، ومن جانب آخر فقد تعهّد الله سبحانه وتعالى أنّ مَن يعمل بما علم سوف تتّسع دائرة علمه؛ وبناءً على ذلك فهل سيبقى هناك عذر لترك العمل في المقام؟ يقول الإمام علي عليه السلام: «**العَمَلَ العَمَلَ ثُمَّ**

---

(١) ورد عن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله: «وضع عن أُمّتي تسع خصال: الخطأ، والنسيان، وما لا يعلمون، وما لا يُطيقون، وما اضطرّوا إليه، وما استكرهوا عليه...». الكليني، محمّد بن يعقوب، الكافي: ج٢، ص٤٦٣؛ فالخطأ والنسيان إشارة إلى عنوان الانتباه والوعي، وما لا يعلمون إشارة إلى عنوان العلم، وأمّا سائر العناوين الأُخرى ففيها إشارة إلى عنوان القدرة والاستطاعة.

(٢) قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾. الشمس: آية٧ ـ ٨.

(٣) قال تعالى: ﴿قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾. البقرة: آية٢٥٦.

النِّهَايَةَ النِّهَايَةَ، وَالاِسْتِقَامَةَ الاِسْتِقَامَةَ ثُمَّ الصَّبْرَ الصَّبْرَ وَالوَرَعَ الوَرَعَ، إِنَّ لَكُمْ نِهَايَةً فَانْتَهُوا إلى نِهَايَتِكُمْ، وَإِنَّ لَكُمْ عَلَماً فَاهْتَدُوا بِعَلَمِكُمْ، وَإِنَّ لِلْإِسْلَامِ غَايَةً فَانْتَهُوا إلى غَايَتِهِ، وَاخْرُجُوا إلى الله بِمَا افْتَرَضَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَقِّهِ، وَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ وَظَائِفِهِ، أَنَا شَاهِدٌ لَكُمْ وَحَجِيجٌ يَوْمَ القِيَامَةِ عَنْكُمْ»(١).

العلم والعمل

إنّ مَن يُدرك المنزلة الرفيعة للإنسان، ويعي أفق حركته، سيكون مشتاقاً لاستلهام تعاليم السير نحو الكمال. فالعلم مقدّمة للعمل، والعمل نتيجة للعلم أيضاً، وبهذا الصدد يقول الإمام علي عليه السلام: «**ثَمرةُ العلمِ العملُ بهِ**»(٢).

من الطبيعي أن لا نعتقد أنّ العلم وحده يكون كافياً. وببيان آخر: إنّ الحصول على العلم ومعرفة خريطة الطريق، هو بداية الطريق وليس نهايته؛ وعليه فإنّ على كلّ فرد العزم على العمل بما يَعلم، وعليه أيضاً أن يكون صادقاً ومصمّماً على ذلك. يقول الإمام علي عليه السلام: «**على العالم أن يعمل بما علم، ثمّ يطلب تعلّم ما لم يَعلم**»(٣).

إنّ مَن يعزم ويُقرّر بأن يعمل بما يعلم ويطبّق ما وعى وما عرف في المستقبل، فلا بدّ له من العودة إلى ما مضى، وعليه أن يتحرّى عمّا علمه وأدركه حتّى الآن، ويُقرّر ـ في الحال ـ العمل بذلك؛ ومن هنا فإنّ كلّ شخص يعترف بأنّ العلم مقدّمة للعمل وأنّ الثاني نتيجة للأوّل، يجب عليه أن يتحرّى ركام المقدّمات غير المجدية، ويبلغ بها إلى ما يمكن أن تبلغه من نتائج.

ويُضاف إلى ما تقدّم فإنّ أهل العلم والسلوك يُوصون الإنسان في حركته نحو

---

(١) نهج البلاغة، تحقيق: صبحي الصالح: ص٢٥٢ ـ ٢٥٣، الخطبة ١٧٦.

(٢) التميمي الآمدي، عبد الواحد، تصنيف غُرر الحكم ودُرر الكلم: ص٤٥، ح١٥٩.

(٣) المصدر السابق: ح ٦٢.

الكمال أن يختار طريقاً آمناً ومستقرّاً، وأن يقنّن عمله في ضوء العلم واليقين والمعرفة التي حاز عليها؛ بمعنى أنّ الإنسان ما لم يبلغ مستوى الاطمئنان وسكون النفس إزاء صحّة أيّ عمل وثمرته وضرورته، ينبغي له أن لا يقدم على القيام به، حتّى لا يقع في فخّ الحيرة والاضطراب والشكّ.

قال الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله: «**مَنْ عَمِلَ عَلى غَيْرِ عِلْمٍ كَانَ مَا يُفْسِدُ أَكْثَرَ مِمَّا يُصْلِحُ**»(١).

وعن الإمام الصادق عليه السلام ورد أيضاً: «**العَامِلُ عَلَى غَيْرِ بَصِيرَةٍ كَالسَّائِرِ عَلَى غَيْرِ الطَّرِيقِ، لَا تَزِيدُهُ سُرْعَةُ السَّيْرِ إِلَّا بُعْداً**»(٢).

إنّ العمل بما نعلم سيؤدّي إلى وضوح كلّ مجهولاتنا واشتباهاتنا، والآيات الكريمة والروايات الشريفة جاءت مؤكّدة وبشكل صريح على أنّ العمل يُضيء للإنسان علماً وفهماً جديداً، ويُنير له طريق الحركة إلى التكامل.

قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾(٣).

وقال أيضاً: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَـٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾(٤).

وقال كذلك: ﴿ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْ ﴾(٥).

كما نقرأ في بعض الروايات أنّ: «**العِلْمُ مَقْرُونٌ بِالعَمَلِ فَمَنْ عَلِمَ عَمِلَ، وَمَن عَمِلَ عَلِمَ**»(٦).

---

(١) البرقي، أحمد بن محمّد، المحاسن: ص٣١٤.

(٢) ابن بابويه القمّي، محمّد بن علي، الأمالي: ص٤٢١.

(٣) الأنفال: آية٢٩.

(٤) العنكبوت: آية٦٩.

(٥) النور: آية٥٤.

(٦) الكليني، محمّد بن يعقوب، الكافي: ج١، ص٤٤.

ونقرأ أيضاً: «**مَنْ عَمِلَ بِما عَلِمَ وَرَّثَهُ (عَلّمهُ) الله عِلْمَ ما لَمْ يَعْلَمْ**»(١).

ومن أجل إدراك هذه الحقيقة العجيبة لا بأس بتوضيحها من خلال استعراض موقف السائق الذي يقصد السفر في الليل، فلو كان مدى مصباح حافلته يمتدّ إلى مسافة عشرين متراً فقط، عندئذ لا يُمكنه رؤية ما بعد هذه المسافة بوضوح، ولا يتسنّى له معرفة طبيعة الطريق الذي يليها، فلو قرّر هذا السائق الامتناع عن المسير والسفر بحجّة أنّ الطريق بأكمله غير واضح بالنسبة إليه، ألا يكون ملاماً ومداناً من قبل العقلاء؟ وبعبارة أُخرى: إنّ المنهج العقلائي القويم يقضي بأن مضي هذا السائق مستفيداً من المصباح بهذا المدى المذكور أفضل من توقّفه عن المسير تماماً.

قال الإمام الصادقعليه السلام: «**العملُ وعاءُ الفَهم**»(٢).

إنّ مَن لم يعمل فبالإضافة إلى عدم تمكّنه من اكتساب العلم فإنّه سوف يفقد ما حصده من معلومات أيضاً، ففي الواقع كما أنّ الأُمور المشتبهة تُصبح يقينيّة من خلال العمل باليقينيّات، كذلك يُشكّ بالأمور اليقينيّة عند العمل بالمشكوكات والأُمور المشتبهة، فالذي لا يعمل بعلمه ستستحوذ على وجوده ظلمة وحيرة؛ بمعنى أنّه سيتردّد بصحّة أعماله وحقّانيّتها بعد أن كان على يقين بذلك. وفي هذا الصدد يقول الإمام عليعليه السلام: «**مَن اتّبع هواه أعماه وأصمّه، وأذلّه وأضلّه**»(٣).

وورد أيضاً: «**وآفَةُ العَقلِ الهَوى**»(٤).

فكما أنّ المعرفة الأخلاقيّة يرافقها التأثير في سلوك الإنسان وعمله، فإنّ

---

(١) المفيد، محمّد بن محمّد، الفصول المختارة: ص١٠٧.

(٢) الديلمي، حسن بن محمّد، أعلام الدين في صفات المؤمنين: ص٩٦.

(٣) التميمي الآمدي، عبد الواحد، تصنيف غُرر الحكم ودُرر الكلم: ص٦٥، ح٨٣٦.

(٤) المصدر السابق: ص٦٤، ح٨١٤.

السلوك نفسه يُؤثّر بعمق في اعتقادات الإنسان أيضاً، فلو لم يحيَ الإنسان في ضوء ما يُفكّر فسرعان ما يكون تفكيره منقاداً لطبيعة معاشه. وبحسب الروايات الشريفة[١] فإنّ اتّباع الهوى واقتفاء رغبات النفس وترك العمل بالحقّ، سيؤدّي إلى زوال أدوات الإدراك والقدرة على التمييز والتمحيص لدى الإنسان، فقد جاء في نهج البلاغة: «**لاَ تَجْعَلُوا عِلْمَكُمْ جَهْلاً، وَيَقِينكُمْ شَكّاً، إِذَا عَلِمْتُمْ فَاعْمَلُوا، وَإِذَا تَيَقَّنْتُمْ فَأَقْدِمُوا**»[٢].

وبهذا الصدد يقول الدكتور بهشتي:

«إنّ الرغبة في حياة اللّامبالاة وتجاهل لوازمها يضعف فينا قابليّة القناعة بالقضايا الجادّة والهامّة أو يزيلها ـ مهما كانت واضحة ومبرهنة ـ وكأنّنا مستأنسين بما حلّ بنا من شكٍّ وحيرة، وسعداء بشأن البقاء في هذه الحالة، خشية الوقوع في شراك الواجب والممارسة المطلوبة، وهذا المرض المُعدي يعني شيوع السفسطة والوسوسة والفوضى في المجتمع، ونتيجته المباشرة هو انتشار الشكوك الفارغة وغير الهادفة والعبث في شتّى مفاصل الحياة، الأمر الذي يجعل المجتمع في خطر محدق، وهو فقدان المبدأ، عندها سيكون من الصعب العثور على أربعة أشخاص متّفقين بالفكر في مجتمع كهذا»[٣].

العامل الثاني: القدرة

إنّ من عناصر النموّ وشروط التكليف القدرة التي يسقط التكليف بزوالها؛ ومن هنا فإنّ مسؤوليّة الإنسان ستدور مدار القدرة. والمراد من القدرة هنا ليس الوسع والقدرة البدنيّة فحسب، بل تشمل القابليّة الفكريّة والروحيّة والاستعدادات التي تنسجم مع العادة والطبع الإنساني، إلى جانب توفّر الوسائل

---

(١) أُنظر: محمّدي ريشهري، محمّد، ميزان الحكمة: ج٤، باب٥٣٧.

(٢) نهج البلاغة، تحقيق: صبحي الصالح: ص٥٢٤، الحكمة ٢٧٤.

(٣) حسيني بهشتي، محمّد، ايدئولوژي إسلامي (= الأيديولوجية الإسلاميّة): ص١٣.

والأدوات التي تُعين وتُرافق القدرات البشريّة، والقوانين والضوابط والثقافات العامّة، وبشكل عامّ فإنّ القدرة هنا تشمل سائر المتطلّبات الماديّة والإمكانيّات المعنويّة.

وبالطبع فإنّنا سنواجه في ظلّ هذا التعريف جملة من القيود، مثال ذلك: الكثير الأعمال التي نعجز عن القيام بها بسبب فقدان القدرة الماديّة، وكذلك نجد أنّ العادات أحياناً والثقافة العامّة والعرف الاجتماعي، أو عدم توفّر الفرصة الكافية تلعب هي الأُخرى دوراً معيّناً في سلب قدرتنا العمليّة، ولكن رغم كلّ هذه القيود والتحديدات فإنّ المرء يبقى مختاراً ولا يفقد قدرته بشكل تامّ؛ ولذا فإنّنا سنبقى مسؤولين بمقدار تلك الاستطاعة التي تتوفّر لدينا.

إنّ القرآن الكريم يعتبر زوجة نوح وزوجة لوط نموذجين بارزين من نماذج الكفر والعصيان؛ لمكانتهما وقربهما من هذين النّبيَّيْن، ولما يحظيان به من قابليّات وفرص عظيمة للتكامل والتسامي المعنوي، ولكنّهما لم يستثمراها كما ينبغي؛ ومن جانب آخر نجد أن آسيا زوجة فرعون كانت نموذجاً عظيماً من وجهة نظر القرآن الكريم ومثلاً رائعاً للإيمان، رغم أنّها كانت تعيش ظروفاً صعبة في ظلّ تغطرس فرعون وجبروته، الأمر الذي قلّص كثيراً من قدراتها وإمكانيّاتها، إلّا أنّها حافظت على قربها من الله والاتّصال به، ومنحت نفسها أكبر فرصة إنسانيّة للفوز بالتكامل والتعالي المعنوي.

قال تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمۡرَأَتَ نُوحٖ وَٱمۡرَأَتَ لُوطٖۖ كَانَتَا تَحۡتَ عَبۡدَيۡنِ مِنۡ عِبَادِنَا صَٰلِحَيۡنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمۡ يُغۡنِيَا عَنۡهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗا وَقِيلَ ٱدۡخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ١٠ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمۡرَأَتَ فِرۡعَوۡنَ إِذۡ قَالَتۡ رَبِّ ٱبۡنِ لِي عِندَكَ بَيۡتٗا فِي ٱلۡجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرۡعَوۡنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[١].

---

(١) التحريم: آية ١٠ ـ ١١.

ويتحدّث القرآن الكريم في وصف طغيان فرعون موبّخاً ايّاه، ومديناً خضوع قومه له، ومستنكراً عليهم استسلامهم لسطوته، حيث يقول تعالى: ﴿ فَٱسۡتَخَفَّ قَوۡمَهُۥ فَأَطَاعُوهُۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ ﴾(١).

فإنّ القيود والضغوط التي كان فرعون يمارسها بحقّ قومه على الرغم من كونها صعبةً وشديدةً إلّا أنّها لم تسلبهم تمام القدرة والاستطاعة؛ ولأجل ذلك لم تؤدِّ إلى سقوط التكليف والمسؤوليّة عنهم. وعليه؛ فلا ينبغي التغاضي عن التكليف وإهماله وتبرير تركه من خلال التذرّع بالقيود الاجتماعيّة.

العامل الثالث: الانتباه والوعي

واحدة من أهمّ القابليّات للتكامل وشروط التكليف انتباه الإنسان ووعيه لما يصنع، فإنّ المرء تنتابه في العادة حالة من الغفلة والنسيان والجهل أيضاً، وفي هذا الحال لا يكون مسؤولاً إزاء ما صنعه من عمل، ولكن لا يعني ذلك أن يكون واقعاً ضحيّة هذه الحالات دائماً.

ومن هنا؛ فعندما تتحوّل حالة الغفلة والسهو إلى يقظة ووعي يكون الإنسان حينها مسؤولاً ومكلّفاً، قال تعالى: ﴿ وَإِذَا رَأَيۡتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيۡرِهِۦۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَلَا تَقۡعُدۡ بَعۡدَ ٱلذِّكۡرَىٰ مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾(٢).

وفي هذا الصدد قال آية الله الشيخ بهجت؛ : «**إذا كنتم في حالة ذكر وتواصل مع الله، فما دمتم غير مضطرين للانصراف عن ذلك، امضوا في حالة الذكر هذه**»(٣).

وفي ضوء ذلك؛ فإنّ (العلم) و(القدرة) و(الانتباه) تكون موجودة عند

---

(١) الزخرف: آية٥٤.

(٢) الأنعام: آية٦٨.

(٣) بهجت، محمّد تقي، به سوي محبوب (= نحو المحبوب): ص٥٧.

الإنسان للوهلة الأولى، ولكن ثمّة سؤالاً ملحّاً، وهو: لماذا يُحجم بعض بني الإنسان عن العمل مع توفّر كلّ هذه الإمكانيّات؟

وفي مقام الجواب نقول: حينما ندرس السلوكيّات والأعمال الإراديّة يُمكن استنتاج ما يلي: إنّ كلّ عمل اختياري ينشأ من نوع من الرغبة الباطنيّة في أداء ذلك العمل، فنحن عادةً ما نختار الأمور التي نرغب فيها ونميل إليها، وعندما تتكوّن لدينا رغبة شديدة بأمرٍ ما نطلبه ونُريده؛ ومن هنا فإنّ مصدر الإرادة في وجودنا هو الرغبة الشديدة.

الرغبة ←الرغبة الشديدة ← الإرادة والحركة

ولكن على أيّة حال فإنّ السؤال يبقى مطروحاً، وهو: كيف يُمكننا تدعيم ميولنا ورغباتنا وتعزيزها؟ وكيف نستطيع أن نتجاوز التقاعس عن القيام بالأعمال التي تأكّد لدينا حُسنها أو ضرورتها، وأن نطبّقها في حياتنا؟

إن ميلنا إلى الأشياء وعلاقتنا بها تنشأ في الغالب من وعينا بحُسنها.

معرفة حُسن الأشياء ←الميل نحوها

والنقطة المهمّة هي أن نعرف أنّ إدراكاتنا هي ـ كميولنا ورغباتنا ـ تتقبّل الشدّة والضعف أيضاً، فبعض مدركاتنا تكون مؤثّرة ونشطة وفعّالة، وبعضها الآخر تكون بشكل عامّ من دون روح أو أثر فاعل، وربّما يتلاشى بعضها في ظلّ الحوادث والوقائع اليوميّة من أذهاننا وتغيب تماماً عن صفحة الوعي والإدراك، ويُطلق على عدم الفهم والإدراك جهل، ويُقال لغيابهما عن الذهن: نسيان، ولموتهما وتلاشيهما: غفلة.

بالنتيجة؛ فإنّ عدم العمل تارة ينشأ من عدم العلم والاطّلاع، وهذا يُعالج بطلب العلم ودوام البحث، وأُخرى يكون بسبب الغفلة وعدم الالتفات، وهو ما تتمّ معالجته بالتذكّر.

عوامل التذكّر والانتباه

١ـ التفكّر

أحياناً يقوم الإنسان نفسه باستذكار ما كسبه من مدركات وإحيائها وتفعيلها، ويتحقّق ذلك من خلال (التذكّر)، و(التدبّر)، و(تلقين النفس). يقول الإمام علي عليه السلام: «**إنّ التَّفكُّرُ يَدعُو إلى البِرِّ والعملِ بِهِ، وإنّ الندمَ عَلى الشرِّ يدعْو إلى تَركِهِ**»(١).

وعليه؛ فإنّ التفكّر كما يُؤدّي إلى رفع غشاء الجهل، فهو يُؤثّر كذلك في إحياء القلب وفي خلق الحافز والدافع في النفس.

فعن أبي عبد الله عليه السلام قال: «**كان أمير المؤمنين عليه السلام يقول: نَبِّهْ بالتَفكُّرِ قَلْبَكَ**»(٢).

٢ ـ الموعظة

وأحياناً ينتبه الإنسان ويتذكّر بتذكير الآخرين وموعظتهم إيّاه، فلو خلقت هذه الموعظة وعياً جديداً وفهماً آخر أُطلق عليها إرشاد أو تعليم، ولو أحيت فهماً ووعياً سابقاً سمّيت موعظة، فالإنسان قبل الإرشاد والتعليم وبعدهما بحاجة إلى الموعظة والتذكّر، فهو دائماً مفتقر إليهما، فقد ورد في هذا الصدد: «**سامعُ ذكرِ اللهِ ذاكرٌ**»(٣).

كما قال تعالى في كتابه الكريم: ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾(٤).

وقال سبحانه: ﴿يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾(٥).

---

(١) الطبرسي، علي بن حسن، مشكاة الأنوار: ص٣٧.

(٢) الكليني، محمّد بن يعقوب، الكافي: ج٢، ص٥٤.

(٣) التميمي الآمدي، عبد الواحد، تصنيف غُرر الحكم ودُرر الكلم: ص١٨٨، ح٣٦٢٢.

(٤) الذاريات: آية٥٥.

(٥) النحل: آية٩٠.

وعن الإمام زين العابدين عليه السلام أنّه قال: «**يابن آدم لا تزالُ بخيرٍ ما كانَ لكَ واعظٌ مِنْ نفسِك، وما كانت المحاسبة مِنْ همِّك**»(١).

٣ ـ المشاهدة

إنّ لملاحظة سلوك الآخرين الأثر البالغ في تنشيط الذهن وإحياء المعرفة، بل ربّما يكون تأثيرها أكثر بكثير من التأثّر بالقول وأعمق من التأثّر بالكلام، وهي في الواقع نوع من الذكر غير المباشر، قال الإمام الصادق عليه السلام: «**كونوا دعاةَ النّاسِ بغَيرِ ألسِنَتكُم، لِيرَوا مِنكم الوَرَعَ وَالاجتِهادَ وَالصّلاةَ والخَيرَ؛ فإنّ ذلك داعِية**»(٢).

قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ﴾(٣).

٤ ـ التجربة

عندما نتناول طعاماً شهيّاً ستبقى في أذهاننا بعد تناوله صورة وذكرى عن لذّته وحلاوته، هي أوضح بمراتب ممّا نُدركه من خلال توصيف رائحته الشهيّة ومذاقته اللذيذ، وبعد تبلور هذا الإدراك إزاءه، تتعزّز فينا رغبة قويّة بالنسبة إليه، وهي التي تدفعنا بإرادة وعزم لتحصيله وتناوله مرّة أُخرى(٤).

---

(١) المفيد، محمّد بن محمّد، الأمالي: ص١١٠.

(٢) الكليني، محمّد بن يعقوب، الكافي: ج٢، ص٧٨.

(٣) الصف: آية٢ ـ ٣.

(٤) يقول السيّد الخميني قدس سره بهذا الخصوص ما يلي: «اعلم أنّ ما تناله النفس من حظٍّ في هذه الدنيا، يترك أثراً في القلب، وهو من تأثير الملك والطبيعة، وهو السبب في تعلّقه بالدنيا. وكلّما ازداد التلذّذ بالدنيا، اشتدّ تأثّر القلب وتعلّقه بها وحبّه لها، إلى أن يتّجه القلب كليّاً نحو الدنيا وزخارفها، وهذا يبعث على الكثير من المفاسد. إنّ جميع خطايا الإنسان وابتلاءه بالمعاصي والسيّئات سببها هو هذا الحبّ للدنيا والتعلّق بها». الخميني، روح الله الموسوي، الأربعون حديثاً: ص١٥٨. وقال أيضاً في موطن آخر من هذا الكتاب: «إنّ التجرّؤ على المعاصي يفقد ←

٥ ـ تداعي المعاني

يعقد الذهن البشري علاقات وملازمات بين الأشياء والمفاهيم، وغالباً ما ينتقل من أحدها إلى الآخر، وكثيراً ما يحدث أن يتفاعل ذهننا بشدّة عند سماع مفردةٍ ما أو دعابة معيّنة، أو حتّى قصّة وحكاية، أو من خلال ملاحظة رمز أو علامة أو مخطوطة أو رسم لشيء معيّن، فتنطبع فيه لها صور سيّئة أو حسنة. وهذه الخصوصيّة التي يمتاز بها العقل الإنساني غالباً ما تُؤثّر وبشكل فعّال على مدركات لم تكن فعّالة أو نشطة في أنفسنا من خلال ما نُلاقيه من ظواهر غير متوقّعة وغير محسوبة، ويُؤدّي إلى توجيه العزم والإرادة فينا.

وبناءً على ما تقدّم؛ يُمكن رسم عوامل التذكّر والانتباه على النحو التالي:

الفكر، الموعظة، التجربة، المشاهدة والتداعي ← الانتباه ← العلم الشديد ← الرغبة الشديدة ← الإرادة.

ومن هنا نقول: إنّ البرامج الدينيّة في التربية والتوجيه، ومن خلال اقتفاء هذه القواعد والأُصول، ستعزّز إرادة الإنسان وعزمه للمسير في سبيل الهداية والنجاح(١).

الإنسان تدريجيّاً العزم، ويختطف منه هذا الجوهر الشريف. يقول أستاذنا المعظّم دام ظلّه: إنّ أكثر ما يُسبّب فقد الإنسان العزم والإرادة هو الاستماع للغناء. إذاً تجنّب يا أخي المعاصي، واعزم على الهجرة إلى الحقّ تعالى». المصدر السابق: ص٣٥.

(١) ففريضة الصلاة مثلاً تُعدّ أهمّ برنامج في التربية الدينيّة، حيث تُذكّر الإنسان بمبدأ هذا العالم ومنتهاه، قال تعالى: ﴿ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ﴾. طه: آية ١٤؛ وكذلك فريضة الصيام التي تُركّز في ذهن الإنسان عطش وجوع القيامة، وتذكره بحالة العيش التي يرزح تحتها الفقراء والمحتاجون، مضافاً إلى ذلك فإنّها تعتبر تمريناً للنفس كي تسيطر على نزواتها ورغباتها لتعزّز فيها ملكة التقوى، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾. البقرة: آية ١٨٣، ومن جملة ما يطرحه الدين هو تقديس بعض الأزمنة والأمكنة وبعض الأشياء المعيّنة؛ وذلك لما لها من آثار وحقائق مهمّة في حياة الإنسان:

إلى جانب ذلك فإنّ المنحرفين يضطرّون أيضاً لاستخدام هذه الأصول والقواعد من أجل الوصول إلى أهدافهم الخبيثة لإضلال الإنسان وإسقاطه في الرذيلة؛ بمعنى زرع الوسوسة التي تُثير في الأعماق الإنسانيّة الوساوس الدنيئة، وتشجّع الذهن والقلب والإرادة، على الأُمور المضرّة والسيّئة، مثال ذلك: نشر الموادّ المخدّرة، أو الصور الهابطة والمستهجنة في المجتمع، حيث يتمّ ذلك من خلال إثارة اللذّة وترغيب الناس فيها، ليتشكّل لهم بعد ذلك اطّلاع واسع بهذه الأُمور، وفي النتيجة تتحقّق الرغبة والعلاقة بها، لينتهي بهم الأمر إلى الإرادة والقصد إليها.

الأسئلة

١ ـ رغم حثّ كبار السالكين وإصرارهم على أنّ العمل يدور مدار اليقين، كيف يتسنّى لنا السير في طريق الكمال رغم ما يُحيط بنا من غموض وإبهام؟

٢ ـ في ضوء الآيات والروايات ما هي ثمرة العمل على وفق العلوم التي نمتلكها؟

٣ ـ أرجو بيان وتحليل كيفيّة كون العمل على خلاف المدركات والعلوم يؤدّي إلى الشكّ والترديد، ويبعث على فقدان المعلومات؟

٤ ـ مع وجود القيود الكثيرة التي تحيط بالإنسان كيف يتمّ تشخيص حدود مسؤولياتنا؟

٥ ـ كيف تتبدّل المعرفة إلى إرادة؟ وما هي المراحل التي ينبغي اتّباعها لتحصيل ذلك؟

٦ ـ ما هو السبيل لتقوية الميل الموصل إلى السلوك والعمل؟

كالمسجد، وشهر رمضان، والتربة الحسينيّة.

٧ ـ ما هو الخطاب الذي تتحقّق به الموعظة؟ وكيف يُمكن للموعظة أن تعزّز الإرادة؟

٨ ـ لماذا يُضعف الإفراط في اللذائذ الدنيويّة الإرادة والقصد؟

٩ ـ ما هو الإيمان، وكيف يمكن أن نختبر مستوى إيماننا؟

١٠ ـ كيف يُمكننا توسيع دائرة اختياراتنا؟

للبحث والتأمّل

١ـ أرجو البحث عمّا يلي: هل يوجد ارتباط بين ما يُقدَّر لنا في ليلة القدر من كلّ سنة، وبين مستوى قدراتنا والقيود التي تُحيط بنا؟ وما الذي ينبغي فعله لتغيير الظروف المحيطة لصالحنا لتكون في مسالك الخير؟

٢ ـ مع وجود الاعتقاد الصحيح بعمل ما، أو إدراك سلوك سيِّئ ذي عواقب مشينة، ما هو الشيء الذي يؤدّي إلى ضعفنا عند القيام بذلك العمل؟ وكيف يُمكن لهوى النفس أن يتغلّب على مدركاتنا واعتقاداتنا؟ مثال ذلك: عند استخدامنا للإنترنت ما الذي يحصل حتّى نقوم أحياناً بخلاف مدركاتنا وقناعاتنا؟

٢ـ أرجو البحث حول تجربة العمل الحرام ودورها في تعزيز أو إضعاف النزعات والميول المختلفة في الإنسان؟

الفصل الخامس

خصائص الشخصيّة الأخلاقيّة المتكاملة

الأهداف

يُتوقّع أن يكون الطالب بعد دراسة هذا الفصل قادراً على:

١ـ أن يُعدّد النتائج العامّة لتطبيق الأخلاق بشكل كامل في حياة الأفراد.

٢ـ أن يتعرّف على وظائف الأخلاق الاجتماعيّة في تحصيل النتائج المرجوّة في الحياة.

٣ـ أن يفهم العلاقة بين القُرب وتحصيل السعادة.

٤ ـ أن يُبيّن دور الأخلاق في بلوغ النجاح والحصول على اللذّة.

٥ـ أن يتعرّف على سُبل الوصول للسكينة والسعادة في ظلّ الأخلاق.

✵✵✵

تسعى الأخلاق الإسلاميّة أساساً إلى إيجاد تحوّل معنوي في الإنسان لتجعل منه إنساناً كاملاً، فهمُّ الإنسان الأخلاقي هو القُرب من الله وبلوغ مقام الخلافة في الأرض، وبالتالي فهو لا يبيع وجوده بثمن أقّل من ذلك؛ لذلك ورد في نهج البلاغة: «**إِنَّهُ لَيْسَ لِأَنفُسِكُمْ ثَمَنٌ إِلَّا الجنَّةَ، فَلاَ تَبِيعُوهَا إِلَّا بِهَا**»(١).

لكن بلا شكّ أنّ الطريق لنيل هذا المقام يمرّ من خلال الدنيا، ممّا يجعل الاهتمام بها وبمتاعها أمراً لا مفرّ منه في هذا الطريق إلى الآخرة، قال تعالى: ﴿ وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَا ...﴾(٢).

---

(١) نهج البلاغة (شرح محمّد عبده): ج٤، ص١٠٤، الحكمة ٤٥٦.

(٢) القصص: آية٧٧.

وكما تؤمّن الأخلاق الإسلاميّة السعادة الأُخرويّة للإنسان، كذلك تلعب دوراً لا مثيل له في السعادة الدنيويّة وبناء المجتمع البشري، وسنتناول في هذا الفصل والفصول القادمة الثمرات الدنيويّة للأخلاق الإسلاميّة.

بإمكان الأخلاق الإسلاميّة ـ بما تقدّمه من قِيَم سلوكيّة ومعنويّة خاصّة ـ أن تُخمد لدى المتخلّق بها وهج الأنانيّة والميل نحو الشهوات واللذائذ، لكنّه سيحصل قبال ذلك على جملة من المُتع التي تجعل حياته هنيئة وذات قيمة؛ وتتحقّق هذه المُتع في ثلاثة مجالات، هي: العلاقة مع الذات (الأخلاق الفرديّة)، والعلاقة مع الله (الأخلاق العباديّة)، والعلاقة مع الآخرين (الأخلاق الاجتماعيّة). هذا، وأنّ التعرّف على هذه المجالات يساعد الإنسان في تحصيل الوعي العميق والدقيق بالأخلاق، والميل نحو الحياة الأخلاقيّة، سيّما في مجال العلاقة مع الله، حيث تكون فوائدها الدنيويّة جديرة بالاغتنام. يذكر الدكتور (هارولد كونيج) في هذا الصدد ما ملخّصه:

في الفترة المنصرمة ما بين عامي (١٩٨٧ ـ ١٩٨٩) للميلاد قام بعض الباحثين النفسانيين بالتحرّي عن العلاقة بين الدين كعنصر مواجهة ومكافحة وبين مرض الكآبة، من خلال فحص نماذج من المرضى الذين بلغ عددهم حوالي الألف، حيث حظيت هذه العيّنة من المرضى بالخدمات الطبيّة في مستشفى دورام الواقع في شمال ولاية كارولينا، وتمّ تشخيص مستوى الكآبة عندهم عبر طرق مختلفة.

وعندما تمّت مقارنة المرضى الذين يواجهون مرض الكآبة من خلال معالجتهم أنفسهم عبر الاعتقاد بالدين واعتناقه مع أُولئك الذين كانوا يقولون: إنّنا نكافح مثل هذا المرض بأُمور أُخرى من قبيل لقاء الأهل والأصدقاء ونحو ذلك، فكانت النتيجة أنّ عدد المرضى المصابين بالكآبة الذين كان لهم ارتباط عميق بدينهم وعقيدتهم أقلّ ـ وبشكل واضح ـ من أُولئك المرضى الذين لم يكونوا كذلك، ومن ثَمّ فقد تمّت متابعة حالة مائتين واثنين من المرضى في غضون ستّة أشهر بعد

خروجهم من المستشفى، فكان عنصر التعلّق بالدين والمعتقد هو السبب الوحيد الذي سيكون مؤثّراً ـ وبشكل واضح ـ في السلامة النفسيّة للأشهر الستّة القادمة.

إلى جانب ذلك، تمّ في أواخر ثمانينيّات القرن الماضي إجراء مسح ميداني لأربعة آلاف شخص في مركز كارولينا الشمالي من قبل فريق بحثي، كان برعاية المؤسّسة الفدراليّة (الوطنيّة) للمسنّين، وذلك من أجل تشخيص أنّ الأشخاص الذين كانوا نشطين وفعّالين من الناحية الدينيّة هل أنّهم أكثر بؤساً وحزناً من الأشخاص غير النشطين وغير الميّالين للدين وطقوسه أو لا؟ فتبيّن أنّ احتمال الكآبة والحزن في الذين كانوا يتردّدون على الكنائس كل أُسبوع مرّة على الأقل هو نصف أُولئك الذين كانوا يتردّدون على الكنيسة بشكل أقلّ. وتكرّرت هذه النتائج أيضاً في البحث الذي أجراه المركز الوطني للصحة النفسيّة بحقّ ألفين وتسعمائة وتسعة وستّين شخصاً، حيث كانت نسبة المصابين بالكآبة والانزواء أقلّ في النماذج التي كانت تزاول الذهاب إلى الكنيسة بشكل مستمرّ، مضافاً إلى ذلك فقد أفاد الباحثون المختصّون في مناطق مختلفة من أمريكا وكندا أيضاً بنتائج وإحصاءات ـ فيما يتعلّق بالارتباط بين الدين والصحة النفسيّة ـ مشابهة لذلك.

وتُفيد الدراسات أنّ مستوى القناعة والرضا بالزواج بين المتديّنين أكثر، ونسبة الطلاق فيها أقلّ، وأفادت تلك الدراسات أيضاً أنّ المصاب والمريض من تلك العوائل والأشخاص يحظى باهتمام ودعم ورعاية، وأنّ العوائل المتديّنة والملتزمة تلقّن وتوصي أبناءها بالقيم الدينيّة، وتُؤكّد على ضرورة الالتزام بما يُقوِّم الفرد ويُكمّله ويسوقه نحو الأخلاق العالية من قبيل احترام الوالدين؛ وهذه القيم عادة ما تنمّي وتساعد على إعانة الوالدين المسنّين أو الأُخت والأخ، فإنّ الحالة الروحيّة المتسامية والعقائد الدينيّة تشجّع على الحبّ النقي والمتوازن لله والذات والآخرين[1].

---

(١) أُنظر: كونيج، هارولدجورج، آيا دين براى سلامتى شما سود مند است؟ (= هل الدين مفيد لصحّتكم؟): ص٦٧ ـ ٩٠.

هذا، وإنّ خصائص الشخصيّة الأخلاقيّة المتكاملة عبارة عن:

الخصوصيّة الأولى: الاطمئنان

يُعدّ الاطمئنان النقطة المقابلة للاضطراب والقلق، ويعني التخلّص من الرعب والاضطراب، والشعور بالأمان والتمتّع به، وهو على شكلين: الأوّل مذموم، والثاني ممدوح، فالأوّل هو نتيجة الثقة والاطمئنان بالأشياء غير المستقرّة التي تزول سريعاً، وتُفضي إلى الحيرة والخوف، وأمّا الثاني فهو الاطمئنان والسكون المستقرّ والمتواصل الذي يتزيّن بالأخلاق الحسنة، ويتّصل بينبوع الصفات الطيّبة؛ ومن هنا فعلينا أن نعرف كيف أنّ الأخلاق هي التي تحقّق الاطمئنان.

إنّ من يتربّى في أحضان الإيمان والتقوى لا تُقلقه مشاكل الحياة ولا اضطراب الظروف أو ارتباك الأحوال، بل إنّه يرى أنّ الخلق بأسره يجري بتدبير من الله ورعايته، ويعتبر أنّ كلّ المصائب والمتاعب هي مرتبطة بإرادته وقدرته سبحانه؛ وحيث إنّه يعتقد أنّ حكمته وعلمه وهيمنته عزّ وجلّ على تفاصيل الكون اقتضت ذلك، فهو راضٍ بذلك مستسلم لما قدّر له ربّه.

فإنّ الطفل الذي يُدرك تخطيط والديه، ويعي حكمة قراراتهما المتعلّقة به، لا ينزعج إطلاقاً ولا يشتكي منهما أبداً، كذلك فإنّ مَن يعلم أنّ الله هو الفاعل الأوّل في الوجود لا يعترض أبداً[١].

إنّ الإنسان المؤمن يرى أنّ كلّ الخلق جميل ورائع؛ لأنّه فعل الله وتجلٍّ لقدرته، وهو في جميع الظروف والأحوال هادئ ومطمئن. وهذا الأمر هو الذي تجلّى في موقف

---

(١) وهذا هو معنى تسبيح الباري، فهو عبارة عن تنزيه عن كلّ عيب أو نقص أو انتقاد أو تقصير أو اعتراض.

السيّدة زينبعليها السلام بعد حدث كربلاء الدامي، حينما قالت: (ما رأيتُ إلّا جَميلاً).

أنا مبتهجٌ بالكون لأنَّ الكون مبتهج به   أنا عاشقٌ لكلِّ العالم لأنَّ جميع العالم منه
أتناولُ السمَّ بلذّةٍ من يدِ معشوقي   واتحمّلُ الألم بكلِّ رغبةٍ لأنَّ دوائي منه(١)

هذا، ويعود القلق والاضطراب والخوف الذي يعيشه القلب إلى جملة من الأسباب أهمّها هو الطمع المفرط والجشع المتزايد؛ لأنّ تقاطر ملذّات الدنيا لا تملأ أبداً روح الإنسان، ولا تروي رغبته العارمة في طلب المزيد، فهو يشعر دائماً بالخيبة والحرمان والنقص؛ ومن هنا فإنّ الإنسان المؤمن ومن خلال إدراكه الحقيقة، فهو لا يتوقّع ثمرة عظيمة من هذا العالم، ولا يكون ضحيّة لخيبات الأمل والأُمنيات الزائفة، فإنّ تعارض رغبات الإنسان المختلفة تُحوّله إلى كائن قلق مشتّت القوى والقرار، ومخلوق متخبّط فاقد لروح الحسم والتصميم.

إنّ الإنسان الخلوق ومن خلال قوّة السيطرة التي لديه وقدرة التحكم والتدبير التي يتحلّى بها، يُمكنه ضبط قواه المختلفة وأعماله ورغباته تحت قبضة العقل ومقتضيات الحكمة(٢). فعندما يقوم العقل بتحكيم الاعتدال بين قوى الشهوة والغضب والوهم، يحلّ الهدوء والاطمئنان في مملكة الروح، وتهدأ في أعماق النزاعات والضجيج.

إنّ العمل في ضوء الموازين الأخلاقيّة يزيح الأدران النفسيّة من القلب، ويطهّر الروح من عقدة القلق والخوف الذي يعشعش في أعماقنا، والذي يعود إمّا

---

(١)

به جهان خرم از آنم كه جهان خرم از اوست   عاشقم بر همه عالم كه همه عالم از اوست
به حلاوت بخورم زهر كه شاهد ساقي است   به ارادت بكشم درد كه درمان هم از اوست

(٢) قال الإمام عليعليه السلام في دعاء كمُيل: «حَتَّى تَكُونَ أَعْمَالِي وَأَوْرَادِي كُلُّهَا وِرْداً وَاحِداً، وَحَالِي فِي خِدْمَتِكَ سَرْمَداً». ابن طاووس، علي بن موسى، إقبال الأعمال: ص٧٠٩، دعاء كميل.

إلى اضطرارنا إلى المحافظة على ما نُحبّه ونتعلّق به، وإمّا بسبب عجزنا عن بلوغ ما نتمنّاه في قلوبنا ونأمله في أنفسنا. ومن هنا، فإنّ الأخلاق الإسلاميّة حيث إنّها تحدّ من التعلّق والتشبّث بالدنيا ومفاتنها فإنّها ستُسهم دون شكّ في إزالة القلق والخوف والاضطراب، وتغرس محلّه الهدوء والاطمئنان.

مضافاً إلى ذلك، فإنّ أحد مصادر السكينة في الإنسان هي رعاية الباري تعالى وتوفيقه، وهي أغلى وأفضل من أيّ رعاية أو دعم، وأكثر من أيّ سكينة واطمئنان، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَـٰنًا مَّعَ إِيمَـٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾(١).

وقال تعالى عن هجرة الرسول محمد صلى الله عليه وآله: ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾(٢).

فحينما يكون الله تعالى هو الحامي والداعم والمعين، سوف يحلّ الأمن والاطمئنان روح الإنسان ونفسه، ولا شكّ فإنّ هذا الدعم والتأييد الربّاني يأتي عبر الأخلاق والإيمان؛ قال تعالى: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾(٣)، و: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾(٤)، ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾(٥)، ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾(٦).

إنّ الإنسان الذي يروم الفضائل الأخلاقيّة تكون ردّة فعله متوازنة إزاء ما يحصل في العلاقات الاجتماعيّة، ويكون توتّره أقلّ، ويواجه المشاكل الحياتيّة بروح متفهّمه، وتخلو نفسه من البغضاء والعداوة، ممّا يجعل تواصله ـ في النهاية ـ مع

---

(١) الفتح: آية٤.

(٢) التوبة: آية٤٠.

(٣) التوبة: آية٣٦.

(٤) البقرة: آية١٥٣.

(٥) العنكبوت: آية٦٩.

(٦) الأنفال: آية١٩.

الآخرين خالياً من القلق والتوتّر، كما أنّه سوف يحظى بدعمهم ومساندتهم له عند لزوم الحاجة والضرورة.

الخصوصيّة الثانية: النجاح

الإنسان الناجح هو مَن يكون احتمال بلوغه إلى أهدافه ومقاصده أكثر من الآخرين، كما أنّه لا شكّ بأنّ التزيّن بالأخلاق يصنع قُدرات وطاقات لدى الإنسان، تتيح له فرص النجاح أكثر، وتمنحه ثقة أكبر لبلوغ الأهداف والمقاصد التي يرمي إليها، ولا شكّ أيضاً بأنّ الأُصول والقواعد الأخلاقيّة تؤدّي إلى سيطرة الفرد على النفس، وتكون سبباً لاحتواء الرغبات المختلفة وتقنينها، ومَن يعجز عن ضبط نزعاته وميوله الباطنيّة لا يستطيع إدارتها بالشكل اللّائق والصحيح، وسوف يفشل في مواصلة طريقه الطويل لبلوغ الأهداف المقصودة، ولا يصمد أمام الصعاب التي تواجهه في هذه المسيرة، بل سيقف في نصف الطريق، وربّما يضلّ الطريق أحياناً. فإنّ النظم والانضباط في العمل والاستقامة والصبر والهمّة العالية والشجاعة ونحو ذلك، تُعدّ من العوامل البارزة في النجاح.

لقد أجرى الباحثون في مجال الذكاء العاطفي اختباراً، أظهر وبشكل جيّد العلاقة بين الأخلاق والنجاح، فقد وضعوا مجموعة من الأطفال ذوي الأربع سنوات أمام خيارين، وهما: تناول قطعة من الحلوى في الحال، وتناول قطعتين منهما بعد عشرين دقيقة، فكان الأطفال الذين صبروا لكي يحصلوا بعد عشرين دقيقة على قطعتين من الحلوى ـ في السنوات القادمة ـ أكثر كفاءة من الآخرين، وامتازوا بقدرة أكبر على إثبات وجودهم، وإمكانيّة مقاومة مشاكل الحياة وعُقدها. وكان احتمال انهيار هؤلاء وعجزهم عن مزاولة أعمالهم وتراجعهم وتذمّرهم بسبب ضغوط الحياة وفقدانهم التوازن أقلّ بكثير من المجموعة الأُولى. إنّهم وبدلاً من أن ينأوا بأنفسهم عند مواجهة المشاكل فقد كانوا يواجهون تحدّياتها، ولا يتوقّفون عن المواجهة رغم احتمال الخطر. فقد كانوا يتّكلون على أنفسهم باستحكام، ويرون أنّها

أهلاً للوثوق والاعتماد، ورغم مرور أكثر من عشر سنوات على ذلك الاختبار فلا يزال بإمكانهم تأجيل مُتَعهم في سبيل بلوغ أهدافهم المنشودة(١).

ثم إنّ احتمال الحصول على الأهداف يرتبط في مواطن عديدة بالثقل الاجتماعي وطبيعة العلاقة مع الناس، فمَن يتّصف ببعض النعوت الأخلاقيّة: كالهدوء والسكينة والاحترام والرحمة والشفقة والأمانة والمحبّة، فإنّه يستطيع في الغالب أن يحقّق أهدافه ومقاصده أكثر من الآخرين.

ومن جهة أُخرى، فإنّ الإنسان المؤمن عندما يكون بصدد أداء الواجب، لا يصاب أبداً في مواصلة هذا الطريق بخيبة أمل أو إحباط؛ ذلك لأنّ ما يهمّه هو تحقيق رضا الباري تعالى وتطبيق أوامره، وحتى لو لم يبلغ هدفه ومقصده فليس الأمر بالنسبة إليه نهاية الطريق، ولا يعني ذلك أبداً تحقّق أيّ خسارة لديه؛ وذلك لأنّه ينظر بعين الله، ويرى أنّ عمله في سبيل الله.

الخصوصيّة الثالثة: التفاؤل والابتعاد عن اللاجدوى

من القضايا المهمّة فيما يتعلّق بدور الأخلاق الأساسي في إنعاش الحياة وسعادتها هي أن نُدرك أنّ الحياة من دونِ قيَم فطريّة وأُصول وجدانيّة هي حياة فارغة من المعنى.

فحينما لا يُدرك الإنسان الغاية السامية، ويتلاشى الهدف المعنوي من حياته في العمل (وليس في مجال الاعتقاد والمعرفة)، ولا يتّصف سلوكه وعمله بأيّ جانب تجريدي معنوي سواء كان عقليّاً أم نفسيّاً، ويكون همّه وتفكيره في النزعة الحيوانيّة والشهوة فقط، فسوف ينتهي به الأمر إلى الماديّة الأخلاقيّة، ومن النتائج الخطيرة

(١) أُنظر: جولمان، دانيال، هوش هيجاني (=الذكاء العاطفي): ص١٢١ ـ ١٢٣.

للاعتقاد بهذه الماديّة هو العدميّة وسقوط كلّ القيم. فإنّ الناس الذين يعيشون في المجتمعات الحرّة ويتخلّون عن الارتباط بالمعايير والقِيَم الأخلاقيّة، ويلهثون خلف المُتع الجسديّة، نرى أنّهم بعد الفراغ من تلك اللذائذ والشهوات يشعرون بالسأم والملل والحزن، ويتعرّضون على مستوى حياتهم إمّا إلى الإدمان أو إلى الكآبة والحزن المزمن أو ينتهي بهم الأمر إلى الانتحار؛ ومن هنا فهم محطّمون من الداخل، ويشعرون بالإحباط والانهزام العميق، ويرون الحياة بلا معنى ولا جدوى، لا سيّما وهم يشاهدون ظواهر الموت والأمراض المعضلة والبلايا والمصائب المختلفة، فيعدّون مضيّ العمر والتزاوج والتكاثر أموراً عبثيّة مفرّغة عن كلّ معنى.

إنّ التشاؤم يؤدّي بحياة الإنسان في الغالب إلى الكثير من الأمراض النفسيّة والاضطرابات في الشخصيّة؛ وهنا يكتب عالم النفس المشهور في القرن العشرين كارل جوستاف جونغ: إنّ ثلثي المرضى الذين يعودونني كانوا من الأفراد المتعلّمين المصابين بآفة اللاجدوى المعضلة، ويشعرون بعدم وجود أيّ معنى لهذه الحياة.

ويضاف إلى ما تقدّم ـ من أنّ التحلّل الخُلقي وعدم اهتمام الفرد بالضوابط الأخلاقيّة يؤدّي إلى التشاؤم والإحباط وانعدام معنى الحياة لديه ـ أن التحلّل الأخلاقي لدى من يُحيطون بالفرد من أهل وأقارب بوسعه أيضاً أن يُلحق الضرر الكبير به، ويُمكن استذكار نموذج الفيلسوف الألماني المشهور ارتور شوبنهاور في القرن التاسع عشر، إذ يُعدّ من أبرز الفلاسفة المتشائمين، بحيث يُنقل عنه أنّه كان ينظر إلى المرأة باحتقار، ولم يتزوّج حتّى آخر حياته؛ وذلك بسبب تعلّق أُمه برجلٍ غريب.

الخصوصيّة الرابعة: الابتهاج

الابتهاج والفرح هو حالة يشعر بها الإنسان عقب بلوغه ما يُريد، أو عندما يكون قريباً من نيل مراده. فمَن يفقد الأمل بالحصول على مقاصده ورغباته

وأهدافه سيستحوذ الحزن والبؤس على روحه وأعماقه، وأمّا مَن يصل إلى ما يُريد، ولا يعتريه الفشل سوف يكون مبتهجاً سعيداً.

إنّ التعاسة والهمّ يتأتّيان من عدم الوصول إلى الأهداف والطموحات، كما أنّ خيبة الأمل من بلوغ الأهداف والتمكّن من تحقيق البرامج المرسومة، وكذلك الشعور بالخوف والقلق وعدم الجدوى أو الشعور بفقدان الدعم والتأييد والعون والعزلة والانزواء، يُبدّد الفرح ويطرد السرور. وفي المقابل فإنّ الإحساس بالهويّة والحضور والمشاركة والكرامة والتسامي والتطوّر أو الإحساس بالمقبوليّة والإقناع والتميّز والتفرّد والاحترام يؤدّي إلى السعادة والنجاح.

إنّ الأخلاق تكون سبباً في تفتّح الطاقات الكامنة في أعماق الإنسان وازدهارها، وتُخلّصه من التقيّد والانشداد للأشياء، وتُبعد عنه القلق والاضطراب. والإنسان الأخلاقي ليس طمّاعاً ولا صاحب آمال عريضة، وهذا ينفعه كثيراً في إزاحة الكثير من دواعي الحزن والبؤس والقلق، وأمّا مَن هو غريب عن القِيَم الأخلاقيّة، فسوف تزداد توقّعاته يوماً بعد يوم وساعةً بعد ساعة، الأمر الذي يجلب له الغمّ والعناء عندما يفشل في تحقيقها.

إلى جانب ذلك، فإنّ معرفة الله وعشقه كامنان في طبيعة الإنسان وفطرته، وهو ـ سواء علم أو لم يعلم ـ سوف يظلّ يتحرّى عن مفقوده الأزلي في أشدّ درجات وجوده عمقاً، وعند الظفر بضالّته وحضورها عنده سيشعل شرارة السرور والفرح في نفسه (يا سرور العارفين)(١)، وهنا لا يُمكن تجاهل دور جهاد النفس، فإنّ الانتصار في هذا الجهاد يوصل النفس إلى السعادة والبهجة الغامرة، ويغرس فيها النشاط والحيويّة.

---

(١) العاملي الكفعمي، إبراهيم بن علي، المصباح: ص٢٥٣.

من جهة أُخرى، فإنّ الإنسان موجود اجتماعي لديه رغبة شديدة في التواصل مع الآخرين، وحيث إنّ الأخلاق تنظّم العلاقة مع الآخرين، فهي تؤدّي هذا الغرض، وتوفّر هذه الرغبة، فإنّ المرء عندما يلقى من الآخرين المحبّة والاحترام، فإنّ ذلك يشعره بأكثر اللّحظات سعادة. إنّ الكثير من أُمنيات الإنسان وأغراضه المادّية ناشئة من رغبته في أن يكون محطّ اهتمام الآخرين واحترامهم، في حين يُمكنه بلوغ كلّ ذلك من خلال الأخلاق الحميدة من دون إثارة الحسرة والحسد لدى أصحاب النظرات الضيّقة.

الخصوصية الخامسة: الجمال

الجمال هو انعكاس للتناسب والتناسق في روح الإنسان، وهو بدوره ينقسم إلى الجمال المادّي والمعنوي، أو المحسوس والمعقول، إضافة إلى ذلك فإنّ الإنسان إلى جانب ما يتمتّع به من جمال طبيعي وظاهري، فهو يمتاز بجمال الفكر وجمال الإرادة السبّاقة والمتدفّقة.

من جهة أُخرى، فإنّ التعلّق بِقيمَ الأخلاق الاجتماعيّة ومبادئها يُظهر جمال للروح وزينة للباطن، ويجمع أفراد البشر ـ بما هم أجزاء لجسد الإنسانيّة ـ في تناسق شامل تحت غطاء المشروع الإلهي، فيخلق بذلك جمالاً كبيراً وجلالاً عظيماً يعكسان صورة مشرقة من جمال الله تعالى ولطفه وحسن صنعه، تُلقي بظلالها على المجتمع الإنساني.

ولا شكّ فإنّ الجمال بأسره ـ بقسميه المادّي والمعنوي ـ إنّما يعكس صورة بديعة من الجمال غير المتناهي للباري تعالى وحُسنه وبهائه.

الخصوصية السادسة: اللذّة

اللذّة حالة إدراكيّة شعورية تحصل لدينا عندما نبلغ المقصود والمطلوب، وهي حالة ناجمة عن الاستجابة للرغبات والحاجات والاهتمام بها، ومن الواضح أنّ إبقاء

الحاجات والرغبات والأُمنيات دون استجابة وإشباع سيؤدّي إلى عذاب ومشقّة مستمرّة وضعف نفسي وعصبي دائم. هذا، وإنّ الأخلاق ـ التي هي مورد حديثنا في هذا الكتاب ـ تُصنّف الرغبات والحاجات إلى عدّة أصناف، وهي أيضاً تُقنّن الضرورات الواقعيّة وتهيّئ السبل الكفيلة والمناسبة لإشباعها.

ثمّ إنّ هذه الشهوات والميول وحتّى يتمّ إشباعها فإنّها سوف تبدأ بإيجاد الإحساس الضاغط علينا لطبيعة الحاجة إليها، ممّا يؤدّي إلى حصول المعاناة والأذى لدينا، ومن أجل التخلّص من ذلك والحصول على اللذّة سوف تنشأ فينا حركة نحو ما نرغب؛ لذلك نقول: إنّ المعاناة هي مقدّمة اللذّة، وإنّ طلب اللذائذ هو أيضاً لون من ألوان العذاب والمعاناة، فإنّ الإنسان لا يطلب اللذّة ما لم تكن لديه حاجة غير مُشبعة، وكلّما كان إحساسنا بالمعاناة أكثر والضغط النفسي علينا أكبر، كان اندفاعنا نحو إشباعها أشدّ، وكانت رغبتنا في استبدالها باللذّة أقوى(١).

لو علمتَ ما في ترك اللذّة من لذّة   فسوف لن تعدَّ شهوة النفس لذةً(٢)

من جهة أُخرى، فإنّ أساس الكثير من المعاناة والإرهاصات الروحيّة يجب البحث عنه في الرذائل الأخلاقيّة، مثال ذلك: الحاسد الذي يسجن نفسه في دائرة ضيّقة من الآمال والطموحات، حيث ورد عن الإمام عليعليه السلام: «**الحَسَدُ حَبْسُ الرُّوح**»، فإنّه من الواضح أنّ الفرد الذي يكون أسيراً سيُحرم من لذائذ وفرص لا نهاية لها. ثمّ إنّ المصدر الوحيد للكثير من الصفات الكريمة هو الفضائل والسمات الأخلاقيّة، فإنّ الإحساس بطعم العفو والتسامح لا يكون إلّا للإنسان النقي القلب ذي الروح الكريمة، وليس من نصيب الإنسان الحقود والناقم، وحقّاً كما

---

(١) أُنظر: الرازي، أبو بكر محمّد بن زكريا، (الطبّ الروحاني) رسائل فلسفيّة: ص٣٤.

(٢) اگر لذت ترک لذت بدانی   دگر شهوت نفس، لذت نخوانی

قيل: إنّ الصبر مفتاح الفرج وبوّابة النجاح، وبالتالي فمن الطبيعي أن لا يكون للإنسان الجزوع والمهزوم نصيبٌ من الكثير من لذائذ هذه النجاحات.

إنّ الأخلاق تُعلمنا أنّ اللذّة هي جائزة طبيعيّة تعقب العمل الصحيح؛ وعليه فلو كان إقدامنا على العمل كاملاً وصحيحاً ولم نلتفت إلى متعة العمل ولذّته، فإنّ اللذّة التي ستحصل عقب إنجاز ذلك العمل سوف تكون جزاءً جميلاً ولطيفاً وقريباً من القلب، وأمّا لو كان الإقدام على العمل بقصد الحصول على اللذّة، فإنّه سينتهي بنا الأمر إلى الإفراط والتفريط، ونفقد الاتّزان النفسي، وفي النهاية سيضعف الشعور بالجزاء (اللذّة) على اعتبار أنّ العمل لم يتمّ بشكل كامل وصحيح.

نحن نفتقر في كلّ شيء حتّى في أصل وجودنا إلى الخالق القادر؛ وذلك تبعاً للحاجة الموجودة عند كلّ المخلوقات، ومن هنا فكلّما كان ارتباطنا به أقرب وأكمل سنحصل على لذّة وسعادة أكثر. وبما أنّ الافتقار إليه تعالى الربّ الرحمن الرحيم غير منقطع بل هو افتقار أبدي، فسوف تكون ينابيع اللذّة المتواصلة والمذهلة ـ حين التعلّق به ـ وعشقه والتعرّف عليه في تدفّق ونبض دائمين، والأخلاق حيث إنّها تمنح الإنسان التعلّق بالله تعالى، فإنّها سوف تُعطيه كنوز السعادة.

الخصوصية السابعة: الإبداع

إنّ الكشف عن الحقائق الجديدة والقيام بالأعمال والتجارب الخلّاقة بحاجة إلى طاقة وقابليّة استثنائيّة، والتي تُعدّ الأخلاق مؤثّرة في إيجادها ونموّها.

إنّ تحرير الطاقة الإبداعيّة في النفس بحاجة إلى الاتّصاف بالسلامة الروحيّة والباطنيّة، والشخص الذي يسيطر على قواه النفسيّة يُمكنه التعرّف على الطاقات الإبداعيّة العظيمة فيها، ويستطيع أنّ يُديرها بشكل جيّد[١]. وفي المقابل، فإنّ الفساد

---

(١) وبالطبع، تجدر الإشارة هنا إلى أنّه في حال اتّصاف الفرد غير المهذّب ببعض المهارات الفكريّة ـ

الباطني والرذائل النفسيّة تقوم كلّ واحدة منها بنحو من الأنحاء بسلب السكينة والهدوء والدقّة والتركيز، هذه العناصر المهمّة التي يكون الإنسان بحاجة ماسّة إليها في نموّ الإبداع لديه.

إنّ الله تعالى هو الخلّاق والمبدِع المطلق، وبالتالي فإنّ كلّ مَن يدنو ويقترب منه أكثر سوف يكون اقتباسه وانتفاعه من هذه الصفة أكثر، ولا شكّ فإنّ القِيَم الأخلاقيّة تمنح الإنسان قدرة فائقة لكسب الإبداع، وأن يكون مظهراً يتجسّد فيه الإبداع والخُلق الربّاني.

وقد ورد في الحديث القُدسي: «**عَبدي أطعْني أجعَلكَ مِثْلِي**»(١)، وورد أيضاً: «**يا ابن آدم أنا أقول للشيء: كن، فيكون، أطعني فيما أمرتك، أجعلك تقول للشيء: كن، فيكون**»(٢).

إنّ الأخلاق في البعد الاجتماعي تربّي على العطف والحنان والمحبّة والرأفة، وتجعلنا نُدرك الأفكار والرؤى والسلوكيّات المختلفة لطوائف متنوّعة من الناس ونسجم معها، وتُمكّننا كذلك من النظر إلى الأُمور والقضايا من خلال رؤاهم وأفكارهم، فنحلّل ونفسّر الأُمور من خلال ذلك. وهذه المعطيات في ضوء البُعد الاجتماعي تؤدّي إلى سعة النظر واتّساع مديات الأُفق، ونموّ مهارة الفكر، وذلك عند النظر المتفاوت إلى الظواهر المتنوّعة، وبجملة واحدة: سوف يحصل لدينا استثمار للفكر المتنوّع، وهو ذلك الفكر الذي يُمكنه التخلّص من الطريقة الرتيبة، ويربّي على الخروج من النمطيّة والروتين المعتاد، واستخدام طرق وسُبل أُخرى للوصول إلى المقصد.

العمليّة المميّزة يحتمل أن تصدر منه بعض الاختراعات الشيطانيّة المضرّة.

(١) الحرّ العاملي، محمّد بن حسن، الجواهر السنيّة في الأحاديث القدسيّة: ص٧٠٩.

(٢) الديلمي، حسن بن محمّد، إرشاد القلوب: ج١، ص٧٥.

الخصوصية الثامنة: المحبّة لدى الآخرين

الإنسان كائن اجتماعي، يُسهم تواصله مع الناس ليس فقط في الحدّ من متطلّباته الماديّة الملموسة، بل ويلعب دوراً أساسيّاً في أبعاده الإنسانيّة وأعماق وجوده المعنوي بشكل يفوق حوائجه ورغباته الدنيويّة، وينتهي به إلى المحبّة والاحترام. فكلّ مَن يهتمّ في حياته غالباً بأن يكسب رضا الآخرين وحبّهم، فإنّنا نجد أنّ الإسلام قد شرعن هذه الرغبة وهذا الاهتمام، وأبدى عناية خاصّة بذلك، حيث ورد بهذا الصدد: «**اَللّـهُمَّ فَاجْعَلْ نَفْسي مُطْمَئِنَّةً بِقَدَرِكَ، راضِيَةً بِقَضائِكَ، مُولَعَةً بِذِكْرِكَ وَدُعائِكَ، مُحِبَّةً لِصَفْوَةِ أوليائِكَ، مَحْبُوبَةً في أرْضِكَ وَسَمائِكَ**»(١).

إنّ المصدر الرئيس للمحبوبيّة يقوم على أساس العلاقة مع الله سبحانه، فكلّ من كان قربه من خالق المحبّة أكثر تجلّت الصفات الإلهيّة فيه بشكل أكبر، ومن البديهي فإنّ القلوب تنجذب إلى مَن اقتبس نوراً ربّانيّاً وصبغة إلهيّة، وصار ينتشر منه عطر الجنة، ويعكس صورة من جمالها على الأرض. أجل؛ يُبيّن الله تعالى أنّ اتّباع تعاليمه وأوامره ووصايا رسولهﷺ هو مفتاح المحبّة في قلوب الناس، فيُخاطب رسولهﷺ قائلاً: ﴿**قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾(٢).

مضافاً إلى هذا، فإنّ المؤمنين والمبادرين إلى عمل الصالحات هم محبوبون أيضاً، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾(٣).

إنّ الناس لا تُحبّ إطلاقاً الأنانيّين ولا المستغرقين في الشهوات والملذّات؛ لأنّ

---

(١) ابن طاووس، علي بن موسى، إقبال الأعمال: ص٤٧٠.

(٢) آل عمران: آية٣١.

(٣) مريم: آية٩٦.

الإنسان بطبعه عبدٌ للإحسان والجميل، ولا شكّ في أنّ حَسن الأخلاق وطيّب النفس والرؤوف الذي يحترق قلبه حبّاً وعطفاً على الآخرين، تنشرح له صدورهم ويدخل قلوبهم، بل ويتربّع على عرشها.

الخصوصيّة التاسعة: القدرة

إنّ المرء الذي يمارس صناعة ذاته أخلاقيّاً ويعكف على مجاهدة نفسه ويخلّصها من الرذائل الأخلاقيّة، فمحاولته هذه في الواقع هي عبارة عن إصلاح نقاط الضعف في باطنه واحدة تلو الأُخرى، وبذلك يحصل على الانضباط الروحي والصلابة في الشخصيّة؛ ومن جهة أُخرى فإنّ الأخلاق الإسلاميّة حيث إنّها تقوم بإصلاح وترميم العلاقة بين الإنسان وخالقه العظيم، فإنّ المرء سيقترب من القوّة العظمى التي لا تقهر، وسينتصر من دون شكٍّ على نفسه الأمّارة، قال تعالى: ﴿... وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ﴾(١). ثمّ إنّه وبسب هذا الاقتراب والدنو والاستعانة يستحوذ المرء على القدرة الكافية من أجل الحصول على الأهداف اللّازمة، ليس هذا فحسب بل يكون كلّ العالم عبارة عن جنود مجنّدة مسخّرة لخدمته ومساعدته، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾(٢)؛ ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾(٣)؛ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا وَجُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا﴾(٤).

وبعبارة أُخرى: حينما يتطابق سلوك الفرد مع إرادة الباري تعالى، ستتجلّى فيه الإرادة الإلهيّة بشكل تدريجي، وهكذا سيتّصل بذلك الينبوع الذي لا ينضب.

---

(١) آل عمران: آية١٢٦.

(٢) الفتح: آية٤.

(٣) الصافات: آية١٧٣.

(٤) الأحزاب: آية٩.

إنّ الإنسان المؤمن فيه القابليّة والاستعداد الكبير لنيل العون والمدد الإلهي والقدرة غير المحدودة، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ﴾(١). ونقرأ في نفس السورة أيضاً: ﴿بَلَىٰٓۚ إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾(٢).

إنّ الكثير من القصص والحكايات القرآنيّة تبيّن هذه الرسالة بقوّة، مثال ذلك: ما استعرضه القرآن الكريم لذلك الشابّ المؤمن الذي كان ملتزماً بالأوامر الشرعيّة والتعاليم الربّانيّة، إلّا أنّه كان يمرّ بظروف صعبة ومحن كثيرة، بحيث إنّه كان مرعوباً وخائفاً، وفي النهاية ظلّ فقيراً وغريباً، ورغم كلّ ذلك فقد كان الإيمان بالله واليقين به يملأ قلبه، ويرجو رحمته وعفوه في كلّ آن، وحينما خرج من المدينة وهو خائف يترقّب استند إلى شجرة وناجى ربّه قائلاً: ﴿...رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾(٣)، وعقب هذه الكلمات حظي هذا الشابّ بالدعم والتأييد وتذلّلت بعد ساعة كلّ الصعاب والعُقد التي كانت تواجهه، وصارت بين يديه كلّ الإمكانيّات والقدرات، فحصل على طعام يأكله، وعلى مأوى يسكن فيه، وزوجة صالحة يعيش معها، وهدوء مستمرّ، وعمل مناسب وربح غير منقطع، والأهمّ من ذلك أنّه حظي بلقاء ربّه والمنعم عليه، ذلك الشابّ كان اسمه موسى عليه السلام، وهذه السنّة والقانون الربّاني الذي انتهى بتخليصه من كلّ المصائب والمحن والضنك في العيش يجري اليوم أيضاً، ولا شكّ في أنّ كلّ مؤمن يحذو حذو هذا النبي سيشمله ذلك أيضاً.

---

(١) آل عمران: آية ١٢٣ ـ ١٢٤.

(٢) آل عمران: آية ١٢٥.

(٣) القصص: آية ٢٤.

الأسئلة

١ ـ أرجو بيان معنى الاطمئنان الممدوح والاطمئنان المذموم، وكذلك شرح طبيعة العلاقة بالله التي توجب الهدوء والسكون والاطمئنان.

٢ـ كيف ترافق الأخلاق الاجتماعيّة البهجة والسرور والسعادة؟

٣ ـ أرجو شرح نظريّة الأخلاق المادّيّة، وكذلك بيان السبب في انتهائها إلى العبثيّة.

٤ ـ ماذا يعني الجمال بالنسبة للإنسان؟ وكيف يتحقّق جماله الأكمل والأفضل؟

٥ ـ بيّن العلاقة بين معرفة الذات والإبداع.

٦ ـ كيف تُؤدّي الأخلاق الإسلاميّة إلى تحصيل الفرد لمحبّة الناس؟

٧ ـ لماذا يكون الإفراط في الاستمتاع باللذائذ سبباً للتعب والمعاناة؟ ولِمَ تكون الأخلاق مدعاة للشعور المضاعف باللذّة؟

٨ ـ أرجو بيان دلائل تفوّق القِيَم الأخلاقيّة على العوامل المادّيّة في إيجاد السعادة والسرور.

٩ ـ كيف يُؤثّر اقتفاء مكارم الأخلاق في محبوبيّة الفرد؟

١٠ ـ ما هي العوامل الأخلاقيّة التي تكون سبباً لكسب العون الإلهي ومضاعفة القوّة؟ (من خلال ملاحظة ما جاء في الآية ١٢٥ من سورة آل عمران).

للبحث والتأمّل

١ـ من خلال ملاحظة الآية (١٢٥) من سورة آل عمران أرجو التحقُّق عن دور الأخلاق في نيل المسلمين واستحقاقهم للمدّ الإلهي الغيبي، وهل يُمكن لهذا العون والمدد أن يشملنا نحن أيضاً؟

٢ـ أرجو ذكر عشرة أشخاص من بين أصدقائك وأساتذتك وأقاربك، أو من

بين بعض الشخصيّات الوطنيّة أو العالميّة الذين ترى أنّهم يتمتّعون بمحبّة الناس لهم، واستعراض الأسباب التي أكسبتهم هذه المكانة، وبيان دور العوامل الأخلاقيّة في محبوبيّتهم.

٣ـ ما هو مستوى الهدوء والسكينة الذي تمنحه الأخلاق إذا جُرِّدت من الدين؟ وفيما لو اكتسب الفرد الأخلاق الإلهيّة والدينيّة، فما هو الاختلاف الكمّي والكيفي للاطمئنان هنا مقارنةً بالحالة السابقة؟

٤ ـ لو أردت اختيار شريكة الحياة فما هو نصيب كلٍّ من المعايير الأخلاقيّة والجمال الظاهري في اختيارك هذا؟

٥ ـ استعرض ما صنعت في أُسبوعك الماضي، ولاحظ ما هي الأعمال التي قمت بها والتي اضطرّتك إلى ممارسة شهوة عابرة كانت تتعارض مع أهدافك السامية؟

الفصل السادس

دور الأخلاق في تأسيس المجتمع النموذجي

الأهداف

بعد الانتهاء من هذا الدرس يُمكن للطلبة الأعزّاء أن:

١ ـ يتعرّفوا على مميّزات المجتمع الإنساني النموذجي.

٢ ـ يتعرّفوا على صورة واضحة وشفّافة للمجتمع والحضارة الأخلاقيّة ودور الأخلاق في تأسيس مثل هذا المجتمع.

٣ ـ يتعرّفوا على الأبعاد الأخلاقيّة لتحقّق الأمن الاجتماعي، ومحاربة الفقر، والرفاهية العادلة، والازدهار العلمي.

٤ ـ يتعرّفوا على المشاكل والعُقد الأخلاقيّة الفرديّة والاجتماعيّة التي تحول دون تنمية المعرفة والتكامل العلمي.

***

سنحاول في هذا الدرس تسليط الضوء على عناصر القوّة في المجتمع الأخلاقي النموذجي، ومن جهة أُخرى سنتعرّف على المزايا الخاصّة بالمجتمع الفاضل من خلال مقارنته بالمجتمع غير الأخلاقي، إلّا أنّنا وفي مطلع هذا الفصل سنتناول خريطة عامّة وصورة كلّية عن المجتمع النموذجي لنعي فيما بعد طبيعة الخصائص المتعلّقة بهذا المجتمع.

إنّ الدافع الذي يحرّك الإنسان أساساً نحو الحياة الاجتماعيّة وتأسيس مجتمعات متوافقة تُسهم في ازدهار الحياة العامّة، هو نيل المصالح والمنافع المترتّبة على الحياة الاجتماعية، حيث إنّ انزواء الإنسان وعيشه بعيداً عن المجتمع فيه مشقّة

وصعاب كثيرة؛ فقد أدرك الإنسان منذ آلاف السنين أنّ الله تعالى قد خلقه بنحو يتفاوت عن سائر المخلوقات، فهو من جهة لديه متطلّبات واحتياجات جمّة يعجز عن تلبية جميعها، ومن جهة أُخرى أيضاً أنّه يتمتّع باستعدادات ومزايا وقوى خاصّة تفوق ما يمتاز به نظيره من المخلوقات من مواهب فكريّة وثقافيّة وغيرها.

ومما لا شكّ فيه أنّ الاكتشاف الكبير الذي توصّل إليه أسلافنا هو إدراك (تقسيم العمل الجماعي)، فإنّ آباءنا توصّلوا من خلال التجربة إلى أنّه لو كان من المفترض أنّ يُتقن جميع الأفراد عملاً معيّناً، فإنّ إنتاج المجتمع وتطوّره سيكون أقلّ ممّا لو كان كلّ واحد منهم قد أتقن ما يلزم من مهارات وعلوم خاصّة بفنٍّ من الفنون أو اختصّ بعمل معيّن؛ لذلك تكوّنت المجتمعات الكبيرة وتطوّرت الأُمم والشعوب بشكل تدريجي، وتمخّض عنها أصناف الحِرَف والمِهَن، وصار أهلها يُبدعون فيها، ومن خلال التعاون والاستفادة من تجارب الآخرين ومهاراتهم، تمّ الوصول إلى خدمات أفضل وسلع وبضائع أجود بسهولة أكبر وبزمان أقلّ.

إنّ الإنسان في ظلّ المجتمع يسعى إلى تحقيق جملة من الأُمنيات والحاجات المفقودة، والتي يُمكن صياغتها والتعبير عنها بمحاور ثلاثة:

١ـ حياة يتدنّى فيها مستوى التهديدات والمخاطر.

٢ـ حياة يتوفّر فيها أكبر قدر من الاختيار والراحة والامتيازات.

٣ـ التعالي وبلوغ قدر أكبر من الازدهار الذاتي.

وكلّ واحد من هذه المحاور يتمخّض عنه جملة من المؤشّرات التي يُمكن أن يحظى بها المجتمع الإنساني النموذجي، فيترشّح عن المحور الأوّل مؤشران هما: الأمن الاجتماعي والتصالح والتضامن بين أفراد المجتمع، ومن المحور الثاني تتمخّض ثلاثة مؤشّرات هي: التحكّم بمصير الذات، والرفاهية النسبيّة والعادلة، بالإضافة إلى سلامة الإنسان والبيئة، ومن المحور الثالث ينبثق مؤشّران هما:

الازدهار العلمي والتنمية المعرفيّة وكذلك التسامي الروحي والتكامل المعنوي.

الآن سنصل إلى الدور الأساسي للمُعطى الأخلاقي في تأمين هذه المؤشّرات، ولكن بسبب طول هذه المباحث وتوسّعها وضيق المجال فإنّنا، سنختار تحليل وتفسير مؤشّر واحد من كلّ محور، ونترك بحث المؤشّرات الأربعة الأُخرى إلى أعزائنا الطلبة ليبحثوا عنها بشكل جماعي داخل الصفّ أو خارجه، وسوف نسلك في دراسة دور الأخلاق في تأمين المؤشّرات المذكورة منهجاً نقديّاً، نُشرِّح من خلاله جملة من العوامل التي تؤدّي إلى تلاشي كلّ واحد من هذه المؤشّرات واستبدالها بضدّها، وسنبيّن دور عدم الاكتراث بالقِيَم الأخلاقيّة في ظهور واستمرار هذه العلل والأمراض.

المؤشّر الأوّل: الأمن الاجتماعي

ينقسم الأمن الاجتماعي إلى ثلاثة فروع، وهي ما سنستعرّض إليها الآن تباعاً.

١ـ أمن الأرواح والأَنفس

إنّ صيانة الأرواح من الهلاك من الأولويّات الأساسيّة التي تلتزم بتأمينها كلّ المجتمعات بالنسبة إلى مواطنيها ورعاياها، وأمّا العوامل التي تُهدّد هذا الأمن فهي الصراعات والنزاعات، والانتقام والتشفّي والثارات، والتنافس الحادّ وغير الشريف، وتثبيط العمل والمغامرة. وعند بحثنا عن جذور هذه الظواهر فإنّنا نواجه العديد من القبائح الأخلاقيّة والآثار السيّئة: كالغضب والعنف والحقد والكراهيّة والانتقام والتعصّب والتزمّت والقسوة والحسد والافتراء والكلام البذيء وانتهاك حُرمات الغير، فنجد ـ مثلاً ـ أنّ الكثير من حوادث القتل المفاجئة تبدأ بكلمة سيّئة وتجاوز معيّن، ومن خلال العديد من حالات الانتقام والثأر بسبب الحقد التزمّت والتعصّب تُرتكب العديد من الجرائم، أو تقع تلك الأخطاء والتجاوزات عادة بسبب القسوة والكراهيّة الشديدة.

إنّ التراحم والإشفاق والعفو والسماحة وكبح جماح النفس وضبطها والصبر والتحمّل والابتعاد عن التعصّب والكراهيّة ومراعاة حُرمات الغير وحقوقه ومراعاة أدب الكلام والخصال الحميدة الأخرى من هذا القبيل، تُعدّ من أهمّ العناصر وأفضلها في مقام المحافظة على الحياة وصيانة النفس، وسيادة الأمن الاجتماعي لسائر أفراد المجتمع.

٢ـ الأمن المالي

يُعتبر الأمن الاقتصادي من الشرائط الأساسيّة لديمومة الحياة الاجتماعية واستمرارها وسلامة المجتمع وازدهاره، إلّا أنّ هناك جملة من الأخطار التي تُهدّد أمن معاش الناس ورخائهم، ويُمكن إيجازها بما يلي: السرقة، والرشوة، والاحتيال، والتزوير، والربا، وغسيل الأموال، والاحتكار، والتطفيف عند البيع، وغلاء الأسعار.

وحين دراسة الجذور الأخلاقيّة لهذه الظواهر نجد أنّها عبارة عن جملة من الأمراض الأخلاقيّة، من قبيل: الاكتراث بالمال وتقديسه، والحرص والطمع، وحبّ الدنيا، وغياب التقوى وعدم الورع عن محارم الله، وضعف التوكّل واليقين والجحد بنعم الله، والغرور، وعدم الإحساس بالمسؤوليّة إزاء الآخرين، وطول الأمل.

إنّ الإنسان المؤمن والرجل العصامي لا يستسلم إطلاقاً لحبّ المال والدنيا، فالكسبة والبائعون الذين يتّصفون بإيمان عميق وتوكّل متماسك، يعيشون دائماً أوقاتاً هادئة ومطمئنة، وهم يُدركون جيّداً أنّ الله الرحيم المدبّر سوف لا يخذلهم ولا يتجاهل حاجاتهم وأُمنياتهم، وحيث إنّهم يعتقدون بأمر معنوي، وهو أنّ الكسب والعمل الحلال ستحلّ فيه البركة والرزق، سوف لا يعمدون إلى رفع الأسعار أو التطفيف في الكيل عند البيع، ولا يحتكرون البضائع، وبما أنّهم يؤمنون بالواقع الباطني الخفي للنتائج المأساويّة لهذه الأعمال، وحقيقة أكل مال اليتيم، وأنّ مثل

هذا الشخص لا يأكل في بطنه سوى النار(١)، ويدركون أنّ آكل الربا محارب لله ورسوله(٢)، وأنّ دافع الرشوة وآخذها كلاهما ملعونان(٣).

إنّ الإنسان الذي اقتنع من أعماق نفسه بتحذير القرآن وإنذاره اللذين ينصّان على أنّ جمع الأموال وتكثيرها لا يُطيل في العمر، ولا يُخلّد الإنسان في الدنيا(٤)، فإنّ من مواطن الامتحان والاختبار وسنن الابتلاء أساساً هو المال والملك(٥)، فإن الجَشِع والطمّاع الذي يقوم بتكديس وجمع الثروة حتّى لو كانت بسُبُل الحلال عندما لا يكون مستعدّاً إطلاقاً لمساعدة أهله وأقاربه وجيرانه، ولا يعين الفقراء، فإنّ مثل هذا الفرد لو رضي بذلك خرج عن ربقة المسلمين(٦).

٣ـ صيانة المكانة والخصوصيّة (أمن الحيثيّة)

تُعدّ المهارة والرياضة التي يختصّ بها الرياضي مكانة ومنزلة اجتماعيّة، ويعتبر الفنّ الذي يمتاز به الفنّان خصوصيّة له، وكذلك الحذاقة والخبرة التي يتحلّى بها الطبيب، والعفاف وحُسن التبعّل والإخلاص للمرأة. كلّ ذلك يُؤمّن الاعتبار

---

(١) قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا إِنَّمَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ نَارٗاۖ وَسَيَصۡلَوۡنَ سَعِيرٗا﴾. النساء: آية١٠.

(٢) قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ فَأۡذَنُواْ بِحَرۡبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَإِن تُبۡتُمۡ فَلَكُمۡ رُءُوسُ أَمۡوَٰلِكُمۡ لَا تَظۡلِمُونَ وَلَا تُظۡلَمُونَ ﴾. البقرة: آية ٢٧٨ ـ ٢٧٩.

(٣) فقد ورد أنّ: «الرَّاشِي والمُرْتَشِي والمَاشِي بَيْنَهُمَا مَلْعُونُونَ». الشعيري، محمّد بن محمّد، جامع الأخبار: ص١٥٦.

(٤) الهمزة: ﴿وَيۡلٞ لِّكُلِّ هُمَزَةٖ لُّمَزَةٍ ﴿١﴾ ٱلَّذِي جَمَعَ مَالٗا وَعَدَّدَهُۥ ﴿٢﴾ يَحۡسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخۡلَدَهُۥ﴾. الآيات١ ـ ٣.

(٥) قال تعالى: ﴿ إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ﴾. التغابن: آية١٥.

(٦) عن أبي عبد الله عليه السلام أنّه قال: «مَنْ لَمْ يَهْتَمَّ بِأُمُورِ المُسْلِمِينَ فَلَيْسَ بِمُسْلِمٍ». الكليني، محمّد بن يعقوب، الكافي: ج ٢، ص١٦٤.

والمكانة التي يمتاز بها كلّ واحد من هؤلاء، مضافاً إلى ذلك فهناك دعم واعتبار عام وواسع يحتاج إليه الجميع، وهو مدى الوجاهة والثّقة اللتين يتحلّى بهما الشخص، وهو ما نُطلق عليه في العرف: ماء الوجه والحيثيّة، وبهذا البيان فمن البديهي أن تحظى صيانة كرامة كلّ واحد من أعضاء المجتمع وحفظ ماء وجهه بدرجة كبيرة من الأهميّة؛ وذلك من أجل ديمومة الحياة الاجتماعيّة واستقرارها، حتّى قال عن ذلك الإمام علي عليه السلام: «**إنّ أفضَل الِفعالِ صِيانَةُ العِرض بِالمالِ**»(١).

وعن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله: «**مَن رَدَّ عَن عِرضِ أخيهِ الُمسلِمِ كُتبَ من أهلِ الجَنَّةُ اَلبَتَّةَ**»(٢).

إنّ العلل والأمراض التي تُهدّد الثقة وتشيع الريبة والشكّ بين أفراد المجتمع، وتُعدّ خطراً على كرامة أفراد المجتمع وصنوفه وطبقاته المختلفة، يُمكن إيجازها بما يلي: الافتراء، والوشاية، والبهتان، والكذب، والتجسّس، وهتك خصوصيّة الآخرين وإفشاء أسرارهم، واختلاق الأخبار والأحاديث والقصص والحكايات والأحداث المفبركة والمبالغ فيها، والغلوّ والتعصّب، والحكم من دون دليل، ونشر الشائعات وبثّها.

وكلّ واحدة من هذه العُقد والمشاكل الاجتماعيّة هي في أحسن الفروض من إفرازات الشخصيّة المريضة، وفي هذه الحالة سيُبتلى الفرد بأنانيّة وعدوانيّة وسوء الظنّ والشعور الكاذب بالمؤامرة؛ ولذا يحاول من أجل تلافي عُقدة النقص التي أُصيب بها اقتفاءَ جملة من الحلول والمعالجات. سيكون دور الاختيار والإرادة الحرّة للفرد في مثل هذه السلوكيّات ضئيلاً جدّاً، بل قد تتحوّل هذه الرذائل في بعض الحالات الأكثر إثارة للقلق إلى طبع اختياري مذموم، أو إلى عادات مكتسبة تكون

---

(١) المصدر السابق: ج ٤، ص٤٩.

(٢) الطوسي، محمّد بن الحسن، الأمالي: ص٢٣٣.

أكثر قبحاً؛ كالحسد، والحقد، والكراهيّة، والغضب، والتسلّط، وحبّ الجاه، والغرور والأنانيّة، والحرص والطمع، وحبّ للمال.

قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**وما وقيتم به أعراضكم وصنتموها عن ألسنة كلاب الناس، كالشعراء الوقّاعين في الأعراض تكفونهم، فهو محسوب لكم في الصدقات**»(١).

ونقرأ في رواية أُخرى ما يلي: «**سُباب المؤمن فسق، وقتاله كفر، وأكل لحمه من معصية الله، وحرمة ماله كحرمة دمه**»(٢). وهذا النص واضح في اعتبار هيبة المؤمن وكرامته وماء وجهه كحرمة دمه وقتله، التي قال تعالى بشأنها: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾(٣).

المؤشّر الثاني: محاربة الفقر وإشاعة الرفاهية العادلة

من الأهداف التي يطمح إليها الإنسان من وراء تشكيل الاجتماع والمشاركة في الحياة الاجتماعيّة هو الحصول على استمتاعات ومصالح ومزايا أكثر، ومن جهة أُخرى إنّ المناط في تفاضل المجتمعات الإنسانيّة هو إتاحة الفرص للاستمتاع والاستفادة بأكبر قدر من الرفاهية والراحة والمنافع الماديّة لسائر أفرادها؛ ومن هنا فكلّما قلّ هذا الاستمتاع والتنعّم وكانت حصّة المواطنين من الخدمات والرفاهية أقلّ، وكان الفقر أكثر وشيوعه أكبر، سيفقد المجتمع الإنساني شيئاً فشيئاً فلسفة وجوده والغرض من كينونته، وستضمحل صورة المجتمع النموذجي في ظلّ اليأس وفقدان الأمل.

---

(١) التفسير المنسوب للإمام العسكري عليه السلام: ص٨٠.

(٢) الكليني، محمّد بن يعقوب، الكافي: ج٢، ص٣٥٩.

(٣) المائدة: آية٣٢.

إنّ أساس الرفاهية والتمتّع المعقول الذي يرافق التوسّع والزيادة ما دام يصبّ في صالح الحياة الطيّبة للإنسان فإنّه يحظى باعتبار الإسلام له كقيمة، حتّى إنّ القرآن الكريم قد آخذ الذين يحرّمون الانتفاع من خيرات الحياة وزينتها[١]، كما نجد أنّ الإمام السجادعليه السلام يقول في هذا السياق: «**مِنْ أخلاق المُؤمِنِ: الإنْفاقُ عَلى قَدْرِ الإقْتـارِ، وَالتَوَسُّعُ عَلى قَدِرْ التَوَسُّعَ**»[٢]، ونقرأ عنهعليه السلام أيضاً: «**أرضاكم عند الله أسبغكم على عياله**»[٣]. وعلى الصعيد الحكومي يعتبر السعي في التطوّر والنموّ الاقتصادي أحد وظائف الدولة الإسلاميّة الرئيسة؛ لأنّ القوّة الاقتصاديّة في العصر الراهن والظروف الدوليّة الحاليّة من أهمّ عناصر تأمين الاقتدار السياسي؛ ومن هنا فإنّ الاجتهاد وبذل الوسع في سبيل الحصول على القدرة السياسيّة هو لازم للعمل بقاعدة نفي السبيل[٤].

والآن نصل إلى بيان المشاكل الأخلاقيّة المتعلّقة بهذا المؤشّر، ونتناول الجذور الأخلاقيّة لحرمان الشعوب والأُمم من الرفاهية العادلة، فنقول: إنّ عدم بلوغ التنمية العادلة والرفاه المادّي يتجلّى في ثلاث صور:

١ـ عدم إنتاج الثروة في المجتمع.

٢ـ عدم استثمار الثروة المتوفّرة، الأمر الذي سيؤدّي إلى تلاشيها واضمحلالها.

٣ـ عدم التوزيع العادل للثروة والفرص.

---

(١) قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾. الأعراف: آية٣٢.

(٢) الكليني، محمّد بن يعقوب، الكافي: ج ٢، ص٢٤١.

(٣) المجلسي، محمّد باقر، بحار الأنوار: ج ١٠٣، ص٢٧٩.

(٤) قال تعالى: ﴿...وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾. النساء: آية١٤١.

إنّ بعض الجذور الأخلاقيّة والتربويّة للصورة الأُولى، وهي الإحجام عن إنتاج الثروة في المجتمع على النحو التالي:

١ ـ عدم توفّر الرؤية الأخلاقيّة الصحيحة

إنّ الفهم الخاطئ لبعض التعاليم الأخلاقيّة على طول التاريخ هو أحد عوامل جمود النشاطات الإنتاجيّة وركودها، وضعف الحركة الاقتصاديّة، فأحياناً يهمل البعض العمل والنشاط وحركة الإنتاج بسبب الفهم غير الصحيح لمفهوم الزهد(١). كما يلازم البعض بيوتهم، ويلقون مسؤولية توفير لقمة العيش لهم ولعوائلهم على كاهل الآخرين، اعتماداً على الفهم السقيم لمبدأ (التوكّل)، والذي لا يدعو إلّا إلى الكدح والأمل.

٢ ـ الكسل والجزع

تجد أنّ بعض الأُمم والشعوب لا تصمد كثيراً أمام الصعاب والمشاكل الحياتيّة، في حين تواجه شعوبٌ أُخرى الشدائد والعقبات والمآزق بجَلد وثبات وبروح متفائلة لتذلّل تلك الصعاب، فيتحَلّون بالصبر والثبات، وكأنّهم اعتادوا على العمل الكثير، فإنّ التبرّم والضجر والاستسلام للصعاب سيحوّل الإنسان بالطبع إلى كائن بليد متقاعس. يقول الإمام الكاظم عليه السلام: «**إيّاكَ وَالكَسَلَ وَالضَّجَرَ؛ فَإنَّهُما يمْنَعَانِكَ مِنْ حَظِّكَ مِنَ الدُّنْيا وَالآخرة**»(٢)، وجاء في رواية أُخرى: «**اَلكادُّ عَلَى عِيالِهِ كَالمُجاهِدِ في سَبيلِ الله**»(٣).

---

(١) نقرأ فيما كتبه بعض العلماء الكبار أنّ البيان الدقيق لمفردة الزهد هو قوله تعالى: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾. الحديد: آية ٢٣.

(٢) المجلسي، محمّد باقر، بحار الأنوار: ج٦٦، ص٣٩٥.

(٣) الكليني، محمّد بن يعقوب، الكافي: ج٥، ص٨٨.

٣ ـ سوء التدبير

إحدى أساسيّات الحياة هو التدبير في الاستجابة لمتطلّبات الحياة الآنيّة والمستقبليّة، ويطلق عليه على مستوى الحياة الفرديّة للإنسان (العقل المعاشي)، وعلى صعيد حياة المجتمع العامّة يدعى عادة بـ (التخطيط)، ولا شكّ فإنّ حُسن التدبير والقدرة على الإدارة تُعدّ من الفضائل الأخلاقيّة، سواء على الصعيد الفردي أم الاجتماعي، وكلّ مجتمع لا يسعى إلى إعداد النُّخب والمتخصّصين والإفادة منهم، ولا يفكّر عبر التخطيط الدقيق بالتمهيد لإدارة أموره، فإنّه سوف لا يستطيع إطلاقاً تخليص شعبه وأُمّته من قبضة الفقر والقحط، ولا يُمكنه إتاحة سُبل الرفاهية والراحة لهم، وقد نُقل عن الإمام علي عليه السلام قولين بليغين عن أهميّة التدبير: «**حُسنُ التَّدبيرِ يُنمِي قَلِيلَ المَالِ، وَسُوءُ التَّدبِيرِ يُفنِي كَثِيرَهُ**»(١)، و«**مَن ساءَ تَدبيرُهُ تَعَجَّلَ تَدمِيرُهُ**»(٢).

وأمّا فيما يتعلّق بالصورة الثانية لانعدام التنمية العادلة والرفاه المادّي، والتي هي فقدان الثروة والسلع الإنتاجيّة، فيُمكن أن نتناولها على نحوٍ مختصر بمشكلتين أخلاقيّتين، وهما على النحو التالي:

١ ـ الإسراف والتبذير

يُعدّ الاستهلاك أكثر من الحاجة والضرورة والاستخدام غير الصحيح أكبر آفة للثروتين الفرديّة والاجتماعيّة. قال الله تعالى في كتابة العزيز: ﴿**يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ**﴾(٣).

---

(١) التميمي الآمدي، عبد الواحد، تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ص٣٥٤، ح٨٠٨١.

(٢) المصدر السابق: ح٨٠٩١.

(٣) الأعراف: آية٣١.

وفي حديث للإمام الصادقعليه السلام قال فيه: «**إنَّ مَعَ الإسرافِ قِلَّةَ البَرَكَةِ**»(١).

وفي رواية عن الإمام الكاظمعليه السلام أنّه قال: «**مَنِ اقْتَصَدَ وَقَنِعَ بَقِيتْ عَلَيهِ النِّعْمَةُ، وَمَنْ بَذَّرَ وَأَسْرَفَ زَالَتْ عَنْهُ النِّعْمَةُ**»(٢).

٢ ـ انتشار المعاصي والفساد

من القوانين التي تتحكّم في نظام الرزق هو أنّ تقوى الله تجلب النعم، وأنّ تركها يساوي الحرمان والفقر. قال تعالى: ﴿... وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُ ...﴾(٣).

وقال سبحانه أيضاً: ﴿وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذۡنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾(٤).

وفي هذا السياق يقول الرسول الأكرم محمدصلى الله عليه وآله: «**إن الله تبارك وَتَعَالَى إذا أَرَادَ بِقوم بَقَاء أو نَمَاء رزقهم القَصْد والعفاف**»(٥).

وعن الإمام الصادقعليه السلام أنّه قال: «**ما أنعَمَ الله على عبدٍ نِعمَةً فَسَلَبَها إيّاهُ حتّى يُذنِبَ ذَنباً يَستَحِقُّ بذلكَ السَّلبَ**»(٦).

وأمّا الصورة الثالثة وهي غياب العدالة في توزيع الثروة فهناك الكثير من الحديث حولها؛ إذ يحدّثنا التاريخ عن الكثير من المجتمعات والأُمم التي وعلى الرغم من امتلاكها للمواهب والطاقات والقدرات والثروة الهائلة، إلّا أنّ الكثير

---

(١) الكليني، محمّد بن يعقوب، الكافي: ج٤، ص٥٥.

(٢) المجلسي، محمّد باقر، بحار الأنوار: ج ٧٥، ص٣٢٦.

(٣) الطلاق: آية٢ ـ ٣.

(٤) الأعراف: آية٩٦.

(٥) السيوطي، عبد الرحمن، الدّر المنثور في التفسير بالمأثور: ج ٣، ص٢٧٠.

(٦) المجلسي، محمّد باقر، بحار الأنوار: ج٧٠، ص٣٣٩.

من أفرادها يعيش الفقر والحرمان. أجل فإنّ العناء الكثير والألم والمعاناة والحسرة التي تطال الجماهير المعدمة والضعيفة، يتأتّى من خلال الخصال الأخلاقيّة السيّئة والصفات الحيوانيّة، لا سيّما الأنانيّة المجنونة(١) التي تؤديّ أحياناً إلى هوس الطمع وهستيريا التعلّق بالمال، وفي أحيان أُخرى إلى عبادة الجاه والمقام، وكلا الحالتين سيؤدّيان بنا إلى الظلم وتلاشي العدل والإنصاف، ففي الصورة الأُولى: (الطمع وعبادة المال) يضطّر الفرد الطمّاع إلى إرضاء شهوته في حبّ التكاثر إلى الحدّ الذي يؤدّي به إلى حرمان الآخرين وظلمهم. وفي الصورة الثانية فإن التعلّق بالمنصب والجاه سينتهي بالإنسان أيضاً إلى ظلم الناس والإجحاف بحقّهم، فإنّ الفرد المستبدّ لا غنى له عن المال كي يتسنّى له استئجار بعض ضعاف النفوس وتخويف الآخرين أو التغرير بهم في سبيل وصوله إلى السلطة، وكذلك في حفظ سلطته وتدعيمها.

قال الإمام الصادق عليه السلام: «**اِنَّ مِن فَناءِ الإسلام وَفَناءِ المُسلِمينَ أن تَصيرَ الأموالُ في أيدي مَن لا يَعرِفُ فيها الحَقَّ، ولا يَصنَعُ فيها المَعروفَ**»(٢).

كذلك يعتبر الإمام الكاظم عليه السلام أنّ مصدر الفقر والحرمان الأساسي الذي يطال جمهور المستضعفين هو الظلم، حيث يقول: «**لو عُدل في الناس لاستغنوا**»(٣).

المؤشّر الثالث: التنمية المعرفيّة والازدهار العلمي

من أجل إيصال المجتمع إلى التقدّم والتطوّر والحيويّة والنشاط والنزاهة والأمن والاستقرار ونحوها من الأمور التي ترفع مستوى الأمل بالمستقبل، نحن

---

(١) إنّ التحزّب والقَبَليّة والقوميّة والمناطقيّة والفئويّة ونظائرها تُعدّ جميعها من مصاديق الغرور والأنانيّة؛ إذ سنكون حال المواجهة مع هذه الموارد ـ بلا شكّ ـ أمام الـ(أنا) المتضخّمة للأفراد.

(٢) الكليني، محمّد بن يعقوب، الكافي: ج٤، ص٣٢.

(٣) المصدر السابق: ج١، ص٥٤١.

بحاجة إلى عنصر أساسي غاية في الأهميّة ألا وهو العلم والمعرفة، فإنّ المجتمع الذي يخلو من العلم والوعي سيكون فقيراً، مهما توفّرت لديه إمكانات قويّة وقدرات أُخرى خارقة، فلا شكّ في أنّ أعظم ثروة هي ثروة العلم وأفضل قوّة هي قوّة الوعي والمعرفة؛ إذ إنّ هناك علاقة وثيقة بين التطوّر المادّي والتسامي المعنوي، وبين التنمية المعرفيّة والازدهار العلمي، كما ورد في الأحاديث والروايات الشريفة أنّ العلم والمعرفة هما منشأ الخيرات والنعم.

هذا، وأنّ السؤال الذي يُطرح هنا هو: ما هي العقبات التي تقف بوجه المجتمع وتحول دون تطوّره معرفيّاً وازدهاره علميّاً؟ ويبدو أنّه بعد العامل التاريخي والاقتصادي والسياسي ليس هناك أهمّ من العنصر والعامل البشري كمؤثّر رئيس وغني في هذا المضمار.

إنّ الازدهار العلمي متوقّف على مستوى استخدام أفراد المجتمع وانتفاعهم من التخصّصات العلميّة، فإنّ المواطنين الذين حظوا بتعليم ممتاز سيؤسّسون ـ برفقة أقرانهم من أفراد الأُمة ـ مجتمعاً علميّاً يرتكز على العلم، ويأخذون بركب المجتمع إلى مراكز متقدّمة من الازدهار العلمي والفنّي، إلّا أنّ هناك نقطة هامّة، وهي أنّ بلوغ قمّة العلم والمعرفة وولوج محيط العلماء والحكماء يلزمه متطلّبات أساسيّة، وأهمّ هذه المتطلّبات هي الجدارة واللياقة الأخلاقيّة، ولا شكّ في أنّ مجتمعاً أخلاقيّاً مع مواطنين متخلّقين يُمكن أن يوجد أُناساً قادرين وفاعلين في ميدان العلم، ومن خلال إرادة هؤلاء وعزمهم سوف يتحقّق الازدهار العلمي والتنمية المعرفيّة[١].

(١) وقد يأتي في أذهان البعض هنا سؤال، هو: في ضوء ما ذُكر فهل أنّ الغرب في الوقت الراهن ـ بما بلغه من مستوى رفيع في انتاج العلم ـ يحظى بأفراد متخلّقين ومجتمعات أخلاقيّة؟

ومن خلال الدراسة الإجماليّة يُمكن اعتبار عشرة من الأمراض الأخلاقيّة التي تحول دون التنمية العلميّة، خمسة منها رذائل فرديّة، وخمسة اجتماعيّة.

➲

وجواب ذلك: أوّلاً: في كلّ مجتمع هناك صنوف مختلفة وطبقات ثقافيّة متفاوتة، وفي المجتمع الغربي هناك طبقة محدودة من الباحثين والعلماء بلغوا مكانة عالية من العلم، وهم في الواقع الذين يبتكرون النظريّات والاختراعات، وذلك هو السبب الذي يعود إليه التطوّر العلمي هناك، أمّا بعد ذلك فيكون الدور لآليّات المجتمع الرأسمالي ـ الصناعي وأدواته لكي تحوّل العلم إلى صناعة وثروة من خلال تعبئة كلّ طاقات هذا المجتمع وإمكانيّاته. وفي الواقع فإنّ مقولة اقتصاد العلم في دراسات سياسة العلم والتكنولوجيا (STP) تنبثق من هنا. وعليه؛ لا ينبغي أن نقع في مغالطة الجزء والكلّ، فإنّ الإنجازات العلميّة والابتكارات الصناعيّة تصدر عن تلك الطبقة الظريفة والمحدودة من الناس في المجتمع الغربي، الذين يعملون ليل نهار بجدٍّ واجتهاد في سبيل حلّ المعضلات العلميّة والكشف عن المجهولات، وهم بعيدون عن الفساد والرذائل الأخلاقيّة.

وثانياً: علينا الالتفات جيّداً إلى عبارة: (التنمية العلميّة والتطوّر المعرفي) وأن لا نتعاطى معها بانتقائيّة أو نظرة ضيّقة، بيان ذلك: إنّ مفردة العلم كانت تعني قبل عصر (فرانسيس بيكون) و(نيوتن) الحكمة والتعقّل، ثمّ أُستخدمت بعد ذلك بمعنى القوّة والقدرة، فالمقصود من تطوّر المجتمع ونموه علميّاً واجتماعيّاً ليس التطوّر الصناعي والتكنولوجي فحسب، بل إنّ تسخير التقنيّة واستخدام التكنولوجيا هو أحد أشكال التنمية المعرفيّة لا أكثر. فعلى سبيل المثال كانت الحرب العالمية الثانية قد حصدت في غضون أربع سنين عشرين مليون ضحيّة، وعلى هذا الأساس هل يُمكن لأوربا الصناعيّة في مطلع القرن العشرين أن تدّعي أنّها أكثر علماً وتطوّراً منها في القرن السابع عشر؟ من هنا ينبغي ألّا نقع في شراك التحريف المفهومي لاصطلاح النموّ والتطوّر العلمي، فإنّ المجتمع العالِم هو الذي يعي جيّداً الهدف والغاية التي يسعى إليها من جهة، ويحدّد بشكلٍ دقيق السُّبل التي يُمكن أن يسلكها لبلوغ ذلك الهدف، ويُدرك بدقّة الضوابط التي يجب أن تتوفّر في مسيره نحو الهدف من جهة أخرى، وعليه من جهة ثالثة استعمال الأدوات العمليّة لبلوغ الهدف بشكل أكثر اطمئناناً وأسرع وصولاً.

عقبات التنمية العلميّة

١ ـ الرذائل الفرديّة

أ ـ الغرور العلمي: أحد الأمراض والآفات الفتّاكة في كلّ مجال هو حالة الاستغناء السلبي والمذموم الذي تُصاب به النفس البشريّة، وهي التي تجرّد الإنسان من الحماس والإقدام اللّازم للتعلّم أو كسب المهارات ومواصلة مشوار النجاح، فالغرور والأنانيّة العلميّة تعني اقتناع الفرد بعدم وجود أيّ نقص أو خلل في عمله ومجاله التخصّصي، ومثل هذا الشخص لا يرى نصفه الفارغ ونقاط ضعفه في ظرفه الوجودي؛ ولذا سيُحرم من شرب زلال العلم، وقد ورد عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام في كلماته القصار ما يلي: «**لا يَتَعَلّمُ مَنْ يَتَكَبّر**»[١].

وقد ورد في الشعر الفارسي ما ترجمته:

تعلّـم التواضـع إن كنـت طالبـاً للفائـدة   فإنّ الأرض المرتفعة لن ترتوي من الماء[٢]

ب ـ التبرّم والاستعجال: في الحياة هناك الكثير من المجالات والأمور لظرافتها أو لسعة مداها أو ندرتها أو بسبب التغييرات المتسارعة المحيطة بها أو بسبب ما يُحدِق بها من مخاطر أو لأهمّيّتها، لا تنبغي العجلة عند القيام بها والسأم والجزع حين المبادرة إلى فعلها. إنّ التسرّع ـ أساساً ـ يؤدّي إلى غياب الدقّة وعدم المبالاة، وهو يؤدّي إلى فشل العمل بأكمله أو بعضه على أقلّ تقدير، وفي هذا الصدد فإنّ التعلّم من المقولات الظريفة والواسعة والمعقّدة، وبالتالي فهو يحتاج إلى وقت أطول ومزاج أفضل. أشار أمير المؤمنين عليه السلام إلى هذا المعنى بقوله: «**لا يُحرز العلم إلّا مَن يُطيل درسه**»[٣].

---

(١) التميمي الآمدي، عبد الواحد، تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ص٦٥، ح٨٥٠.

(٢) افتــادگی آمــوز اگــر طالــب فيضــی   هرگــز نخــورد آب زمينــی كــه بلنــد اســت

(٣) المصدر السابق: ح ٢٧٥.

ج ـ التكاسل والتقاعس: إنّ السرّ الذي يكمن في عظمة العلماء والسالكين هو الجدّ والاجتهاد والسعي الحثيث، فقد جاء في كلام المعصوم عليه السلام: «**لا يُدرَكُ العِلمُ بِراحَةِ الجِسمِ**»(١).

وقال الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله: «**لا تشبعوا فيُطفأ نور المعرفة من قلوبكم**»(٢).

وجاء في الحديث القدسي: «**إنّي وَضَعْتُ العِلْمَ فِي الجُوعِ وَالغُربَةِ، وَالنَّاسُ يَطْلُبُونَهُ فِي الشِّبَعِ وَالوَطَنِ، فَلَم يَجِدُوهُ أبَداً**»(٣).

وببيان آخر: إنّ البحث عن الحقيقة الذي هو من الأُمور الفطريّة لدى الإنسان إنّما يتحقّق ويُثمر في ظلّ الجهد والسعي وبذل الوسع، وهو ما يُطلق عليه في أوساط الحوزة العلميّة بالاجتهاد.

د ـ الفوضى وعدم النظم: من أجل بلوغ عتبة العلم يجب تخطّي الطريق البعيد الذي لا يخلو من وعورة ولا من منعطفات صعبة، ولا يتسنّى ذلك إلّا في ظلّ خطّة شاملة ومدروسة وتطبيق خطواتها بدقّة. ففي طبيعة الإنسان هناك ميزة واحدة يمكنها أن توفّقه في بلوغ ما خطّط له، وهي: النظم والانضباط في العمل. وبناءً على ذلك؛ فقد أوصى الإمام علي عليه السلام أهله ومَن حوله في آخر لحظات حياته بأمرين؛ حيث قال: «**أُوصِيكُما وَجَمِيعَ وُلْدي (وَلَدِي) وَأَهْلِي وَمَنْ بَلَغَهُ كِتَابِي بِتَقْوَى اللهِ وَنَظْمِ أَمْرِكُمْ**»(٤).

---

(١) المصدر السابق: ص٤٤، ح١٠٤.

(٢) الطبرسي، حسن بن فضل، مكارم الأخلاق: ج ١، ص٣٢٠.

(٣) المشكيني، علي، المواعظ العدديّة: ص٢٤١.

(٤) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ج ١٧، ص٥.

وجاء في حديث الخضر عليه السلام لموسى بن عمران أنّه قال: «**تَفَرَّغْ لِلعِلمِ إن كُنتَ تُريدُهُ، فإنَّ العِلمَ لِمَن تَفَرَّغَ**»(١).

و ـ الشهوة واللذّة: أحد المتطلّبات النفسيّة المهّمة من أجل نجاح النشاط العلمي وكسب المعرفة هو التركيز الذهني والاطمئنان النفسي، فلا يُمكن التعلّم أو الإبداع والاكتشاف إطلاقاً بذهن وعقل مرتبك وبنفس منفعلة أو روح مضطربة، والإنسان الشهواني لا يُمكنه السيطرة على مداخل ذهنه وضميره ومخارجهما. وكما يُعبّر أساتذة التصوّف والأخلاق بأنّ مثل هذا الشخص غير قادر على (ضبط الخيال)، فتجده لأبسط المظاهر الخارجيّة يختلّ تركيزه، ولمجرّد تحريك عابر يفقد صوابه ويُصاب عقله بالتشويش والفوضى، ويُشلّ تفكيره، قال أمير المؤمنين عليه السلام: «**لَا تَجْتَمِعُ الشَّهْوَةُ والحِكْمَةُ**»(٢).

وقال الإمام الهادي عليه السلام: «**الحكمةُ لا تنجع في الطباعِ الفاسدة**»(٣).

٢ ـ الرذائل الاجتماعيّة

أ ـ البخل: من مراحل التوسعة العلميّة والتنمية المعرفيّة التي تلي إنتاج العلم، هي مرحلة نشر العلم؛ فإنّ النشر المؤثّر للعلم يُؤدّي إلى تبادل العلوم والنظريّات والآراء، ومن جهة أُخرى سينتج عنه نشاط فكري وتفاعل حيّ للإبداع وولادة نظريّات وابتكارات جديدة. فإنّ كلّ كسب في الشريعة الإسلاميّة جُعل له نوع من الضريبة والزكاة، وحيث إنّ كسب العلم والمعرفة هو نوع من الثروة، وقد جعل

---

(١) المتّقي الهندي، علي بن حسام الدين، كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال: ج١٦، ص١٤٤، ح٤٤١٧٦.

(٢) التميمي الآمدي، عبد الواحد، تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ص٦٥، ح٨٤٤.

(٣) المجلسي، محمّد باقر، بحار الأنوار: ج ٧٥، ص٣٧٠.

الشارع المقدّس لهذه الثروة الهائلة والعظيمة زكاة، وهي إنّ على العالم نشر علمه وإيصاله إلى أكبر عدد من الناس: «**زَكاةُ العِلمِ أن تُعَلِّمَهُ عِبادَ الله**»(١). والملفت أنّ مفردة الزكاة مشتقّة من الفعل (زكّى) الذي يعني النموّ والازدياد؛ ومن هنا فلا شكّ في أنّ نشر أُصول العلم وبذوره سيكون سبباً لنموّه ورشده وتكامله. وعلى هذا الأساس؛ فإنّ الأشخاص الذين يحتكرون العلم ولا ينشرونه سوف لا يتسنّى لهم الحصول على تكامل العلم ونضوجه، وسيكون ذلك حائلاً دون تطوّرهم وتقدّمهم العلمي والمعرفي.

ب ـ الحسد: نطالع في روايات أهل البيت عليهم السلام أنّ آفة وبلاء العلماء هو الحسد، يقول الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «**إنّ الله يُعَذِّبُ سِتَةً بِستَة: العَرَبَ بِالعَصَبِيَّةِ، وَالدَّهاقِينَ بِالكِبْرِ، والأُمراء بِالجَوْرِ، وَالفُقَهاءَ بِالحسَدِ...**»(٢)، والسبب في شيوع هذه الظاهرة بين بين العلماء والمحصّلين يعود لناحيتين: الأُولى هي أنّ العلم متاع نفيس ونادر، والثانية هي المنافسة على كسب العلم أو الشهرة والسمعة العلميّة، وكلا الناحيتين أمران جدّيان ضاغطان وخطيران؛ وعليه فمن البديهي أنّ مَن يحمل صفة العلم لو لم يَبْنِ نفسه أخلاقيّاً فسوف يحسب نجاح الآخرين فشلاً له، ولذلك يحسدهم على نجاحهم.

ج ـ عدم رعاية الأخلاق العلميّة في البحث والدراسة: إنّ مقولة أخلاق البحث وأخلاق النقد من المسائل المهمّة في القراءات الحديثة والبحوث العلميّة المعاصرة، وتُعدّ قيمة الصدق والأمانة والأدب من الخطوط الحمراء في مجال البحث والدراسة العلميّة، ويكون بروز الظواهر القبيحة من قبيل السرقة والاحتيال في هذه المجالات بسبب غياب قيم الصدق والأمانة؛ وبناءً على ذلك فلو تحلّى الباحث

---

(١) الكليني، محمّد بن يعقوب، الكافي: ج١، ص٤١.

(٢) المصدر السابق: ج٨، ص١٦٣.

والعالم ومن يروم التأليف والكتابة بصفتي الصدق والأمانة، لم يسمح لوجدانه وضميره أبداً بسرقة آراء الغير ونظريّاتهم ونسبتها إليه.

وكذلك في مقام نقد الآخرين ومناقشتهم لو تمّ مراعاة صفة (الأدب العلمي)، ولم يتلوّث جوهر النقد بخبث هتك الحرمة، وكان يجري في سياق الأدب والخُلق الرفيع، فلا شكّ بأنّه سوف يؤدّي إلى التقدّم والتطوّر العلمي.

د ـ الاستهانة بالأُستاذ وعدم احترامه: في الدين الإسلامي الذي حثّ وأوصى كثيراً على طلب العلم هناك حرمة كبيرة للعلم ومعلّميه، حتّى قال عنه رسول الله صلى الله عليه وآله وأمير المؤمنين عليه السلام: «**مَنْ تَعَلَّمْتَ مِنْهُ حَرْفاً صِرْتَ لَهُ عَبْداً**»(١).

وفي ثقافتنا يُعدّ المعلّم الأب الروحي، فلو واجه الأُستاذ من تلامذته الازدراء وسوء الخلق، فسوف يفقد الدافع الذي بموجبه يعلّمهم الفضائل ومكارم الأخلاق، وهذا من دون شكّ سينتهي إلى توقّف حركة العلم وعدم الحماس إلى التعلّم والبحث، يقول الإمام السجّاد عليه السلام في رسالة الحقوق: «**حقّ سائسك بالعلم التعظيم له، والتوقير لمجلسه، وحسن الاستماع إليه، والإقبال عليه، وأن لا ترفع عليه صوتك، ولا تجيب أحداً يسأله عن شيء حتّى يكون هو الذي يجيب، ولا تُحدّث في مجلسه أحداً، ولا تغتاب عنده أحداً، وأن تدفع عنه إذا ذكر عندك بسوء**»(٢).

و ـ القسوة والغلظة مع الطالب: إنّ للمعلّم والأُستاذ دوراً مصيريّاً في زرع الدافع الأوّلي لطلب العلم والمعرفة. وبتعبير علم الاجتماع: إنّ الأُستاذ يُعدّ من (المجموعات المرجعيّة) التي يُقتدى بها ويُرجع إليها، ولا شكّ في أنّ الدور الخاصّ

---

(١) الطوسي، محمّد بن محمّد، آداب المتعلّمين: ص٧٤. الأحسائي، ابن أبي جمهور، عوالي اللآلي: ج١، ص٢٩٢.

(٢) القمّي، محمّد بن علي، الأمالي: ص٣٦٩ ـ ٣٧٠.

الذي يلعبه الأُستاذ، وطبيعة أفعاله وتصرّفاته، من المتوقّع أن يكون لها تأثير كبير في نفوس الطلبة والتلاميذ، وإذا كان الأمر كذلك فإنّ الطلبة أو التلاميذ لو تعرّضوا إلى الاحتقار والإهانة أو الحدّة والخشونة من قِبل المعلّم، أو كان حُكم الأُستاذ بحقّهم متسرّعاً وظالماً، فلا شكّ في أنّ تعلّقهم وامتثالهم لما يطلبه منهم سيضعف ويذبل، بل سيتلاشى حماسهم واندفاعهم لذلك الدرس. من هنا فلو كان الأُستاذ لطيفاً وظريفاً ولديه القدرة على استيعاب تصرّفات وأفعال الطلّاب ولديه أيضاً المهارة الكافية في إدارة العلاقة فيما بينه وبينهم بالتواضع والحبّ، فإنّه سيؤثّر حتّى في الطلبة والأفراد الذين لم تكن لديهم رغبة بدرس من الدروس أو تخصّص من التخصّصات، فقد جاء عن الإمام زين العابدين عليه السلام في رسالة الحقوق ما يلي: «**أمّا حَقُّ رَعِيَّتِكَ بِالعِلمِ: فأن تَعلَمَ أنَّ الله عزّ وجلّ إنَّما جَعَلَكَ قَيِّماً لهم فيما آتاكَ مِنَ العِلمِ، وفَتَحَ لَكَ مِن خَزائِنِهِ، فإذا أحسَنتَ في تَعليمِ النّاسِ، ولَم تَخرقْ بِهِم، ولَم تَضجَرْ عَلَيهِم، زادَكَ الله مِن فَضلِهِ، وإن أنتَ مَنَعتَ النّاسَ عِلمَكَ، أو خَرَقتَ بِهِم عِندَ طَلَبِهِم العِلمَ، كانَ حَقّاً عَلَى اللهِ عزّ وجلّ أن يَسلُبَكَ العِلمَ وبَهاءَهُ، ويُسقِطَ مِنَ القُلوبِ مَحَلَّكَ**»(١).

الأسئلة

١ـ عن ماذا يبحث الإنسان من وراء تأسيس المجتمع وبنائه؟

٢ ـ أرجو ذكر معالم المجتمع الإنساني النموذجي؟

٣ـ ما هي العوامل التي تؤدّي إلى تقهقر الرفاه المادّي؟ وما هي أهمّ عقبات الرفاهية العادلة؟

٤ ـ لماذا لا تجتمع الشهوة وحبّ الدنيا مع العلم والحكمة؟

---

(١) ابن شعبة الحرّاني، الحسن بن علي، تحف العقول: ص٢٦١.

٥ ـ لماذا عُدّ الحسد من الآفات الخاصّة التي تُصيب العلماء؟

٦ ـ أرجو بيان ثلاث من القيم الرئيسة في أخلاقيّات البحث والنقد العلميين.

للبحث والتأمّل

١ ـ اطلبوا من زملائكم في الصفّ بشكل سرّي كتابة العقبات الأخلاقيّة التي تحول دون تكاملهم الدراسي، ومن ثمّ صنّفوا تلك العقبات وقوموا بدراستها وتحليلها.

٢ـ اطلبوا من زملائكم بشكل سرّي كتابة العُقد الأخلاقيّة التي يواجهونها في صناعة ذواتهم وتكاملهم المعنوي، ولاحظوا بأنّه هل توجد حلول مشتركة للحيلولة دون الوقوع في تلك المشاكل والعُقد؟

٣ ـ تخيّلوا أنّ فايروس عدم الثقة قد استشرى في شبكات التواصل الاجتماعي، وصار يُفسد ويخرّب الملفات السرّية المتعلّقة بسمعة المستخدمين وشرفهم ويخترق معلوماتهم الشخصيّة، ففي مثل هذه الصورة ما هي الآثار المفسدة والمدمّرة التي يُمكن أن تطرأ على مستوى العلاقات الاجتماعيّة وعلى طبيعة العمل بين النقابات والصناعات وبين زملاء الوظائف مروراً بالعلاقات الأُسريّة والعائليّة؟ عندها هل يُمكن في مثل هذه الظروف الاعتماد على الطبيب والمعلّم ورجل الشرطة أو المرور، بل حتّى على الأخ والصديق؟ وما هو الجزاء الذي يكون مناسباً بحقّ الفرد أو المجموعة التي تسبّبت بذلك الخلل؟ وكيف يُمكن تعزيز أمن وسرّية الشبكات الاجتماعيّة؟ وهل هناك طريقة يُمكن وضعها لحماية الملّفات الشخصيّة والحسّاسة؟

٤ ـ ما هي السُّبل الأُخرى التي تقترحونها لنشر وتعزيز الأمن والسكون النفسي في المحيط والبيئة التي تعيشون فيها؟

الفصل السابع

آفات العلاقة مع الذات

الأهداف

بعد دراسة هذا الفصل يُمكن للطلّاب أن:

١ـ يُعرّفوا قيمة وعي الذات ومعرفة النفس.

٢ ـ يتعرّفوا على سُبل تعزيز الإرادة والعزيمة.

٣ ـ يُعرّفوا مفهومي الحرص والقناعة وعلاقتهما بالفقر والغنى.

❋❋❋

أ. نسيان النفس وخداعها

إنّ إهمال الذات ونسيانها ليس كنسيان اسم صديق أو مهمّة يوميّة، فنحن مضطرّون لأن نمتلك تصوّراً عن ذواتنا وأنفسنا، فلو لم يكن لدينا وعي صحيح بذواتنا، وقراءة صحيحة لأنفسنا، ستحلّ محلّ ذلك صورة مبهمة وزائفة بدلاً من حقيقة ذواتنا، فيضحى العمل خداعاً والعيش سراباً؛ ومن هنا فإنّ نسيان الذات والذهول عنها يؤدّي إلى خداعها، وبدلاً من خدمة الذات والسعي لتكاملها والأخذ بها نحو الفضائل العالية سيتمّ خسران الفرص المناسبة والمجالات التي تتيح بلوغ الكمال.

يكمن في الإنسان جوهر ثمين وكنز عظيم لا بدّ له من العثور عليه ومعرفته، وهذا الجوهر مُعرّض للخطر من الداخل، أي: إنّ النفس بمحض إرادتها وحاقّ اختيارها قد تؤدّي بصاحبها إلى المهالك، مضافاً إلى ما يصنعه الشيطان من تزيين للقُبح والإغراء في المبادرة لتحقيق أكبر قدر من الأعمال القبيحة، فيُظهرها على أنّها لا تنطوي على مفاسد جديّة، ولا مانع من فعلها.

ولكن أعظم خطر ـ بحيث إنّه قد يفوق كلّ الأخطار المذكورة ـ هو (تسويل) النفس لصاحبها عندما ترغب في فعل ما، وذلك بمعنى عدم إظهار حقيقة الفعل

وعواقبه، بل تُلبسه لباساً آخر، فلو طرأ مانع في تنفيذ تلك الرغبة، سعت النفس مرّة أُخرى لتحريف الحقيقة وتغيير الشكل الحقيقي للفعل من خلال سُبلها المخادعة[١]؛ ولذلك نقول: إنّ نسيان النفس وإهمالها يؤدّي إلى خداع الذات وتضليلها.

«إنّ كلمة (تسويل) تعبير عن حالة نفسيّة دقيقة جدّاً ترد في القرآن الكريم، وهي تعني أنّ الإنسان قد تخدعه نفسه من داخله. إنّ النفس الإنسانيّة إذا أرادت شيئاً تأخذ بتزيينه وتجميله وإيجاد المسوّغات الكاذبة له، بحيث إنّ الإنسان يتصوّر ذلك شيئاً حقيقيّاً، إنّما هو من عمل باطن الإنسان لينخدع به»[٢].

من عطايا الباري تعالى للمؤمنين من أهل الآخرة هي إدراكهم لذنوبهم وأخطائهم ليكونوا بذلك مشغولين بها بعيداً عن عيوب وأخطاء الآخرين، ولا تُنسيهم أخطاءُ الناس أخطائَهم ومعاصيهم، كذلك يُطلعهم على حيل الشيطان والنفس ومكرهما، حتّى تُغلق الأبواب أمام النفس للوصول إلى مآربها، **«فأوّلُ ما أُبصِّرُهُ عُيُوبَ نَفْسِهِ؛ حتّى يَشْتَغِلَ بِها عَنْ عُيُوبِ غَيْرِهِ، وأُبصِّرُهُ دَقائقَ العِلْمِ؛ حتّى لا يَدْخُلَ عَلَيْهِ الشَّيْطانُ»**[٣]. وبعبارة أُخرى: إنّ فهم هذه العيوب والحيل مهمّة ليست بالسهلة، لا تتسنّى لأهل الدنيا والأهواء؛ ولذلك يقعون في شراك خداع النفس ومزالقها.

وتؤدّي معرفة الذات إلى كشف حقيقة النفس والوقوف على طاقاتها وقدراتها

---

(١) حينما صبغ إخوة يوسف قميصه بدم كذب جاءوا إلى أبيهم يتظاهرون بالحزن والأسف مدّعين أنّ يوسف قد أكله الذئب، فقال لهم أبوهم يعقوب: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾. يوسف: آية١٨. وعندما صنع السامري العجل الذهبي لتضليل بني إسرائيل وعاتبه موسى، ردّ عليه السامري قائلا: ﴿وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي﴾. طه: آية٩٦.

(٢) المطهّري، مرتضى، الإنسان الكامل، تعريب: جعفر صادق الخليلي: ص١٦٦ ـ ١٦٧.

(٣) الديلمي، الحسن بن محمّد، إرشاد القلوب: ج١، ص٢٠٥.

الكامنة التي أودعها الله فينا، وجعل عهدة تربيتها على عاتقنا، لنجعلها ثروة ورصيداً في حياتنا، فإنّ قابليات الإنسان واستعداداته تنقسم إلى قسمين: الأوّل: هي قابليّات نوعيّة عامّة يُمكن أن ينالها جميع أفراد البشر، كاستعداد جميع الناس للكمال المعنوي والروحاني. والثاني: هي قابليّات فرديّة، كاستعداد بعض الناس للمِهن والحِرَف الخاصّة دون غيرهم، حيث إنّ مثل هذه الصناعات تتفاوت إزاءها قابليّات الناس وتختلف من شخص لآخر. وأغلب القابليّات والاستعدادات البشريّة المشتركة متعلّقة بالكمال الفردي للبشر، وأكثر الاستعدادات الخاصّة والشخصيّة تتعلّق بكمالهم الاجتماعي؛ وبناءً عليه فإنّ معرفة الذات ونسيانها يتجلّيان في صعيدين: الأوّل: نوعي، والثاني: شخصي.

النتائج والآثار

إنّ مَن يجهل حقيقة نفسه يعيش حياة التيه والضياع، ويظلّ يلهث وراء سعادة زائفة ولذّة موهومة من دون أن يبلغهما؛ حيث إنّ عطش الروح البشريّة لا يُروى إطلاقاً باللذّة المادّية والسعادة الظاهريّة.

يقول الإمام علي عليه السلام: «**مَن جَهِلَ نَفسَهُ أهمَلَها**»(١).

فإنّ الذي لديه جهل من هذا النوع لا يستثمر الفرص والمجالات المتاحة له بشكل صحيح، وبالتالي فلن يكون نصيبه سوى الندامة والحسرة؛ وفي هذا الصدد نقرأ في الشعر المنسوب للإمام علي عليه السلام ما يلي:

دواؤك فيك وما تشعرُ   وداؤك منك وما تنظرُ(٢)

فالمرء الذي نسي نفسه دائماً ما يعيش حالة من الإبهام والغموض، ويشعر

---

(١) التميمي، الآمدي، عبد الواحد، تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ص٢٣٣، ح٤٦٦٢.

(٢) الإمام علي، الديوان المنسوب للإمام علي عليه السلام: ص١٧٨.

بعدم الانسجام والتوافق مع نفسه، فالجهل ظلام، ولا شكّ بأنّ عدم فهم الذات والوعي بحقيقتها من أشدّ الظلمات حلكة وأسوئها ضلالة.

ومع نسيان النفس وإهمالها يُمكن أن يمرّ الإنسان بحالتين: الأولى: أن يجهل ما يمتلكه من مواهب وقابليات، فيرىَ نفسه أقلّ مما هي عليه في الواقع. والثانية: أن يرى نفسه أعلى مما هي عليه، فيعتقد بامتلاكه ما لا يملكه في الواقع.

وكلتا الحالتين تشتركان في موضوع واحد، وهو عدم فهم الذات واستيعاب حقيقة قدراتها وطاقاتها ومتطلّباتها، بمعنى أنّ جهل المرء باستعداداته ومديات الاستطاعة لديه وشعوره بالذلّ والهوان والفشل، يجعله يعيش في خياله أحلام العظمة والجدارة، وبذلك تتضاعف لديه الظلمة مضافاً إلى الظلمة السابقة؛ ولذا فهو يسعى بتكبّر وغرور إلى التقليل من حالة الذلّ والتصاغر التي تجتاحه؛ يقول الإمام علي عليه السلام: «**العُجْبُ يُظهرُ النّقيصَة**»(١)، وقال أيضاً: «**إعجاب المرء بنفسه برهان نقصه وعنوان ضعف عقله**»(٢).

إنّ مَن يُبتلى بالذلّ والهوان أو العُجب والكبر، فحيث إنّه لا يُمكنه تقييم الظروف التي تُحيط به، ولا يُمكنه أيضاً تشخيص قدراته وقابليّاته الواقعيّة، فإنّه لا يكون قادراً على تحديد ما يفصله عن تحقيق الأهداف؛ وبالتالي سيخسر ذلك الفرد التكامل والتطوّر والتقدّم المطلوب، يقول الإمام علي عليه السلام: «**العُجْبُ يَمْنَعُ الازْدِيَادَ**»(٣).

عندما يرى المرء نفسه أكبر وأعظم من الحالة الطبيعيّة لذاته، فإنّه يشعر بالاكتفاء والرضا الكاذب المزيّف، وكذلك الحال فهو عندما يقتنع بعقدة النقص والصغر فسيجتاحه شعور بالانهزام والفشل والعجز الذي يمنع السير باتّجاه

---

(١) التميمي، الآمدي، عبد الواحد، تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ص٣٠٩، ح ٧٠٩٨.

(٢) المصدر السابق: ص٣٠٨، ح٧٠٩١.

(٣) المصدر السابق: ص٣٠٩، ح٧١٠١.

الأهداف المنشودة، ومن ثَمّ يفقد الإنسان ثقته بنفسه واعتماده عليها؛ ومن هنا فإنّ التكامل والنجاح بحاجة إلى استيعاب الذات والثقة العالية بالنفس.

كما أنّ نسيان النفس وإهمال الذات سوف يحوّل الإنسان إلى فريسة سهلة للانتهازيين والعدوانيين والمتسلّطين، وسوف يُعرّضه للخداع والتضليل من دون أن يشعر، ومَن يجهل ما يجلب لحياته النفع والضرر سيخسر نفسه على أثر الوعود والتحذيرات، وسيتغيّر مسيره وحركته في الحياة، ومثل هؤلاء الأشخاص ليس لديهم أهداف واضحة ولا طموحات هادفة، حتّى يُمكنهم من خلال ذلك تنظيم قراراتهم بناءً على تلك الأهداف، فيجد المهيمنون سبيلاً للولوج إلى حياة مثل هؤلاء، ومن خلال الترغيب والترهيب يقرّرون ما يريدونه لهم من مبادئ وأهداف، ويسيطرون على كلّ شيء في حياتهم، وفي الواقع ومن خلال خصلة الانقياد والخضوع والتبعيّة ستذوب وتتلاشى الكثير من القوى الباطنيّة والفضائل الإنسانيّة من أعماق ذلك الإنسان ووجوده.

إنّ العيش في ظلّ نسيان النفس وغربة الروح سيؤدّي إلى إفساد الحياة الأبديّة، بل ستستبدل صورة الحياة الأبديّة والسعادة الحقيقيّة بجملة من النقائص والعيوب، كضحالة العقل(١)، وفراغ وضعف القلوب(٢)، ويُحشر مثل هؤلاء وهم صمّ وبكم فاقدون لكل قوّة(٣).

---

(١) قال تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلۡبُكۡمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ﴾. الأنفال: آية٢٢.

(٢) قال تعالى: ﴿مُهۡطِعِينَ مُقۡنِعِي رُءُوسِهِمۡ لَا يَرۡتَدُّ إِلَيۡهِمۡ طَرۡفُهُمۡۖ وَأَفۡـِٔدَتُهُمۡ هَوَآءٞ﴾. إبراهيم: آية٤٣.

(٣) قال تعالى: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِي يَنۡعِقُ بِمَا لَا يَسۡمَعُ إِلَّا دُعَآءٗ وَنِدَآءٗۚ صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ﴾. البقرة: آية١٧١. وفي آية أُخرى مدح الصالحين بأنّهم أصحاب الأيدي والأبصار قائلاً: ﴿وَٱذۡكُرۡ عِبَٰدَنَآ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ أُوْلِي ٱلۡأَيۡدِي وَٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾. ص: آية٤٥.

ولا شكّ في أنّ الاشمئزاز(١)، ورين القلوب وصدأها(٢) والخوف والرعب(٣)، والشكّ والريبة والاضطراب والقلق(٤)، وسائر أنواع الأمراض والآفات الباطنيّة(٥)، هي حصيلة الغفلة عن النفس ونسيان الذات.

الحلول والمعالجات

إنّ أحد أهمّ العوامل التي تؤدّي إلى إصابة الإنسان بنسيان ذاته هو كثرة الانشغال بأُمور الدنيا الذي سوف لا يسمح له بالتفكير بنفسه والتأمّل فيها، ليتمكّن من تشخيص الحقيقة من الوهم، وهذا لا يعني أنّنا نبرّر هنا توفير وقت الفراغ بمعنى البطالة والكسل وتضييع الوقت بذريعة التعرّف على النفس والبحث عن حقيقتها، بل بمعنى التقليل من المتعلّقات الدنيويّة والامتناع عن توظيف القوى الذهنيّة والنفسيّة في الأُمور العبثيّة عديمة الفائدة والجدوى، فربّما يستطيع بعضهم العمل أكثر من اثنتي عشرة ساعة في اليوم، ومع ذلك يُمكنه توفير وقت من الفراغ بمزاج جيّد وفكر وذهن نشطين يتمكّن فيه ذلك من الخلوة بنفسه والتأمّل في حقيقتها. وعليه فإنّ أوّل خطوة لمعالجة خطر نسيان الذات والتغرّب عنها هو الحدّ من الوسوسة الفكريّة والتشويش الذهني والتخلّص من القلق

---

(١) قال تعالى: ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُ ٱشۡمَأَزَّتۡ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ﴾. الزمر: آية٤٥.

(٢) قال تعالى: ﴿ كَلَّاۖ بَلۡۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴾. المطفّفين: آية١٤.

(٣) قال تعالى: ﴿ سَنُلۡقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعۡبَ بِمَآ أَشۡرَكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا ...﴾. آل عمران: آية١٥١.

(٤) قال تعالى: ﴿ لَا يَزَالُ بُنۡيَٰنُهُمُ ٱلَّذِي بَنَوۡاْ رِيبَةٗ فِي قُلُوبِهِمۡ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾. التوبة: آية١١٠.

(٥) قال تعالى: ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضٗاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡذِبُونَ ﴾. البقرة: آية١٠.

والاضطراب، وذلك يتحقّق بشكل تدريجي من خلال التوجّه إلى الله وعنايته بالإنسان.

وبعد توفّر الهدوء وإخماد القلق والاضطراب الباطني، ينبغي الشروع بخطوة ثانية والبحث عن فرص أكبر للتأمّل في الذات، ومثل هذه الفرص والخُطوات ينبغي أن تكون منظّمة ومتسلسلة، بحيث توجِد تلقائيّة نفسيّة تعمل بنشاط وتقود إلى تعزيز الوعي بالذات. وأفضل وقت لممارسة هذا البحث والتأمّل في النفس هو نصف الليل، لا سيّما الدقائق التي تسبق آذان الصبح أو بعد صلاة الصبح قبل شروق الشمس. ففي هذه الساعات يكون ضجيج العالم قد هدأ وسكن، وتكون الإزعاجات والمنغّصات للخلوة بالنفس قد انحسرت، وتغدو الروح مستعدّة لاستيعاب أفكار أعمق(١).

من المعالجات الأُخرى التي يُمكن أن تُذكر هنا لمكافحة نسيان الذات ومواجهة خداعها، هو ذكر الله، فلا شكّ في أنّ معرفة الله هي السبيل إلى الوصول للمعرفة الصحيحة بالكون وتفاصيله ومكانة كلّ منها، ومعرفة الإنسان ومنزلته الحقيقيّة في عالم الوجود. وبالتالي فالذين ينسون الله وذكره سيغفلون عن أنفسهم وينسونها(٢)، وفي مقابل ذلك فإنّ مَن يذكرون الله سيتعرّفون على ذواتهم، ويتأمّلون في حقيقة أنفسهم، فإنّ وعي الإنسان بالله هو عبارة أُخرى عن وعيه بنفسه، بل لا يُمكن للإنسان أن يعرف نفسه إلّا عندما يعرف الله تعالى.

ومن المعالجات والحلول التي تُذكر أيضاً في مواجهة هجران الذات ونسيانها هو ذكر الموت، فإنّ الدنيا العجوز الساحرة هي التي لديها القابليّة في أن تصنع ألواناً

---

(١) قال تعالى: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡـٔٗا وَأَقۡوَمُ قِيلًا﴾. المزمّل: آية٦.

(٢) قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾. الحشر: آية١٩.

من السحر لتطوّق الإنسان في دائرة سحرها، فتجعله يعتقد خطأً وزيفاً أنّها تحوّلت إلى موجود آخر، إلّا أنّ ذكر الموت المفاجئ يجعل الإنسان على بصيرة بمستوى الشرّ الذي تنطوي عليه الدنيا.

ب ـ الوسوسة وضعف الإرادة

إنّ الأفكار والتخيّلات التي تطرأ على القلب والعقل البشري لو تضمّنت قبحاً وإساءةً كانت وسوسة، ولو تضمّنت خيراً ومعنى طيّباً كانت إلهاماً، وفي هذا الصدد يقول الإمام الصادق عليه السلام: «**ما من قلب إلّا وله أُذنان، على أحدهما مَلك مُرشد، وعلى الأُخرى شيطان مضلّ. هذا يأمره، وهذا يزجره؛ الشيطان يأمره بالمعاصي، والمَلَك يزجره عنها؛ وهو قول الله عزّ وجلّ:** ﴿... عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾[1]»[2].

وتتكوّن الوسوسة من خلال نشاط الوهم، حيث يُسقط الوهم معطياته على العقل، فينسب المفاهيم المعقولة والمطلقة من قبيل: الجمال والحبّ واللذّة والفرح والسرور إلى الصور الذهنيّة المقتبسة من المادّة، وهكذا يُظهر الوهمُ وكأنّ الجمال المطلق في الأُمور المادّيّة.

وبمساعدة الوهم تقوم الوسوسة بتشويه رؤية العقل، وتعده بالسعادة والاستمتاع دون قيد أو شرط خداعاً وكذباً، حتى تُنسيه الطموحات الكبيرة، وتسلبه القدرة على السعي نحوها. وفي المقابل فإنّ السيطرة على الوسوسة ستنمّي الهمّة العالية، وتنشّط الإرادة لتحقيق الأهداف السامية.

---

(١) ق: آية ١٧ـ ١٨.

(٢) الكليني، محمّد بن يعقوب، الكافي: ج٢، ص٢٦٦.

إنّ ما يقوم به كلّ من الوهم والوسوسة من إيهام وتزيين يُحفّزان طاقة كبيرة للرغبات غير المشروعة، بحيث يُؤثّر ذلك سلباً في تحقيق الأهداف، ويُضعف الهمّة العاليّة في هذا الإطار، وهذا يعني ضعف الإرادة، وقد يبلغ مستوى هذا الضعف أحياناً حدّاً كبيراً يُؤدّي إلى فشل الإرادة. ومن جهة أُخرى فمع استفحال الوساوس وتنامي الرغبات غير المشروعة تضعف لدى الإنسان قابليّة التحكّم بميوله وسلوكياته، وتزول عنه قدرة السيطرة على أفكاره وعواطفه وأفعاله.

النتائج والآثار

إنّ الاستسلام للشهوات غير المشروعة يمنع المرء من مواصلة تحقيق الآمال والطموحات، فعندما يخسر المرء المواجهة في صراعه مع نفسه وباطنه، فلا يُمكنه ألقاء اللوم بذلك على الآخرين، بل سيجد أنّه هو الذي ظلم نفسه، وسيجتاح وجوده شعور عارم بعدم اللياقة والقابليّة وإحساس شديد بالضعف؛ ولذا فإنّه سيبتلى بذلّة أكثر وهوان أشدّ من الانهزامات والانكسارات الأُخرى. ومَن تعتريه الوسوسة، ويغمره خداع الشيطان ومكره، فلا شكّ في أنّه سوف يسير على خلاف الميل الذاتي للروح؛ وذلك لأنّ الروح تطمح في العودة إلى نبعها وأصلها والاستقرار في جوار الرحمة الإلهيّة اللامتناهية.

المعالجات والحلول

من أسباب الوسوسة وضعف الإرادة الخضوع لآراء الآخرين وأفكارهم وجعلها محوراً ومعياراً، فإنّ الأعراف والتقاليد الاجتماعيّة وإن كانت تُضفي على الحياة نوعاً من التماسك والوضوح، إلّا أنّه في الكثير من الموارد تكون المعايير الاجتماعيّة الناشئة من أفكار الآخرين وخواطرهم النفسيّة سبباً لأن يعيش الفرد الغربة مع ذاته. فإنّ العيش في ضوء رغبات ومعايير الآخرين سيؤدّي إلى عجز الإنسان عن اكتشاف مواهبه وطاقاته، وسيزيد الهوّة بينه وبين نفسه.

إنّ نسيان النفس من عوامل إثارة الوساوس لدى الإنسان، فينتج عنه انهزام العقل وانحسار قواه، فإنّ الميول والرغبات الكامنة في الإنسان على الرغم من كونها هي التي تُتيح له الاستمرار في التدفّق والعمل في حياته اليوميّة، من قبيل: لذّة الأكل ولذّة الشرب لبقاء الحياة، ولذة الجنس لبقاء واستمرار النسل والتكاثر، وحبّ المال من أجل القيام بالوظائف والواجبات الإنسانيّة والاجتماعيّة، إلّا أنّه أحياناً يتّفق أن تحلّ تلك اللذائذ والشهوات غير الحقيقيّة محلّ اللذائذ والراحة الحقيقيّة الأصيلة، ومن أجل الحصول عليها يمارس الإنسان رغبات باطلة وشهوات منحرفة.

ومن هنا؛ فالنفس هي أوّل عدوٍّ خادع يقطن أعماق الإنسان، ومن أجل غلبة هذا العدو ينبغي التعرّف على طبيعته وهويّته وإنعاش مركز معرفة الباطن حتّى لا تتغلّب الوسوسة على الإرادة، ولا تنتصر الأوهام على الفكر والتعقّل.

وفي هذا المضمار يُعتبر استذكار بعض العلوم من أجل القضاء على وساوس النفس مفيداً جدّاً، من قبيل استذكار العواقب الوخيمة لاتّباع الوسوسة والأوهام، وإنّ الشيطان الذي نصب العداء للإنسان وأقسم على تضليله سوف يستغلّها بشتّى أنواع الاستغلال ليُوقع الإنسان في الذنب، مضافاً إلى استحضار أنّ الصبر على ترك هذه الوساوس أهون من الصبر على الشقاوة والبعد عن الرحمة الإلهيّة. ولا شكّ في أنّه بمثل هذه الاستحضارات سوف يوقظ القلب، ويُصيّر الإنسان أكثر صلابة وقوّة في مواجهة مرامي الوسوسة.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ﴾(١).

---

(١) الأعراف: آية ٢٠١.

ومضافاً إلى الاستحضار الذهني والقلبي، يُعتبر الذكر والاستحضار اللساني مؤثّراً هو الآخر في رفع الوساوس، وغالباً ما يلتفت الذهن إلى ما يقوله اللسان وما ينطق به؛ ومن هنا نجد أنّ بعض سقطات اللسان تعكس ما يدور في أذهان الأفراد(١).

ومن هنا فإنّ ما يجري على اللسان يؤثّر في الذهن ويُساهم في تكوينه. وفي الواقع فإنّ ذكر الله يُطمْئِن قلق الذهن واضطرابه. فعن جميل بن درّاج، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «**قلت له: إنّه يقع في قلبي أمر عظيم. فقال: قل: لا إله إلّا الله. قال جميل: فكلّما وقع في قلبي شيء قلت: لا إله إلّا الله، فيذهب عنّي**»(٢).

ومن جملة سُبل مواجهة الوسوسة، هو استبدالها بنقيضها ومقابلها، ذلك أنّ الذهن البشري لديه قدرة عظيمة على الإبداع، ودائماً ما يستطيع ابتكار صور جديدة ومتنوّعة. فحتّى لا يكون ذلك الذهن ضحيّة الوسوسة والوهم ينبغي له أن يستخدم ما يدعو إلى ذلك في الأُمور والقضايا الطاهرة والنقيّة، فيجب عليه ـ مثلاً ـ استبدال ما يدعو إلى الشكّ والتشويش بمعانٍ من قبيل بدائع الخلق وأفعال الله وكمالاته وصفاته، والتأمّل في الحياة الأبديّة والموت وعالم البرزخ، فتلك أُمور تُضيّق الخناق على الشيطان ووساوسه، وتحدّ من الوهم وخيالاته، وتنتشل الروح الإنسانيّة من الملوّثات والخبائث.

يقول الإمام الخميني: «**وعلى الإنسان المجاهد الذي نهض لإصلاح نفسه، وأراد أن يصفّي باطنه، ويفرّغه من جنود إبليس، عليه أن يُمسك بزمام خياله، وأن لا يسمح**

---

(١) وفي هذا الصدد يقول الإمام علي عليه السلام: «مَا أَضْمَرَ أَحَدٌ شَيْئاً إِلَّا ظَهَرَ فِي فَلَتَاتِ لِسَانِهِ، وَصَفَحَاتِ وَجْهِهِ». نهج البلاغة، تحقيق: صبحي الصالح: ص٤٧٢، حكمة ٢٦.

(٢) الكليني، محمّد بن يعقوب، الكافي: ج٢، ص٤٢٤.

له بأن يطير حيثما شاء، وعليه أن يمنع من اعتراضه للخيالات الفاسدة والباطلة، كخيالات المعاصي والشيطنة، وأن يوجّه خياله دائماً نحو الأُمور الشريفة، وهذا الأمر ولو أنّه قد يبدو في البداية صعباً بعض الشيء، ويصوّره الشيطان وجنوده لنا وكأنّه أمر عظيم، ولكنّه يصبح يسيراً بعد شيء من المراقبة والحذر»(١).

ومن أجل تقوية وتعزيز كلّ واحدة من قوى النفس يجب تمرين تلك القوى والعمل على تعزيزها، فعلى سبيل المثال: يتمّ تقوية الحافظة من خلال التمرين على الكثير من الحفظ، ومن أجل تعزيز الدقّة يجب اقتفاء الكثير من الدقّة عند القيام بالأعمال، كما أنّك لو أردت تقوية الذراع عليك ممارسة الرياضة؛ وبالتالي فإنّك لو أردت دعم الإرادة وتقوية العزيمة ينبغي عليك أن تُفعّل الإرادة بكثرة، فعندما نواجه خيارات متنوّعة، وتدعونا رغباتنا النفسيّة إلى ما تُريد، هنا تبدأ المواجهة مع النفس، وهنا هو موطن وميدان تعزيز الإرادة، فيجب علينا اغتنام الفرصة، لتتعزّز لدينا الإرادة الإنسانيّة.

إنّ من العوامل المهمّة في الاستسلام للوساوس والدسائس الشيطانيّة هو المناطق الملوّثة والمواطن المشبوهة، ولا شكّ فإنّ البقاء في تلك المواطن، ومرافقة الأشخاص السيّئين، هو إضعافٌ لحصانة المرء أمام مكائد الشيطان وشباكه، وجعله فريسة سهلة له. فإنّ مَن يكون معرّضاً لخطر من هذا اللون، عليه قبل أن يقوم بأيّ جهد احترازي أن يقوم بتغيير بيئته والانتقال إلى بيئة ومحيط آخر، حتّى يتسنّى له القيام بطرق علاجيّة ناجحة. وفي النهاية جديرٌ بالإنسان لكي يتمكّن من معالجة الوسوسة بنجاح، كسائر الأعمال الأُخرى الناجحة، أن يتمسّك بالله وبرسوله صلى الله عليه وآله وبأهل بيته الكرام عليهم السلام.

---

(١) الخميني، روح الله، الأربعون حديثاً: ص١٧.

ج) الجشع والطمع

إنّ للإنسان حاجات ضروريّة تُمكّنه من الحفاظ على حياته واستمرارها، وعليه أن يهتمّ بها ويسعى لتوفيرها، لكن لو تجاوز الإحساس في تأمين هذه المتطلّبات والحاجات حدود الواقع، وبلغ به الأمر إلى عالم الوهم والخيال، فقد تبدّل ذلك الشعور والإحساس إلى (طمع وجشع). هذا، وأنّ (الحرص) عبارة عن إحساس كاذب بالحاجة وشعور موهوم بها يتبعه سعي حثيث لتأمينها. ومرض الحرص والطمع يخلّ بالنظام المنطقي المتعلّق بتأمين الحاجات الإنسانيّة ورعاية الرغبات البشريّة، ويجعل الفرد يطمع بالحصول على الكثير من المتطلّبات دون أن يعي مقدار حاجته لها. إنّ الحاجات الطبيعيّة للإنسان هي حاجات محدودة، ويُمكنه الحصول عليها بسهولة، فلو أنّ الإنسان اقتنع ورضي بما أُعطي له فإنّ ذلك سيكون كافياً له ومقنعاً. ولكن أحياناً يكون الإحساس بالحاجة هو انعكاس لفعل نفسي كاذب، وتصوّر مبالَغ فيه، بحيث إنّ المرء لو أراد إرضاءها وتأمينها لم يزده ذلك إلّا عطشاً وإرهاقاً مهما كان مستوى سعيه وطلبه.

وفي مقابل الحرص تأتي القناعة، وهي حالة نفسية تُفضي إلى الاحتراز عن الشعور الكاذب بالحاجة والميل المفرط، والقبول بالمتاع والمال الموجود. وهذه الفضيلة تعزّز الشعور بعدم الحاجة لما لا يوجد، وتنمّي الإحساس بعدم الرغبة في تحقيق ما لم يتوفّر؛ وغنى النفس الذي تتحدّث عنه الروايات هو القناعة، بمعنى أنّ الفرد لا ينال الغنى والكفاف من خلال تراكم الثروة والمال، بل هناك أُمور باطنيّة ونفسيّة هي التي تُشعر الإنسان بالغنى الحقيقي. فقد ورد عنهم عليهم السلام: «**اللَّهُمَّ اجْعَلْ غِنَايَ فِي نَفْسِي، واليَقِينَ فِي قَلْبِي، والإِخْلاَصَ فِي عَمَلِي**»(١).

---

(١) الكليني، محمّد بن يعقوب، الكافي: ج٢، ص٥٧٨.

ويُعتبر مفهوم الطمع قريباً جدّاً من مفهوم الحرص، فالأوّل يعني مراقبة ثروات الآخرين، ومن ثَمّ الإحساس بالحاجة إليها؛ ومن هنا فإنّ مفهوم الطمع يكون أخصّ من مفهوم الحرص؛ لأنّ الطمع هو شعور بالحاجة لما يتمتّع به الناس من ثروة ومال، وفي مقابله الاستغناء عن الناس وهو من لوازم القناعة؛ وبناءً على ذلك فقد يكون المرء بعيداً عن الطمع لكنّه لم يزل حريصاً.

وهناك مرض أفتك من الطمع وأضيق أُفقاً منه، وهو أن يبتلي الفرد بالحرص على ما عند الآخرين، ولكن هذه المرّة ليس من أجل عود النفع إليه، وإنّما رغبة منه في حرمان الآخرين ممّا عندهم، فتكون لديه أُمنية عارمة في زوال ما عندهم، وهذا هو مرض الحسد الذي يُعدّ أحد فروع الحرص.

النتائج

إنّ الفقر قبل أن يكون واقعيّة عينيّة فهو إحساس وشعور، فلو كان هذا الشعور ينسجم ويتوافق مع القُدرات الفرديّة والقابليّات الشخصيّة فلا ضير في الاستجابة له، ولكن لو كان يفوق تلك القُدرات والقابليّات فإنّه سيتحوّل إلى الحرص، وسيؤدّي بدلاً عن الرفاهية النسبيّة إلى الفقر النسبي؛ وبالنتيجة فإنّ الحرص هو منشأ الإحساس بالفقر والعوز، وتعقبه مساوئ أُخرى، وقد ورد في ذلك أنّ «**الحِرْصُ رَأْسُ الفَقْرِ وَأُسُّ الشَّرِّ**»(١).

إنّ الإنسان الحريص دائماً ما يصبو إلى الإمكانيّات التي لا تطالها يده، ويراقب ما عند الآخرين من الخير والنعمة التي يعجز عن بلوغها، وهذه الحالة هي التي تجعله يعاني من هذا الفقر والعوز، فقد جاء عن الإمام علي عليه السلام قوله: «**الحريص فقير**

---

(١) التميمي الآمدي، عبد الواحد، تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ص٢٩٥، ح ٦٦٢٩.

ولو ملك الدنيا بحذافيرها»(١). وعن النبيّ صلى الله عليه وآله أنّه قال: «**لو كان لابن آدم واديان من ذهب لابتغى ثالثاً، ولا يملأ جوف ابن آدم إلّا التراب، ويتوب الله على مَن تاب**»(٢).

ومن هنا؛ فالحريص مفتقر ومحتاج دائماً، والحاجة والعوز ترافقهما المعاناة والألم والحسرة دائماً، فليس ثمرة الحرص إلّا التعب والعذاب المستمرّ؛ وفي هذا الصدد جاء عن أمير المؤمنين عليه السلام: «**ثمرة الحرص العناء**»(٣).

وعليه؛ فالحرص والطمع والجشع ينتهي بالإنسان إلى التعاسة والشقاء والبؤس واليأس، ثمّ إنّ هذا الإنسان نفسه عندما يُريد البحث عن السبب لهذه النتيجة ينسب كلّ ذلك إلى الله، وينعته بالظلم وعدم العلم وعدم الرحمة، أو ينتج عن ذلك الإلحاد وإنكار الخالق، فيعتقد أنّ مثل هذا العالم المظلم وغير المنتظم بحسب اعتقاده ناتج عن صدفة عمياء، فقد ورد عن الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام: «**الحرْصُ يُفسِدُ الإيقان**»(٤).

إنّ الحاجة والفقر الناجمين عن الحرص يؤدّيان إلى الاضطرار إلى الفعل، وذلك بمعنى أنّ الإنسان الحريص حتّى يصل إلى ما يطمح إليه وما يتمنّاه يسعى إلى ابتغاء أيّ وسيلة وأيّ فعل لبلوغ ذلك، ويقترف أيّ رذيلة للوصول إلى مقصده. وعندما يغفل وينسى المتطلّبات الحقيقة والقِيَم والمبادئ الأساسيّة فكيف يُمكنه أن يبقى ملتزماً بالأخلاق وهو يواجه متطلّبات الحرص المتزايدة؟ «**الحِرْصُ مُوقِعٌ في كَثيرِ**

---

(١) المصدر السابق: ح ٦٦٣٠.

(٢) المالكي الأشتري، ورّام بن أبي فراس، تنبيه الخواطر ونزهة النواظر: ج١، ص١٦٣.

(٣) التميمي الآمدي، عبد الواحد، تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ص٢٩٤، ح٦٥٩٣. وقال: «ثمرة الحرص النصب». المصدر السابق: ح٦٥٩٤. وقال: «الحرص عناء مؤبّد». المصدر السابق: ح٦٥٩٠.

(٤) المصدر السابق: ص٢٩٥، ح٦٦٣٧.

العُيُوبِ»(١). أضف إلى ذلك، فإنّه حينما يكون تعاطي المرء مع الدنيا وبهارجها بالشكل الذي تكون هي غاية المُنى والأمل بالنسبة إليه، سيختل لديه نظام القِيَم والمبادئ، وسيقوم بتفسير الأخلاق الحسنة والسلوك الفاضل بأنّه ما يُؤمّن أكبر قدر من رغبات الدنيا وآمالها، وفي هذه الحالة ستسير طبيعة ذلك الفرد نحو الانحدار والرذيلة، بنفس الوقت الذي يكون فيه ـ وهو في هذه الحال ـ معتقداً بأنّه يقوم بعملٍ حسنٍ. قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا﴾(٢). ومن هنا، فإنّ الحرص والطمع يحطّ من قدر الإنسان وقيمته(٣).

إنّ مَثَل الحريص مع الدنيا مَثَل دودة القزّ التي كلّما دارت أكثر زادت عقدتها أكثر، وكان الخلاص عليها أصعب، فقد ورد عن الإمام الصادقعليه السلام أنّه قال: «**مَثَلُ اَلحَرِيصِ عَلَى اَلدُّنْيَا كَمَثَلِ دُودَةِ اَلْقَزِّ؛ كُلَّمَا اِزْدَادَتْ عَلَى نَفْسِهَا لَفّاً كَانَ أَبعَدَ لَهَا مِنَ الخُرُوجِ؛ حتّى تَمُوتَ غَمّاً**»(٤).

فالحزن والأسى الناجمان عن الحرص ليسا من أجل الخوف على ضياع ما عند الحريص من ثروة ومال، بل من أجل عدم بلوغ ما يطمح إليه ويقصده، الأمر الذي لا يرضى بنهاية ولا يهدأ بنسيان، «**كم من حريص خائب ومجمل لم يخب**»(٥).

الحلول والمعالجات

لا شكّ في أنّ صفة الحرص تنبع من عدم الثقة بالله والاعتماد عليه، قال الإمام

---

(١) المصدر السابق: ح٦٦٣٩، وفي نسخة أُخرى: (في كبير الذنوب).

(٢) الكهف: آية١٠٤.

(٣) قال أمير المؤمنينعليه السلام: «الحرص ينقص قدر الرجل ولا يزيد في رزقه». التميمي الآمدي، عبد الواحد، تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ص٢٩٥، ح٦٦٢٨.

(٤) الكليني، محمّد بن يعقوب، الكافي: ج٢، ص١٣٢.

(٥) التميمي، الآمدي، عبد الواحد، تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ص٢٩٥، ح٦٦٤١.

علي عليه السلام: «**فإنّ البخل والجبن والحرص غرائز شتّى يجمعها سوء الظن بالله**»(١)، وقال عليه السلام أيضاً: «**على الشكّ وقلّة الثقة بالله مبنى الحرص والشحّ**»(٢)، وقال كذلك: «**كيف يتخلّص من عناء الحرص مَن لم يصدق توكّله**»(٣).

إنّ الاعتماد على رازقيّة الله تحطّم الحرص والطمع وتجتث أصليهما، فالإنسان المؤمن بما أنّ لديه ثقة ويقيناً بالله يعتقد أنّ خالقه كما يرزقه ويُؤمّن عيشه الآن، فإنّه من دون شكٍّ سيمنحه هذا الرزق والعطاء في المستقبل أيضاً؛ وعليه فهو لا يغتمّ لرزقه فيما سيأتيه من الأيام، ولا يحرص أو يطمع.

إنّ من أهمّ عوامل مواجهة الجشع هو إدراك حقيقة أنّ رزق الإنسان مُقدّر ومعلوم، وأنّ أيّ نوع من أنواع الحرص أو الجشع لا ينجم عنه إلّا الانحطاط والوضاعة والهبوط في المنزلة والقيمة، ولا يُؤثّر إطلاقاً في زيادة الرزق: «**الحِرصُ لا يَزيدُ في الرِّزقِ، ولكنْ يُذِلُّ القَدْرَ**»(٤). وبالطبع، فلا شكّ بضرورة تأمين المعاش وكسب الرزق والمبادرة إليه، ولكن من الضروري أيضاً ألّا يستحوذ هذا الاندفاع على كلّ مساعي الإنسان، ويترك بسببه سائر الوظائف الأُخرى(٥).

---

(١) نهج البلاغة، تحقيق: صبحي الصالح: ص٤٣٠، الكتاب: ٥٣.

(٢) التميمي الآمدي، عبد الواحد، تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ص٧٢، ح ١٠٧٠.

(٣) المصدر السابق: ص١٩٧، ح٣٨٨٩.

(٤) المصدر السابق: ص٢٩٥، ح٦٦١٥.

(٥) فقد جاء في كلام الأئمّة المعصومين عليهم السلام هذا الأمر بعنوان (الإجمال في الطلب) على النحو التالي: «ألا وإنّ الرّوح الأمين نفث في روعي أنّه لن تموت نفس حتّى تستكمل رزقها، فاتّقوا الله وأجملوا في الطّلب، ولا يحمل أحدكم استبطاء شيء من الرّزق أن يطلبه بغير حِلّه؛ فإنّه لا يُدرك ما عند الله إلّا بطاعته». الكليني، محمّد بن يعقوب، الكافي: ج٢، ص٧٤.

كذلك فإنّ استذكار الموت هو الآخر يُعطي الحجم الحقيقي لعالم الدنيا ويمنحها منزلتها وصورتها التي تستحقّها، فإنّ تصوّر انسلاخ الروح من الجسد وانفصالها عنه، والتأمّل بأنّ المرء مهما يجمع من مال أو ثروة، ومهما يستمتع في هذا العالم، فإنّه سوف يفارقه دون شكٍّ أو ريبة، سوف يخفّف الحماس والاكتراث بالدنيا، وفي المقابل سوف يُثير في أعماق القلب الشوق للقاء الله عزّ وجلّ. فالتفكير بالموت يُظهر المتطلّبات الأساسيّة والحياتيّة للإنسان في الدنيا، ويُذيب الحاجات الوهميّة له، ويمنحه الرضا والقناعة. وفي هذا السياق يقول الإمام الصادق عليه السلام: **«مَنْ أَصْبَحَ وأَمْسَى والآخرة أَكْبَرُ هَمِّهِ جعَلَ الله اَلْغِنَى فِي قَلْبِهِ، وجَمَعَ لَهُ أَمْرَهُ، ولَمْ يَخْرُجْ مِنَ اَلدُّنْيَا حتّى يَسْتَكْمِلَ رِزْقَهُ. ومَنْ أَصْبَحَ وأَمْسَى واَلدُّنْيَا أَكْبَرُ هَمِّهِ جعَلَ الله اَلْفَقْرَ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، وشَتَّتَ عَلَيْهِ أَمْرَهُ، ولَمْ يَنَلْ مِنَ اَلدُّنْيَا إِلّا مَا قُسِمَ لَهُ»**(١).

الأسئلة

١ـ ماذا يعني خداع النفس، وما هي علاقته بنسيان الذات وإهمالها؟

٢ـ ما هي نتائج نسيان الذات، وما هي سُبل الخلاص منها؟ أرجو بيان ذلك باختصار.

٣ـ كيف يمكن التغلّب على ضعف الإرادة؟

٤ـ أرجو بيان جذور الطمع، وما هي طرق علاجه؟

٥ـ كيف يكون الطمع مؤدّياً إلى تعب الإنسان وعنائه؟

للبحث والتأمّل

١ ـ أرجو البحث عن دور العمل والفراغ في ضبط النفس والغلبة على هواها،

---

(١) المصدر السابق: ص٣١٩.

وكذا بيان أهميّة ملء أوقات الفراغ وكيفيّة إدارتها من خلال الاهتمام بالتعاليم الأخلاقيّة للدين الإسلامي.

٢ـ حبّذا لو يتمّ تعداد عوامل الهبوط الأخلاقي وموانع تعزيز الإرادة، والتحقُّق من المشاكل الأخلاقيّة لديكم من خلال ذلك.

الفصل الثامن

تحسين العلاقة مع الذات

(الحدّ الأدنى في الأخلاق الشخصيّة)

الأهداف

بعد مطالعة هذا الفصل يتسنّى للطالب أن:

١ـ يفهم أنّ معرفة النفس طريق أساسي للوصول إلى الكمال ومعرفة الله.

٢ـ يطّلع على سُبل معرفة النفس ويقف على ثمارها ونتائجها.

٣ـ يتعرّف على عقبات معرفة الذات التي تحول دون الوصول إلى الكمال.

٤ـ يتعلّم الطرق التي تؤدّي إلى ضبط النفس وترويضها.

٥. يعرف نتائج القناعة وفوائدها، وأضرار الطمع، وأهمّ موانع الوصول إلى فضيلة القناعة.

٦ـ يتعرّف على فضيلة التقوى وعناصرها وأقسامها.

***

ألف: معرفة الذات

من الطبيعي جدّاً أن يهتم الموجود ـ المجبول على حبّ الذات ـ بنفسه، ويسعى لمعرفةِ كمالاتها، وطرق الوصول إليها، وبالتالي فإنّ إدراك ضرورة معرفة النفس لا يلزمه مزيد بيان أو برهان معقّد، بل إنّ الغفلة عن هذه الحقيقة هو أمر غير طبيعي وانحراف عن العادة البشريّة، الأمر الذي يتطلّب البحث عن سببه ودواعيه، ومعرفة سبيل الخلاص والسلامة منه.

«اعلم أنّ مفتاح معرفة الله تعالى هو معرفة النفس، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْأَفَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾[1]، وكما قال

---

(١) فصلت: آية٥٣.

النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في نفس الصدد: مَن عرف نفسه فقد عرف ربّه. وليس شيء أقرب إليك من نفسك، فإذا لم تعرف نفسك، فكيف تعرف ربّك؟ فإن قلت: إني أعرف نفسي! فإنّما تعرف الجسم الظاهر، الذي هو اليد والرجل والرأس والجثّة، ولا تعرف ما في باطنك من الأمر الذي به إذا غضبت طلبت الخصومة، وإذا اشتهيت طلبت النكاح، وإذا جعت طلبت الأكل، وإذا عطشت طلبت الشرب. والدواب تُشاركك في هذه الأمور. فالواجب عليك أن تعرف نفسك بالحقيقة؛ حتّى تُدرك أيّ شيء أنت، ومن أين جئت إلى هذا المكان، ولأيّ شيء خُلقت، وبأيّ شيء سعادتك، وبأيّ شيء شقاؤك»(١).

ومن جهة أُخرى، فإنّ كلّ ما يسعى إليه الإنسان ويصبو إليه هو الحصول على مصالحه وبلوغ المنافع التي يرجوها؛ ومن هنا فإنّ معرفة الإنسان لذاته ومنازل الكمال في نفسه ينبغي أن تكون مقدَّمة على أيّ موضوع آخر، إذ إنّه من دون هذه المعرفة لا يبقى أساس لكل المساعي والجهود. هذا، وإنّ تأكيد الأديان السماويّة والزعماء الدينيين وعلماء الأخلاق على ضرورة معرفة النفس والاهتمام بها، لَهو إشارة واضحة إلى أهميّة هذه الحقيقة الفطريّة والعقليّة(٢).

«كلّما ازداد علم الرجل زادت عنايته بنفسه، وبذل في رياضتها وصلاحها جهده»(٣).

النتائج

إنّ مَن يتعرّف على شهواته وحِيَلها وقصر نظرها، ويستثير فطرته المحبّة للخير

---

(١) الغزالي، محمّد بن محمّد، كيمياء السعادة: ص٤٨.

(٢) أُنظر: مطهّري، مرتضى، الفطرة. وأيضاً: نفسه، الإنسان الكامل. وأيضاً: حسن زاده آملي، حسن، دروس معرفت نفس [=دروس في معرفة النفس]. وأيضاً: مصباح يزدي، محمّد تقي، معرفة الذات لبنائها من جديد، ترجمة: التسخيري، محمّد علي.

(٣) التميمي الآمدي، عبد الواحد، تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ص٢٧٣، ح ٤٧٦٨.

والهادية إليه، ويكتشف قداسة روحه وقابليّاتها، سوف لا يدفع طموحاته الدنيويّة الحكيمة ثمناً للرغبات العاجلة والعابرة. وإنّ مَن أزال عن نفسه حجب الغفلة، وسلك سبيل الذكر، حتى ترسّخ لديه الاعتقاد بكون روحه نفحة إلهيّة، سوف يُعدّ نفسه ليكون خليفة الله على الأرض.

إنّ معرفة النفس ووعي الذات تُعطي مستويات عالية من الشعور بالسعادة والأمل وعزّة النفس والثقة بها، وإنّ إدراك الوجود المتسامي للإنسان ومعرفة مقامه الحقيقي بعنوانه خليفة الله في الأرض، سيُيسّر له بلوغ حقيقة أسماء الله وصفاته وعمقها، وعندما يوقن المرء أنّ روحه هي قبس وشعاع من الوجود المقدّس لله تعالى، وأنّ حقيقته رشحة من رشحات أسماء الله الحسنى، وهي مؤثّرة في نفسه وأعماقه، عندها سيمتلئ نوراً وفرحاً وسروراً، وسوف يتقبّل الأفراح والأتراح بروح مفعمة بالمحبّة والصلابة.

والأعظم من كلّ ذلك هو أن يرى الإنسان نفسه متّصلاً بالله تعالى وتحت رعايته وفي محضره. فعندما يكون الله حاضراً في حياتنا يكون السكون والطمأنينة قد ملأتا وجودنا في ظلّ النور الإلهي المطلق. ومَن كان قلبه كذلك سوف لا يستفزّه ولا يُثيره أيّ شيء، ولا يكترث بشيء إلّا ذكره تعالى، فإنّ ذكره تعالى سوف يهزّ قلب الذاكر ويجذبه إلى مذكوره، وينصهر خوفه منه مع رجائه، وتجتاحه الهيبة مع المحبّة والعظمة، فينشدّ كلّ وجوده إلى ذلك الخالق العظيم، ولا شكّ بأنّ هذه التجارب والمخاضات العالية لمعرفة النفس لها مراتب ودرجات، وكلّ شخص يكتشف منها ما يتناسب مع استعداده وقابليّته المعرفيّة.

الحلول والمعالجات

إنّ للإنسان هويّةً إلهيّةً، وكلّ ما مُنح من استعدادات وقابليّات هي من أجل

الوصول إلى الله ومعرفة مقام العبوديّة؛ ومن هنا فلو تمّ تجاهل هذه القابليّة الأصيلة في الإنسان، عندها يكون الإنسان قد غفل عن أصل وجوده ونسي هويّته الحقيقيّة. وحين يعرف الإنسان نفسه عبر الارتباط بالله، يكون قد تعرّف على مكانته الأصيلة وقابليّاته الأساسيّة، فتكون قرارته متّسقة مع تلك القابليّات والاستعدادات، ويتجّه في مقام العمل نحو استثمارها.

إلى جانب ذلك، فإنّ التقوى وكبح جماح الشهوات النفسيّة العنيدة سينتهي بالإنسان إلى معرفة نفسه وتكاملها ورشدها. ومن هنا؛ فإنّ غير المتّقين لسيّئات النفس وغير المكافحين لشهواتهم سيبتلون بنسيان الذات وإهمالها، كما نقرأ في قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ۝١٨ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴾[١].

وفي ضوء هذه الآية فإنّ عدم التقوى يعني نسيان الله، ونتيجة ذلك هو نسيان النفس، وبعبارة أُخرى فإنّ التقوى هي سبب ذكر الله وبلوغ الوعي بالذات، وفي الواقع فإنّ ذكر الله إنّما يكون مؤثّراً فقط إذا كان مع التقوى، الأمر الذي سينتهي إلى البصيرة والوعي.

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَـٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾[٢].

إنّ الغفلة والانكباب على الدنيا يُعدّ من الموانع الأساسيّة عن معرفة النفس؛ وذلك لأنّ الحاجات والمتطلّبات المتعدّدة والمتنوّعة ـ لا سيّما في حياتنا المعاصرة ـ تُعدّ مثيرة للهواجس وموانع كبيرة تحول دون إدراك الذات وبلوغ التصوّر الحقيقي

---

(١) الحشر: آية١٨ـ١٩.

(٢) الأعراف: آية٢٠١.

للحياة الأبديّة، ولا شكّ بأنّ مواجهة هذه العقبات ممكن من خلال التفكّر في الحياة ونظام الخلقة، فإنّ التأمّل في أُمور من قبيل: ما هو سبب خلقة العالم والهدف من الوجود؟ وما هو دور الإنسان في ذلك؟ وأساساً ما هي الكيفيّة التي ينبغي أن تكون عليها الحياة؟

ومن هنا؛ فإنّ التفكّر والتأمّل سوف يُزيح غبار الغفلة، ويصقل باطن الإنسان ويطهّره، وعندها يُمكنه الوصول إلى الوعي الحقيقي بذاته.

ب. الالتزام الروحي وضبط النفس

ذكرنا سابقاً أنّ النفس الإنسانيّة تشتمل على الكثير من القوى، ومن أجل استثمار قابليّات النفس ينبغي إدارة هذه القوى وتنظيم العلاقة بينها بشكل جيّد، فلو اجتمع نجوم كرة القدم في فريق واحد، ولم يكن هناك خطّة وبرنامج موحّد يضبط دور هؤلاء النجوم، وكان مستوى التعاون والانسجام بينهم ضعيفاً، فمن غير المؤكّد نجاح ذلك الفريق. ومن أجل إدارة النفس ينبغي أيضاً التعرّف بعمق على طبيعة ذواتنا وقواها الباطنيّة والعقبات والمشاكل التي تواجهها، ويجب توظيف كلّ واحدة من تلك القوى بشكل مطلوب وسياق صحيح، والاستفادة منها في الوقت والمكان المناسبين، والحيلولة دون تداخل القوى في مجال بعضها مع بعض. مثال ذلك: علينا أن لا نسمح للمشاعر الحادّة والانفعالات النفسيّة والعاطفيّة أن تُؤثّر على القوّة العاقلة، وأن لا نتيح الفرصة لتلك العواطف والأحاسيس للمشاركة في الحكم والتقييم، بل ينبغي أن نحدّد لكلّ واحدة من تلك الميول والرغبات مجالها الصحيح ومضمارها المناسب، وعلى هذا النحو يتضاعف مستوى عمل كلّ واحدة من تلك القوى وكفاءتها من خلال تنظيمها وفق ظروفٍ خاصّة.

لا شكّ أنّ السعي لبلوغ الغاية القصوى للحياة يُواجه مصاعب وأخطار

متنوّعة، بمعنى أنّ الصفات السيّئة في الباطن الإنساني والخصال غير السويّة في السريرة البشريّة، مضافاً إلى جملة الاختلالات والاضطرابات الخارجيّة في عالم الدنيا تخلق جملة من العقبات. فمن جهة هناك دوافع داخليّة؛ كالكسل، واللّامبالاة، والأنانيّة، والغرور، والحرص والطمع، والدِعة، وحبّ الجاه والسمعة والرئاسة والرغبات الجنسيّة، وحبّ المال، ومن جهة أُخرى فإنّ غياب الظروف الملائمة ووجود التوجّهات التي تُفرَض على الأفراد من قبل الأُطر والأنظمة الاجتماعيّة هي الأُخرى تُساهم في منع الفرد من القيام بالتكاليف المطلوبة على المستويين الفردي والاجتماعي. وللتخلّص من هذه العقبات الداخليّة والخارجيّة يستلزم القيام بثلاثة أُمور:

١ـ وضع خطّة دقيقة.

٢ـ التنفيذ الصحيح، وهو يستدعي الحدّ الأعلى من الانسجام بين كلّ الاستعدادات، والاستثمار الدقيق لجميع القدرات الوجوديّة.

٣ ـ الهمّة والعزيمة والثبات اللّازم لمتابعة الأهداف.

لقد قلنا سابقا أيضاً: إنّ المفاهيم الأخلاقيّة في الثقافة الإسلاميّة جُعلت متّصلة بالرؤية التوحيديّة، وقد اكتسبت بهذه الصبغة الإلهيّة روحاً جديدة. ومن هذا المنطلق نجد في الأدب الأخلاقي الإسلامي أنّ ضبط النفس وكبح جماحها قد تضمّن نفحة دينيّة إلهيّة، ألا وهي فضيلة (التقوى)، والتقوى هي القدرة على ضبط النفس والسيطرة عليها، حيث قال الراغب في مفرداته: «**والتقوى جعل النفس في وقاية ممّا يُخاف**»[1].

---

(١) الراغب الأصفهاني، الحسين بن محمّد، المفردات في غريب القرآن: ص٨٨١ ـ مادّة: (وقى). وانظر أيضاً: الخميني، روح الله، الأربعون حديثاً: ص٢٠٤.

فالتقوى هي القوّة التي يتمكّن الإنسان بواسطتها من ردع النفس عن اقتراف الأعمال القبيحة وتلبية رغباتها الذميمة. وهذه المفردة يُمكن نسبتها إلى الأدوات والوسائل التي تستخدمها النفس لممارسة الفعل، فتقوى العين هي القدرة على مسك العين دون النظر إلى الحرام، وتقوى اللسان هي السيطرة على اللسان دون القول الفاحش، وتقوى البطن هي منعها عن أكل الحرام، وتقوى الذهن هي السيطرة عليه ومنع التصوّرات والأوهام الباطلة.

وقد جاءت هذه المفردة في الآيات الشريفة غالباً بمعيّة لفظ الجلالة، وهي في مقام وصيّة الإنسان وحثّه على التقوى الإلهيّة، قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾(١)، وقال أيضاً: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾(٢)، وقال كذلك: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ﴾(٣).

تُبيّن هذه الآيات الهدف والغاية من ضبط النفس وترويض الذات، بمعنى أنّ التقوى التي قصدها القرآن الكريم هي السيطرة على الذات وإدارة النفس وعدم الانصياع لها حين تدعو الإنسان لتلبية رغباتها الهابطة. قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾(٤).

ومن هنا؛ فإنّ التقوى في الثقافة القرآنيّة تشتمل على عنصرين أساسيّين: الأوّل: ضبط النفس والتحكّم في الذات، والثاني: استحضار وجود الله تعالى. فمَن كانت لديه القدرة على التحكّم بذاته تكون الموانع أمامه أقلّ لبلوغ المقصد، ولو كانت حركته نحو الله تعالى ستكون تلك الحركة أكثر سهولة.

---

(١) آل عمران: آية٢٠٠.

(٢) الشعراء: آية١٠٨.

(٣) العنكبوت: آية١٦.

(٤) النازعات: آية٤٠ ـ ٤١.

وفي الواقع فإنّ التقوى تنقسم إلى قسمين: التقوى قبل الإيمان والتقوى بعد الإيمان، والأُولى بمعنى ضبط النفس والانضباط الروحي، والثانية بمعنى خشية الله ومراقبة النفس؛ فإنّ التقوى التي يكون مبدؤها ومقصدها هو الله تقوم على الإيمان والاعتقاد به عزّ وجلّ، وتتجلّى بقصد إرضائه تعالى، فلو فقد إنسان ما الانضباط الروحي والسيطرة على النفس (التقوى العامّة)، فمن الطبيعي أن يخسر هداية الله وتوفيقه، ويفقد القابليّة على اقتباس النور الإلهي، قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَـٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ (١)(٢).

النتائج

إنّ الإدارة الصحيحة للقدرات والقابليّات الوجوديّة لدى الإنسان والثبات على ذلك يُمكّنه من الاستمرار في مواصلة الحركة رغم منعطفات الطريق. فالسيطرة على الذات والقدرة على ضبط الميول المعترضة تُزيل أسباب التوتّر والضعف، وتُضاعف القدرة على تحقيق المبادئ والأهداف السامية.

عند المواجهة مع وساوس النفس يكون أمام الإنسان صنفان من اللذّة: لذّة زائلة ومحدودة تفنى بسرعة، وسعادة طويلة الأمد تعقب لذّة مستدامة. إنّ وسوسة النفس تدعو إلى لذائذ سريعة الحصول وسريعة الزوال، فيما توفّر قوّة الإرادة القدرة على الاختيار الصحيح، والتنعّم بلذائذ أكبر وأكثر استمراراً. يقول الإمام

---

(١) البقرة: آية٢.

(٢) يقول العلّامة الطباطبائي في بيان المراد من هذه الآية: إنّها تبيّن بوضوح لا غبار عليه أنّ التقوى التي تسبق الإيمان التي تُعتبر شرطاً أساسيّاً لقبول الفيض واقتباس الهداية، ليست سوى الالتزام الروحي والقدرة على التحكّم بالنفس والذات. اُنظر: الطباطبائي، محمّد حسين، الميزان في تفسير القرآن: ج١، ص٤٤.

الصادقعليه السلام ـ في مقام مقارنته بين الشخصيّة الشهوانيّة والشخصيّة الأخلاقيّة مميِّزاً بينهما في القدرة على التحكّم في النفس والسيطرة على الذات ـ ما نصّه: «**كَم مِن صَبرِ ساعَةٍ قد أورَثَ فَرَحاً طَويلاً، وكَم مِن لَذَّةِ ساعَةٍ قد أورَثَت حُزناً طَويلاً**»(١).

عند الصراع بين الوساوس والشهوات من جهة وبين الأهداف والقِيَم المتعالية من جهة أُخرى، فإنّ الإنسان المبتلى بالحيرة والاضطراب سيكون متأرجحاً في فكره وسلوكه، فيميل تارةً إلى جانب وأخرى إلى جانب آخر. وفي هذا الحال تكون قوى الإنسان مبعثرة غير متّحدة ولا مستقرّة، وحينها يُصاب الفرد بالضعف والكآبة والعجز. ولكن مع التحكّم بالنفس والسيطرة على ميولها المتمرّدة وكبح شهواتها العابرة، تكون القوى الإنسانيّة قد استجمعت شتاتها واستقوت واتّحدت، وسيكون الفرد أقرب إلى بلوغ الهدف وأوفر حظّاً في تحقيق المقصد، وعلى ذلك يتضاعف مستوى القوّة والثبات، ويتعزّز النشاط والحيوية. وهنا يقول الإمام عليعليه السلام: «**أقوى النّاس أعظمهم سلطاناً على نفسه**»(٢).

فكلّما كان الإنسان أكثر قوّة وثباتاً أمام هوى النفس وميولها كانت قابليّته وقدرته على التحلّي بالكرامة والقِيَم النبيلة أكثر، ولكن شريطة أن يكون ترك هوى النفس في سبيل القيام بما يُريده الله تعالى لا في سبيل شيءٍ آخر، قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾(٣)، وقال أيضاً: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾(٤)، وقال كذلك: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾(٥).

---

(١) الطوسي، محمّد بن الحسن، الأمالي: ص١٥٣.

(٢) التميمي، الآمدي، عبد الواحد، تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ص٢٣٥، ح ٤٧١٧.

(٣) الحجرات: آية١٣.

(٤) آل عمران: آية٢٠٠.

(٥) النازعات: آية٤٠ ـ ٤١.

إنّ الفوز والفلاح هما من أكثر ما يهتمّ به الإنسان المتديّن، ولكن من خلال التقوى فقط يُمكنه تحقيق ذلك، قال تعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾[١].

ويقول الإمام علي عليه السلام «**التقوى غايةٌ لا يهلك مَن اتّبعها، ولا يندم مَن عمل بها؛ لأنّ بالتقوى فاز الفائزون، وبالمعصية خسر الخاسرون**»[٢].

إنّ الجنّة وعلى ضوء الصفات التي ذكرها القرآن الكريم لها[٣] هي عبارة عن الجزاء الذي يمنحه الله تعالى لأهل التقوى؛ كما أنّ الوقاية من عذاب وحزن يوم القيامة هي وعد بالسعادة والسرور لهم أيضاً. قال تعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾[٤]، وقال أيضاً: ﴿فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[٥].

ثمّ إنّ العباد المتّقين والصائنين لأنفسهم يتمتّعون في هذه الدنيا بنوعين من الهداية: الهداية التي تسبق التقوى وهي هداية ناتجة عن الفطرة السليمة عندهم، والأخرى هي الهداية التي تعقب التقوى، وهي الهداية التي أكرمهم الله بها جزاءً على تقواهم[٦].

الحلول والمعالجات

إنّ ضبط النفس وترويضها، والسيطرة على الدواعي والميول والتصرّفات

---

(١) النبأ: آية٣١.

(٢) ابن شعبة الحرّاني، الحسن بن علي، تحف العقول: ص١٦٤.

(٣) وأمثلة ذلك ما جاء في سور: التوبة: آية٧٢. يونس: آية٩. الرعد: آية٣٥. النحل: آية٣١. الكهف: الآيات٣١ و١٠٧. مريم: آية٦٣. الشعراء: آية٩٠. العنكبوت: آية٥٨. يس: آية٥٥.

(٤) القلم: آية٣٤. وقد جاء هذا المعنى كذلك في سور: آل عمران: آية١٣٣. الحجر: آية٤٥. النحل: آية٣٠ ـ ٣١. الذاريات: آية١٥. الطور: آية١٧. القمر: آية٥٤ ـ ٥٥. المرسلات: آية٤١.

(٥) الأعراف: آية٣٥.

(٦) أُنظر: الطباطبائي، محمّد حسين، الميزان في تفسير القرآن: ج١، ص٤٧ ـ ٤٨.

الصادرة عنها، يُمكن أن يتحقّق فقط على ضوء شروط وضوابط واضحة يُمكنها أن تُدير شؤون النفس وتُنظّم كلّ ميولها، وفي هذه الصورة تتبيّن الميول والرغبات الصحيحة ومن الدوافع النفسيّة الآمرة بالقبح والخطأ، ومتى ينبغي مداراة تلك الميول والرغبات والاستجابة إليها، ومتى يجب كبحها ومخالفتها. والبرنامج الواضح الذي تُدار النفس على ضوئه بتلك الصورة يسمّى الشريعة.

قال الإمام علي عليه السلام: «**الشريعة رياضة النفس**»[١].

إنّ الشريعة ترسم برنامجاً عمليّاً ينظّم سعي الإنسان في طريق التكامل، وينظّم أيضاً الطموحات السامية عند تعارضها مع الميول التي تحول دون ذلك، لا سيّما الرغبات والميول البشريّة الهابطة التي تقف دون تحقيق ذلك، والشريعة كذلك تُعطي الإنسان الاستعداد والقابليّة على الحكم والاختيار الصحيح في ظلّ الميول والنزعات المتعارضة.

إنّ النزعات والشهوات المخالفة للشريعة تُعدّ منعطفات خطيرة، ينبغي الابتعاد عنها والحذر منها، وأمّا سائر الميول الأُخرى عادةً ما تكون بصدد إبراز طريق النمو والازدهار، إذ يحتوي الباطن الإنساني على نزعات ورغبات متضادّة ومختلفة، ولو تمّ التخلّص من القبيح منها ستبقى الميول الحسنة والرغبات الطيّبة وتنمو. فلو قام شخص بذلك سيُدرك الخير ويعي الصلاح بشكل جيّد، وينجذب إليه بشوق، قال الإمام علي عليه السلام: «**عِنْدَ تَحَقُّقِ الإخْلاصِ تَسْتَنيرُ البَصائِرُ**»[٢]. أمّا إذا لم يكن هناك انضباط في السلوك على ضوء قانون وخطّة عمل محدّدة، ستتمرّد النفس

---

(١) التميمي الآمدي، عبد الواحد، تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ص٢٣٨، ح٤٧٩١.

(٢) المصدر السابق: ص١٩٨، ح ٣٩١٤.

وينعدم نشاط الإنسان بسبب ثقل العمل وتراكمه، وبالتالي فنموذج السلوك المنضبط والمحدّد، سيُسهم في تخليص الإنسان من الحيرة والارتباك.

يقول الإمام علي عليه السلام عن ذلك ما يلي: «**عِبَادَ الله إِنَّ مِنْ أَحَبِّ عِبَادِ الله إليه عَبْداً أَعَانَهُ الله عَلَى نَفْسِهِ، فَاسْتَشْعَرَ الحزْنَ، وتَجَلْبَبَ الخوْفَ، فَزَهَرَ مِصْبَاحُ الهُدَى فِي قَلْبِهِ**»(١).

ولا شكّ فإنّ العمل المستمرّ في أداء الواجبات وترك المحرّمات والمراقبة المتداومة للنفس وميولها يؤدّي إلى ظهور وتنامي ملكة التقوى في روح الإنسان(٢).

ج) القناعة

قيل إنّ الإنسان يهوى الخلود بالطبع ويطمع بالمزيد دائماً ولا يرضى بحدٍّ ومدى معيّن، وهذه المزيّة تجعل الإنسان في كفاح دائم من أجل بلوغ الكمال الأسمى والخير الأكثر، وخلاف المتوقّع فإنّ عالم الدنيا الماديّ لا يستوعب طموح الإنسان غير المحدود، وكلّما حظي الإنسان بنعم دنيويّة كبيرة وخير كثير كان شعوره بالحاجة أكثر. ودون شكٍّ فإنّه لا يمكن أن تُمنح جميع الخيرات الدنيويّة لكلّ مَن يطلبها ويبحث عنها، وأنَّ إرضاء جميع المتطلّبات الماديّة لجميع الناس غير ممكن.

ثم إنّ إدراك هذا الموضوع واستيعابه سيؤدّي إلى قناعة الإنسان بأنّ الدنيا غير جديرة بتلبية حاجاته ورغباته بتمامها، ومن خلال الوعي بحاجاته الحقيقيّة سيسعى لتلبيتها بالشكل الصحيح. وذلك لا يمكن إطلاقاً أن يتحقّق من دون الاستمتاع بجزء من النعم الدنيويّة لتدوم حياته؛ وعليه ينبغي أن يكون الاهتمام بالدنيا وخيراتها مأخوذاً بعين الاعتبار أيضاً.

---

(١) الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة، تحقيق: صبحي الصالح: ص١١٨، الخطبة ٨٧.

(٢) وهناك نماذج قرآنية عديدة تحدّثت عن ذلك، منها: البقرة: آية ١٧٩، ١٨٣، ١٨٧. آل عمران: آية١٣٣، ١٣٤. الأنعام: آية١٥٣. الأعراف: آية١٥٦. الروم: آية٣١.

قال تعالى: ﴿ وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ وَلَا تَبۡغِ ٱلۡفَسَادَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴾(١).

ومن خلال الجمع بين هذين الموضوعين يمكن الوصول إلى هذه النتيجة العقلانيّة التالية، وهي: ينبغي الرضا بالقليل لتأمين وتوفير المتطلّبات الماديّة في الحياة الدنيا، وعلى الرغم من أنّ الأهداف السامية تتطلّب همّة عالية ومستمرّة، إلّا أنّ الحياة المادّية يجب التعاطي معها بقناعة ورضا، بمعنى الاكتفاء بالثروة والمال والرفاهية المتاحة والحذر من المتطلّبات والحاجات الموهومة؛ ومن هنا فإنّ القناعة بدواً لا تعني ضبط السلوك فقط، بل هي تعني التحكّم بالحاجات، وترويض الفرد على الشعور بعدم الحاجة إلى ما لا تطاله يده، وما يقابل القناعة هو الحرص والطمع، وذلك ما سنتناوله.

النتائج

إنّ القناعة تقضي على الحسرة جرّاء عدم الحصول على ما يمكن بلوغه، وأنّها أيضاً تُطفئ جذوة الطمع في ما هو ليس في متناول اليد، وتبدّد الحزن والبؤس والعناء بسبب عدم بلوغ المنى والرغبات.

قال الإمام علي عليه السلام: «**مَن قنع لم يغتمّ**»(٢).

فبالقناعة تكون نعم الله ماثلة أمام أعيننا، ونشعر بعظمتها، فيعيش القانع ـ بدلاً من البؤس والقلق والاضطراب ـ الرضا عن الله والسعادة في الحياة، كما قال الإمام علي عليه السلام: «**القنوع عنوان الرضا**»(٣).

---

(١) القصص: آية٧٧.

(٢) التميمي الآمدي، عبد الواحد، تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ص٣٩٣، ح ٩٠٨٤.

(٣) المصدر السابق: ص٣٩١، ح٨٩٧٧.

وبما أنّ الفرد القنوع يعتبر أنّ ما لديه من سعة ورزق وثمرات كلّها من الله، فهو يُلاحظ أيّ نعمة مهما كانت بسيطة وعاديّة ظاهراً هي نعمة عظيمة وجليلة. فإنّ مقدار النعم والاستمتاعات لا ترتقي بمستوى اللذّة، بل إنّ طبيعة التعاطي مع النعم هي التي تحدد مستوى الاستمتاع بها والاستفادة منها. يقول الإمام عليعليه السلام: «**أَشكر النّاس أقنعهم، وأَكفرهم للنّعم أجشعهم**»(١).

إنّ القناعة تُظهر للإنسان قيمة النعم التي يستفيد منها ويتعاطى معها، وتخلّصه من الحاجات والرغبات الموهومة، وتقضي على وساوس الحرص والطمع، ومن هذا المنطلق نجد أنّ الله تعالى قد أوحى إلى داود قائلاً: «**وَضَعْتُ اَلْغِنَى فِي اَلْقَنَاعَةِ وهُمْ يَطْلُبُونَهُ فِي كَثْرَةِ المالِ فَلاَ يَجِدُونَهُ**»(٢).

ولا شكّ أنّ أهل القناعة بتقليصهم لدائرة احتياجاتهم قد أوصدوا الباب أمام ما يُسبّب لهم الذلّة والهوان، كما جاء في قول الإمام عليعليه السلام: «**مَن قنع كُفي مذلّة الطلب**»(٣).

إنّهم في الواقع يقتبسون ممّا قسم لهم الله وما أعطاهم التفاؤل والرضا والسعادة، ولا يرجون أكثر من ذلك، فعن الإمام عليعليه السلام أيضاً: «**مَن قنع بقسم الله استغنى عن الخلق**»(٤).

وعليه؛ فإنّ هؤلاء لا يفتقرون إلى ما في أيدي الناس، ويعيشون بينهم بعزّة

---

(١) المفيد، محمّد بن محمّد، الإرشاد: ج١، ص٣٠٤.

(٢) ابن فهد الحلّي، أحمد بن محمّد، عدّة الداعي ونجاح الساعي: ص١٧٩.

(٣) التميمي الآمدي، عبد الواحد، تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ص٣٩٢، ح ٩٠٢١.

(٤) المصدر السابق: ص٣٩٣، ح٩٠٥٩.

نفس وتعفّف في الحياة من دون أن تصبو أعينهم على ما عندهم من ثروة وقدرة وجاه. قال الإمام علي عليه السلام: «**قد عزّ مَن قنَع**»(١). كما بيّن الإمام الحسين عليه السلام في حديث له أنّ مَن يطلب الأُمور بقدَر لا يجازف في وضع نفسه في الصعاب والمهالك(٢)، بل يعمل بما يكفيه ويسدّ حاجته بشوق وإخلاص كاملين.

مضافاً إلى ذلك، فإنّ تعزيز روح القناعة مؤثّر جدّاً في غلبة هوى النفس وترويض جماحها، فمَن يتمكّن من زرع القناعة في أعماق نفسه، سوف يُمسك بزمام نفسه، ويستطيع بسهولة تدبير أُموره الأُخرى وتنظيمها. قال الإمام علي عليه السلام: «**أعونُ شيء على صلاحِ النفسِ القناعة**»(٣)، فكما نعلم أنّ التعلّق بالدنيا والتمسّك بملذّاتها هي أساس الخطايا والذنوب، كما أنّ أساس طلب الدنيا يتمثّل في الحرص والطمع، ولا شكّ أنّ القناعة تحول دون التعلّق الشديد بالدنيا، وتُعين العقل في الغلبة على الشهوات والنزوات النفسيّة. ومن الآثار الأُخرويّة للقناعة تخفيف الحساب في يوم القيامة، وبذلك ورد قول رسول الله صلى الله عليه وآله: «**اقْنَعْ بِما أُوتيتَهُ يَخِفَّ علَيكَ الحِسابُ**»(٤).

وعن الإمام الصادق عليه السلام: «**مَن رضي من الله باليسير من المعاش رضي الله عنه باليسير من العمل**»(٥).

---

(١) المصدر السابق: ص٣٩٣، ح ٩٠١٨.

(٢) لعلّه يُشير إلى ما روي عن الإمام الحسين عليه السلام: «القُنُوع راحةُ الأبدان». المجلسي، محمّد باقر، بحار الأنوار: ج٧٥، ص١٢٨. (خ).

(٣) التميمي الآمدي، عبد الواحد، تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ص٣٩١، ح٨٩٨٤.

(٤) الديلمي، حسن بن محمّد، أعلام الدين في صفات المؤمنين: ص٣٤٤.

(٥) الكليني، محمّد بن يعقوب، الكافي: ج٢، ص١٣٨.

الحلول والمعالجات

من السُّبل المؤثّرة في الحصول على مكارم الأخلاق لا سيّما في مجال نيل القناعة هو ترويض النفس عليها. قال الإمام علي عليه السلام: «**مَن تقنَّع قَنِع**»(١).

إنّ السلوك والتصرّف يُؤثّر حتماً على الروح، كما أنّ الروحانيّات والباطن النفسي يتجلّى في الظاهر والسلوك؛ ومن هنا فإنّ تطبيق القناعة وممارستها مع التصبّر والتحمّل والترويض سوف يغيّر في طبيعة الفرد شيئاً فشيئاً، حتّى تكون القناعة سجيّة طبيعيّة وملكة مغروسة فيه.

ومن الحلول التي يمكن أن تكون ناجعة هنا هو طريقة الاستبدال، والتي تعني أنّه كلّما وضعنا رغبةً وطموحاً أُخرويّاً محلّ الطموح والرغبة الدنيويّة كانت القناعة أسهل، فقد جاء في إحدى الروايات: «**مَن رَغِبَ في نَعيمِ الآخرة قَنِعَ بِيَسيرِ الدُّنيا**»(٢).

حيث إنّ الإنسان حينما يُفكّر بالنعم الأخرويّة العظيمة والمستدامة تضعف لديه الرغبة بالاستمتاعات الدنيويّة المنقطعة، ويُضيء في وجوده نور الاشتياق إلى الحياة الأُخرى والسعادة النقيّة الخالدة بعد الموت، وفي هذا الحال تضحى الدنيا بكلّ ما فيها من جمال وبريق كاذب مجرّد ألوان ومظاهر تتهاوى أمام عينيه.

إنّ أساس القناعة هي العفّة والإمساك والكفّ، فمَن يتمكّن من لجم شهواته ورغباته النفسانيّة، سوف يكون شعوره بالحاجة والفقر أقل؛ وبناءً على ذلك فإنّ بلوغ القناعة والكفاف يلزمه تعزيز العفّة في النفس.

إذاً كلّما وقف المرء أمام نزعاته باطمئنان أكبر وتماسك أشدّ، كان مستوى

---

(١) التميمي الآمدي، عبد الواحد، تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ص٣٩٣، ح٩٠٨٣.

(٢) المصدر السابق: ص١٤٧، ح٢٦٧٣.

قناعته بالمُتع الدنيويّة أكبر وأقوى. يقول الإمام علي عليه السلام: «**على قدر العفّة تكون القناعة**»(١).

إنّ من العقبات التي تحول دون القناعة هو التواصل مع الأثرياء ومجالسة أهل المال الذين يُغدقونها دون حساب، فإنّ مخالطة أهل الترف من الناس ومعايشة المبذّرين والمسرفين منهم سيكون سبباً لاستصغار النِعَم واتّساع نطاق الرغبات والاحتياجات؛ ومن هنا فمن الأفضل الحدّ من رقعة هذه العلاقات والمعاشرات، وإن اضطرّ الشخص إلى ذلك، بأن كان أولئك من الأقرباء والأرحام، فينبغي التواصل والمعاشرة أكثر مع الفقراء والمعدمين؛ لتلافي ما يُمكن أن يلحقه من ضرر.

وهناك نقطة أُخرى، وهي: إنّ الحرص والطمع والشعور بهما عادة ما يحصل بسبب الخوف من المستقبل والمتطلّبات الحياتيّة القادمة، ومن أجل الحيلولة دون حصول ما لا يُحمد عقباه من مشاكل بسبب تصاريف الزمن وتعاقب الأحداث، ففي مثل ذلك ينبغي أن نعي أنّ رزق كلّ يوم مجعول لذلك اليوم، وإنّ الله تعالى الذي رزق العباد حتّى ذلك اليوم سوف لا يتركهم في الأيام القادمة. وعليه فإنّ العبد لو سعى بمقدار طاقته سوف يبلغ رزقه في حينه، وليس من الضروري أن يحرم نفسه من لذّة وطمأنينة القناعة وبركة شكر النعمة، ويرهق نفسه بالحرص، ويرهق قواه باللّهث وراء المزيد. فقد ورد في الأثر: «**لا يهمنّك رزقُ غد**»(٢)، وورد أيضاً: «**إنّ الله تعالى سيؤتيك في كلّ غدٍ جديدٍ ما قسم لك**»(٣).

---

(١) المصدر السابق: ص٣٩٣، ح٩٠٦٨.

(٢) الصدوق، محمّد بن علي، كمال الدين وتمام النعمة: ص٤٠٠.

(٣) نهج البلاغة، تحقيق: صبحي الصالح: الحكمة ٣٧٩.

الأسئلة

١ ـ أرجو بيان ضرورة معرفة النفس في ضوء تعاليم الدين الإسلامي الحنيف.

٢ ـ ما هي العلاقة بين معرفة النفس ومعرفة الله؟

٣ـ أرجو توضيح مفهوم معرفة الذات، وذكر أهمّ العقبات التي تحول دون ذلك.

٤ ـ أرجو تعريف مفهوم إدارة الذات، وبيان ما هي أهم النكات التي ينبغي توفّرها في إدارة الذات.

٥ـ ما هو تعريف التقوى؟ وما هي أقسامها؟

٦ ـ ما هي السبل المؤثّرة في اكتساب مكارم الأخلاق؟

للبحث والتأمّل

١ ـ ابحث عن دور معرفة النفس ووعي الذات في تنمية الفضائل الأخلاقيّة.

٢ ـ لو كانت القناعة تعني الاكتفاء بمقدار الحاجة، وتحول دون بذل الوسع للحصول على ثروة أكثر، أفلا يكون ذلك مانعاً عن تكامل المجتمع وازدهاره، ومانعاً أيضاً عن نموّ الإنتاج بشكل أكبر وسبباً في تخلُّف الدول الإسلاميّة عن مسار التطّور والتنمية الاجتماعيّة؟

الفصل التاسع

العلاقة النموذجيّة مع الذات

(الحدّ الأعلى في الأخلاق الشخصيّة)

الأهداف

إنّ الطلّاب الأعزاء بعد الانتهاء من قراءة هذا الفصل يُمكنهم:

١ ـ التعرّف على طرق الوصول إلى الحكمة، وذلك من خلال التعرّف على معنى الحكمة وبعض علاماتها وخصائصها.

٢ ـ تأمين المتطلّبات المعرفيّة والتحفيزيّة لنيل فضيلة الحكمة، عبر الوقوف على فوائد الحكمة وموانعها.

٣ ـ فهم المعنى الحقيقي لعزّة النفس وكرامتها، والتعرّف على ضوابط تحصيلها، وكيفيّة توظيفها في سبيل تحصيل كرامة النفس.

٤ ـ الاطّلاع على فضيلة العفّة والتعفّف، وتعلّم سُبل بلوغ ذلك.

٥ ـ إدراك التفاوت والاختلاف بين حاجات المرأة وحاجات الرجل، وأهمّية تنظيم الغريزة الجنسيّة.

٦ ـ اكتشاف دور الإنسان ومكانته في الوجود، وكذلك التعرّف على قيمة ومقام الإنسان الذي يتحلّى بالعزّة بين الناس، وتأثيرات هؤلاء الأفراد على الآخرين.

٧ ـ الوقوف على تأثير العفّة على الشخصيّة، والاطّلاع على المخاطر والآفات التي تحول دون التخلّق بها.

❋❋❋

أ) الحكمة

تعني الحكمة المعرفة والتعقّل، وقد اعتبر علماء الأخلاق أنّها المعرفة المتحوّلة إلى القدرة، بمعنى أنّها العلم والإدراك الذي يُمكّن الإنسان من إنجاز أعماله بأفضل صورة ممكنة، وكذلك قدرة العقل على إرشاد القوى الشهويّة والغضبيّة والتحكّم بها.

كما نقرأ عن ذلك في الرواية التالية: «**لا تَسكُنُ الحِكمَةُ قَلباً مَع شَهوَةٍ**»(١).

إنّ الحكمة والعقل متلازمان، فالحكيم هو الذي يعمل في ضوء العقل لا في ضوء الهوى، ويتصرّف ببرهان ودليل وليس بطريقة عشوائيّة؛ ولذا تجد أنّ ما يقوم به من سلوك يكون متقناً ومحكماً. والعقل بدوره ينقسم إلى قسمين، هما: (العقل النظري) الذي يُطلق على الفكر وقوّة المعرفة، و(العقل العملي) الذي هو تطبيق واستخدام تلك الأفكار. ومن هنا فكلّ فرد يعمل على خلاف علمه وفهمه يكون عمله خلاف العقل؛ أي: إنّه لا يكون عاقلاً.

والجهل يقابل العقل، وهو على معنيين: الأوّل: فقدان العلم، والثاني: عدم تفعيل ذلك العلم والاستفادة منه رغم وجوده. قال الإمام علي عليه السلام: «**رُبَّ عالم قد قَتلَه جهلُه وعلمُه معه لا يَنفعُه**»(٢).

وقال أيضاً: «**من الحِكْمَةِ أَنْ لاَ تُنَازِعَ مَنْ فَوْقَكَ، ولاَ تَسْتَذِلَّ لِمَنْ دُونَكَ، ولاَ تَتَعَاطَى مَا لَيْسَ فِي قُدْرَتِكَ، ولاَ يُخَالِفَ لِسَانُكَ قَلْبَكَ ولاَ قَوْلُكَ فِعْلَكَ، ولاَ تَتكَلَّمَ فِيمَا لاَ تَعْلَمُ**»(٣).

ومن خلال العمل وطهارة الروح سوف يشعّ نور الحكمة في روح الإنسان وأعماقه، ويملأ قلبه وجوانحه، وكلّما تعزّزت روح التقوى والنقاء والطهارة، سيتّصل الفكر البشري بنور العلم الإلهي، ويجري علم الله على عقل الإنسان وقلبه، وتظهر حكمته فيه. قال أمير المؤمنين عليه السلام: «**مِن خَزائنِ الغَيبِ تَظْهَرُ الحِكمَةُ**»(٤).

---

(١) التميمي، الآمدي، عبد الواحد، تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ص٥٨، ح ٦٠٩.

(٢) نهج البلاغة، تحقيق: صبحي الصالح: الحكمة ١٠٧. وهذا القول إشارة إلى المعنى الثاني من الجهل.

(٣) التميمي الآمدي، عبد الواحد، تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ص٥٩، ح٦٣٨.

(٤) المصدر السابق: ص٥٨، ح٦٠٧.

إنّ الحكمة الإيمانيّة وبمعيّة الصفات (الإلهيّة ـ الإنسانيّة المتعالية) تتسامى بالروح البشريّة، وتمنح الفرد أبهى صورة وأروعها، «**الحُكَماءُ أشرَفُ النّاسِ أنفُساً، وأكثَرُهُم صَبراً، وأسرَعُهُم عَفواً، وأوسَعُهُم أخلاقاً**»(١).

إنّ العلم يستحكم بالعمل ويتقوّى به، وكلّما كان العمل أفضل وأحسن كان العلم أكثر تأثيراً وأعمق تفاعلاً. ومن هنا فالحكمة هي ثمرة المنهج الصحيح في الحياة، والاستقامة في العيش. والحكمة أيضاً هي استحكام العلم الإلهامي بالمحاسن والمساوئ(٢)، ورسوخ هذا العلم في أعماق الإنسان، والذي يُمكّنه من الاحتراز عن الإفراط والتفريط في استخدام قوى الشهوة والغضب، ويصونه من الاندفاع وراء الدواعي الموهومة والعديمة الفائدة.

النتائج

إنّ الاختلاف والتباين بين المبادئ والسلوك، والقول والعمل، والفكر والخطاب يُولّد الاضطراب والقلق. والحكمة هي التي تُعالج هذا الاضطراب.

إنّ العلم والحكمة يوسّعان وجود الإنسان، ويرتفعان به إلى مقامات ومنازل سامية، حتّى أنّ الناس حينما يلتقون الحكيم يتعرّفون على فضله وعظم شأنه، ويرون أنفسهم صغاراً بين يديه. فقد ورد في الحديث: «**ومَن عُرف بالحكمة لَحَظَته العيون بالوقار والهيبة**»(٣).

وجاء في وصيّة لقمان الحكيم لولده: «**يَا بُنَيَّ تَعَلَّمِ العلم والحِكْمَةَ تَشَرَّفْ؛ فَإِنَّ الحِكْمَةَ تَدُلُّ عَلَى الدِّينِ، وتُشَرِّفُ العَبْدَ عَلَى الحُرِّ، وتَرْفَعُ المِسْكِينَ عَلَى الغَنِيِّ، وتُقَدِّمُ**

---

(١) المصدر السابق: ح٦٢٨.

(٢) وهو ما يدلّ عليه قوله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾. الشمس: آية٧ـ ٨.

(٣) الكليني، محمّد بن يعقوب، الكافي: ج٨، ص٢٣.

اَلصَّغِيرَ عَلَى الكَبِيرِ، وتُجْلِسُ المِسْكِينَ مَجَالِسَ اَلْمُلُوكِ، وتَزِيدُ اَلشَّرِيفَ شَرَفاً واَلسَّيِّدَ سُؤدَداً والغَنِيَّ مَجْداً»(١).

ونقرأ في قوله تعالى: ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ...﴾(٢).

الحلول والمعالجات

إنّ الحكمة تنبع من نقاء القلب وصفائه، وفي قبال ذلك فإنّ الشهوة والخضوع لهوى النفس تملأان القلب كدراً وظلاماً؛ فإنّ الشهوات تُقلق الروح وتطرد الهدوء والسكينة من النفس، وتحول دون اقتباس الأنوار السماويّة والهداية الربّانيّة؛ يقول الإمام عليعليه السلام: «**اغْلِبِ الشَّهْوَةَ تَكمُلْ لكَ الحِكمَةُ**»(٣) ويقول أيضاً: «**أوّلُ الحِكمَةِ تَرْكُ اللَّذّاتِ، وآخِرُها مَقْتُ الفانِياتِ**»(٤).

إنّ التعلّق بالدنيا يُربك روح الإنسان، ويُفسد الأرضيّة المناسبة لنموّ الحكمة ورُشدها. وفي المقابل فإنّ الزهد وإبعاد القلب عن طلب الدنيا يجعل القلب مستعدّاً للتشرّف بالانتهال من العلم الإلهي، واكتساب الحكمة. فعن الإمام الصادقعليه السلام: «**مَنْ زَهِدَ فِي الدُّنْيَا أَثْبَتَ الله الحِكْمَةَ في قَلْبِهِ، وأَنْطَقَ بِهَا لِسَانَهُ، وبَصَّرَهُ عُيُوبَ الدُّنْيَا دَاءَهَا ودَوَاءَهَا، وأَخْرَجَهُ مِنَ الدُّنْيَا سَالِماً إلى دَارِ السَّلَامِ**»(٥).

ثمّ إنّ الحكمة مع أنّها أمر معنوي وروحاني، فهي تتأثّر بالأحوال المختلفة للجسم

---

(١) الديلمي، الحسن بن محمّد، أعلام الدين في صفات المؤمنين: ص٩٣.

(٢) البقرة: آية٢٦٩.

(٣) التميمي الآمدي، عبد الواحد، تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ص٣٠٤، ح٦٩٤٤.

(٤) المصدر السابق: ص٥٩، ح٦١٨.

(٥) الكليني، محمّد بن يعقوب، الكافي: ج٢، ص١٢٨.

والبدن، وتتفاعل سلباً وإيجاباً معه، مثال ذلك: إنّ البطن الممتلئة مثلاً لا تُرهق البدن وتشيع فيه الخمول فحسب، بل تمنع القلب أيضاً من التكامل، وتؤدّي إلى الكسل؛ وعندها تتلاشى القدرة والاستعداد لتقبّل الحكمة واستيعابها. هذا وقد جاء عن رسول الله ﷺ: «**القَلبُ يَتَحمّلُ الحِكمَةَ عند خُلُوِّ البَطْنِ. القَلبُ يَمُجُّ الحِكمَةَ عند امْتِلاءِ البَطْنِ**»(١).

كذلك فإنّ الحكمة تسكن وتترعرع في روح الإنسان المتواضع، وتفرّ من القلوب المتكبّرة والنفوس المتعالية، التي انخدعت بزيف الأفضليّة على الآخرين. فإنّ هذا الوهم والكذب سوف يفوّت الفرصة على الذات البشريّة إمكانيّة بلوغها إلى العظمة الحقيقيّة وغرس الحكمة فيها.

«**الحكمة تعمُر في قلب المتواضع، ولا تعمُر في قلب المتكبّر الجبّار؛ لأنّ الله جعل التواضع آلة العقل**»(٢).

ب) الكرامة وعزّة النفس

كلّ موجود يتّصف بالكمالات التي تليق به وتسلب عنه النقائص والعيوب، يسمّى كريماً؛ وعليه يمكن اعتبار أنّ كرامة الإنسان هي قيمته ومكانته؛ بمعنى أنّ الله تعالى قد منحه الكمالات والنعم: كالعقل والاختيار، هذا من جهة، ومن جهة أُخرى قد أودع في وجوده القابليّات والاستعدادات اللّازمة لنيل تلك المنازل العليا من الكمال والتسامي المعنوي، وهي قابليّات لا يمكن أن تمتلكها سائر المخلوقات؛ قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾(٣).

---

(١) المالكي الأشتري، ورّام بن أبي فراس، تنبيه الخواطر ونزهة النواظر: ج٢، ص١١٩.

(٢) ابن شعبة الحرّاني، الحسن بن علي، تحف العقول: ص٣٩٦.

(٣) الإسراء: آية ٧٠.

إنّ هذه المنزلة والمكانة من العزّة والكرامة هي منزلة ومرتبة ذاتيّة ومشتركة بين سائر أفراد النوع البشري، ولكنّ الإنسان ومن خلال الإرادة والاختيار يُمكنه أن يُنضّج قابليّاته ليبلغ بها المنازل العالية، وهذه المنزلة من الكرامة هي منزلة اكتسابيّة، تأتي بعد المجاهدة والمسيرة الأخلاقيّة(١)، وقد جعل القرآن الكريم المتّقين هم في أعلى تلك المنزلة وأسماها، قال تعالى: ﴿... إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾(٢).

فمَن يحوز على جوهر نفيس، يحرص عليه ويراقبه بشدّة، وكلّما كان ذلك الجوهر النفيس أكثر ندرة وذا قيمة أكبر، وكانت معرفة الإنسان به أكثر، ستكون المراقبة والحرص عليه أشدّ، خصوصاً لو أدرك أنّ هذا الجوهر النفيس لو تمّ التعامل معه بشكل صحيح، وتمّ شحذه وصقله بصورة جيّدة، سوف تكون قيمته أكثر بكثير ممّا هو عليه.

ومن أجل المحافظة على هذه العطيّة الإلهيّة ينبغي التحلّي بصفةٍ يُعبّر عنها في التعاليم الدينيّة بالعزّة، والتي تعني الصلابة والثبات وعدم الخضوع(٣). وبما أنَّ العزيز يصون كرامته وقيمته الوجوديّة، فهو يتصف بالعظمة والشرف. إنّ الإنسان العزيز يشعر بالقيمة والشموخ، ولا يذلّ نفسه أبداً.

---

(١) «والكرم إذا وُصف الله به فهو اسم لإحسانه وإنعامه، وإذا وُصف به الإنسان فهو اسم للأخلاق والأفعال المحمودة الّتي تظهر منه». الراغب الأصفهاني، الحسين بن محمّد، المفردات في غريب القرآن: ص٧٠٧.

(٢) الحجرات: آية١٣.

(٣) «العزيز الذي يقهر ولا يُقهر، فإنّ العزّة التي لله هي الدائمة الباقية، وهي العزّة الحقيقيّة». الراغب الأصفهاني، الحسين بن محمّد، المفردات في غريب القرآن: ص٥٦٣.

وفي ضوء ما يرى القرآن الكريم فإنّ العزّة الحقيقيّة لله وحده، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾(١). وهو الذي يمنحها لمن يشاء. قال تعالى: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾(٢). فمن خلال البحث والمطالعة في الآيات الكريمة والنصوص الروائيّة الشريفة يمكن الوقوف على سُبل نيل العزّة الإلهيّة والتحلّي بها، وتلك السبل هي الإيمان والأخلاق الحسنة. قال تعالى: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٣).

وفي ضوء الروايات الشريفة فإنّ بعض الصفات الأخلاقيّة تأخذ بيد الإنسان إلى عزّة النفس وكرامتها، وتلك الصفات من قبيل: التقوى، والالتزام بالحقّ، والصدق، والابتعاد عن الطمع، وإنصاف الناس، والابتعاد عن إيذائهم، والتسامح والعفو، وحفظ اللسان من الزلل، والحلم وكظم الغيظ، والصبر على المصيبة، والقناعة(٤). وبعبارة أُخرى: إنّ التغلّب على الأبعاد والصفات الحيوانيّة سيُظهر العزّة والكرامة في الذات، ويمنح الإنسان كبرياءً وشموخاً.

النتائج

إنّ الاتّصاف بكرامة النفس يجعل الإنسان مترفّعاً عن التأثّر والاكتراث بالنجاحات أو الخسائر، ونتيجةً لما يجد في نفسه من الاستغناء وعدم الحاجة سوف

---

(١) يونس: آية٦٥.

(٢) آل عمران: آية٢٦.

(٣) المنافقون: آية٨.

(٤) أُنظر: الريشهري، محمّد محمّدي، ميزان الحكمة، الأحاديث المتعلّقة بالعزّة.

تغمره سعادة عارمة وطمأنينة لا حدود لها أكثر من السرور والفرح الموجود في هذا العالم. ومن هنا، فإنّ علماء الأخلاق يعتبرون عزّة النفس تُلازم الصلابة في مواجهة المشاكل وعدم الاكتراث بمنغّصات الحياة.

إنّ الامتناع عن ممارسة الأعمال الدنيئة واحتلال مكانة إنسانيّة رفيعة، تُزيح الكثير من الاضطرابات والقلق والخوف. إنّ الإنسان الخلوق ومن خلال اقتفائه السلوك الصحيح سوف تكون ممارساته دائماً متماشية ومنسجمة تماماً مع الأهداف الكبيرة والغايات الإنسانيّة المتساميّة؛ ونتيجة ذلك تجده يشعر بالعظمة والعزّة والهدوء.

إنّ التحلّي بالعزّة والكرامة يُعزّز من احتمال النجاح والتفوّق، ويخلق سعادة عميقة واستقراراً كبيراً في روح الإنسان، والسعادة الناتجة عن عزّة الإنسان وإبائه تتناسب مع طبع الإنسان وكيفيّة تعاطيه مع الحياة، ومن هنا فسوف يكون تأثيرها في ذات الإنسان عميقاً ومستداماً.

تُعدّ العزّة العنصر الذي تبتني عليه الثّقة بالذات ويُؤسس للإنتاج والإبداع. فكلّ مخلوق ينفرد بجملة من الخصائص والمزايا والاستعدادات المتفاوتة، وهذه التباينات والاختلافات هي التي تمنح الحياة الاجتماعيّة للناس نظماً ونسقاً خاصّاً؛ ولذا فإنّ الأشخاص الذين يتمتّعون بعزّة النفس والثقة بالذات يعرفون قدر المواهب الإلهيّة الممنوحة لهم، ويسعون إلى إبرازها باشتياق، وفي هذا الصدد يرتقي الإيمان بالإله الرحيم بالثقة بالذات إلى مستوى التمتّع بالألطاف الإلهيّة اللامتناهية.

إنّ الاعتزاز بالذات ـ خصوصاً عندما يرافقه الإيمان والثقة بالله، ويتمّ تخليصه من العُجب والأنانيّة والشهوانيّة ـ يستدعي محبّة الآخرين. وإنّ التناغم والانسجام بين أقوال الفرد وأفعاله، سوف يُظهره بمظهر الشخص النموذجي والمثالي الذي يُحبّه كلّ إنسان؛ فإنّ الإنسان العزيز يقول كما يفكّر، ويعمل كما يقول، وهذا الصدق

مع الذات المثير للإعجاب كفيلٌ بأن يُثير في القلوب محبّته، ويُجري مديحه على الألسن.

إنّ عزيزي النفوس يعيشون الحياة بوعي، وينظرون إلى الأشياء كما هي بواقعيّة وموضوعيّة، وفي مقابل ذلك فهم يتحمّلون المسؤوليّة أمام أخطائهم وفشلهم، ويسعون سعياً حثيثاً من أجل إصلاح ما فسد من الأُمور، ويبذلون جهوداً عظيمة لتحقيق الآمال والطموحات.

الحلول والمعالجات

يُعتبر الإيمان معيار التحلّي بالكرامة والعزّة والثقة بالنفس، وكلّما نما هذا المعيار وتكامل كانت عزّة النفس أكثر، وعبر ملاحظة ماهيّة الإيمان بدقّة نفهم أنّ الإيمان هو عبارة عن علم عملي؛ والعلوم العمليّة تتناسب قوّة وضعفاً بحسب قوّة الدواعي وضعفها(١).

فكلّما كان الاعتقاد بالله والمعاد والنبوّة أوثق وأشدّ اكتسب وجود الإنسان معنىً أكثر عظمة وبهاء، فيبلغ حالاً لا يبيع فيه نفسه بأيّ ثمن ولا يبذلها كيفما اتّفق، وتضحى أشدّ الصعوبات وأقسى المحن سهلة يسيرة أمامه؛ ولذلك نجد أنّ علماء الأخلاق يصفون أصحاب النفوس العزيزة بما يلي: «**وصاحب هذه المَلَكة لا يبالي بالكرامة والهوان، ويتساوى عنده الفقر واليسار والغنى والإعسار، بل الصحّة والمرض، والمدح والذمّ، ولا يتأثّر بتقلّب الأُمور والأحوال. وهي مَلَكة شريفة ليست شريعة لكلّ وارد، ولا يصل إليها إلّا واحد بعد واحد، بل لا يحوم حولها إلّا أوحديٌّ من أفاضل الحكماء، أو ألمعيٌّ قويُّ القلب من أماثل العرفاء**»(٢).

ومن هنا؛ يمكن ـ عبر تعزيز الإيمان والثقة بالله ـ بلوغ درجات عالية من عزّة

---

(١) أُنظر: الطباطبائي، محمّد حسين، ترجمة تفسير الميزان: ج١٥، ص٨.

(٢) النراقي، محمّد مهدي، جامع السعادات: ج١، ص٣٢٠.

النفس وكرامة الذات، فمن خلال الرجوع إلى الله والتوبة إليه والإحساس بالتقرّب إليه، والذي يُعدّ في الواقع إدراك النبع والمصدر غير المتناهي، ستكون العزّة والكرامة مغروستين في أصل الشخصيّة وجزءاً منها.

وبمقدار ما يكون الإيمان بالله الحكيم أصل الغايات وأساسها، وهو الذي يبني الحياة القائمة على الحكمة، فإنّ ترك النفس تعيش في حياة عمياء خالية من الأهداف سيؤدّي بالإنسان إلى العجز والذلّة والهوان. ومن هنا فإنّ الهدفيّة في الحياة هو سبيلٌ آخر للحصول على الكرامة والعزّة، فلو نجح الإنسان في وضع الأهداف الصحيحة، فإنّه سيمتلك معياراً مهمّاً لتقييم أفعاله، يُمكّنه من تحقيق الانسجام بين سلوكه وأهدافه، فتغدو حياته هادفة ومفعمة بالنشاط.

ج) الحياء والعفّة

كلّما كانت القوى الشهويّة تحت سلطان العقل ظهرت فضيلة (العفّة)، ولكن من البديهي أنّ ترك الشهوة والعزوف عن الرغبة بسبب الاضطرار أو الإكراه أو العجز وفقدان القدرة، أو بسبب الخوف من انعكاس بعض المنغّصات، أو خشية اطّلاع الناس وملامتهم، ليست من العفّة في شيء.

وعادة ما يساوي (الحياء) (العفّة) وبالعكس، ولكن هناك اختلاف دقيق وظريف بينهما؛ لأنّ (الحياء) بمعنى العزوف عن ممارسة رغبات النفس، بسبب حضور رقيبٍ ذي شعور، فمَن يتّصف بالحياء لا يبادر إلى فعل ما يخدش حياءه أمام الآخرين، وينصرف عن ارتكاب القبائح والشهوات؛ ثمّ إنّ الناظر الذي يشهد الفعل تارةً يكون إنساناً آخر، وتارةً أُخرى يرى الفرد نفسه في محضر الله تعالى وشهوده، فيرتدي ثوب الحياء الفاخر. ومن هنا يقع الحياء ضمن حدود علاقة الفرد مع الآخرين، أو علاقته مع الله تعالى، فيخرج بذلك عن نطاق الأخلاق الفرديّة.

وأمّا العفيف فهو ذلك الشخص الذي يمتنع عن الاستجابة للشهوات والملذّات الدنيويّة، مع وجود الاستعداد الكافي لفعل ذلك من سلامة القوى

والوعي بطبيعة اللذّة، ومع فقدان سائر العقبات الخارجيّة؛ إطاعةً منه للشرع وسلطان العقل. وغالباً ما يُستخدم مفهوم العفّة في السيطرة على شهوة البطن والفرج، وأوضح مثال لبيان موضوع العفّة هو نبيّ الله يوسف الصديق عليه السلام الذي انصرف عن فعل الفاحشة وهو في قمّة شبابه ومع توفّر سائر الشروط والظروف التي اجتمعت لإتاحة ذلك الفعل، فلم يُلوّث روحه، ولم ينحرف عن صراط التقوى والفضيلة.

إنّ الغريزة الجنسيّة هي قوّة عنيدة تستوطن نفس الإنسان، وكلّ رجل أو امرأة لا سيّما في أيّام الشباب يكون لديه رغبة في الجنس الآخر، وفي ذلك مؤشّر على سلامة الجسم والروح، وهذه الرغبة الحاضرة في أعماق الإنسان ليست من أجل استمرار النسل فحسب، بل إنّ هناك مجموعة من الحاجات البدنيّة والمتطلّبات النفسيّة والروحيّة للإنسان تسكن وتتكامل عند إشباع هذا الميل. كما أنّ اللذّة الآنيّة التي تنشأ من هذه الغريزة تُعدّ أهمّ سبب لتمرّد الإنسان وعصيانه للقانون، ومصدراً أساسيّاً للانحرافات والشذوذ؛ وبالتالي فإنّ إشباعها وترويضها يحظى بأهمّية كبيرة.

ثمّ إنّ نوع الميل الذي يصدر عن الرجل للمرأة يختلف عن الميل الذي يكون للمرأة تجاه الرجل، فالرجل يُحبّ المرأة التي تُحبّه وترضى به، والمرأة تُحبّ الرجل الذي يعرف قدرها، ويعلن عن حبّه لها، فالرجل يهوى الاستيلاء على المرأة والاستحواذ عليها، والمرأة تُريد تسخير قلب الرجل.

تتفاوت مصاديق العفاف لدى المرأة والرجل بالتناسب مع تفاوت ميول الأنوثة والذكورة، فما ينبغي للرجل مواجهته ومقاومته، يختلف عمّا يجب على المرأة تحمّله والصبر عليه، بمعنى أنّ الرجل يمكن ألّا يستمتع باهتمام الآخرين ونظرتهم بمقدار استمتاع المرأة بذلك، وبالتالي فإنّ مواجهته لهذه الرغبة والشهوة لا يوجد فيها قيمة أخلاقيّة بمقدار مواجهة المرأة وتحمّلها لذلك، وفي المقابل فإنّ كبح جماح الشهوة الجنسيّة بالنسبة للمرأة ليست صعبة كما هي بالنسبة للرجل.

النتائج

يتتاب الإنسان في فترة المراهقة والشباب شعور بالاستقلال والحاجة للحبّ المتبادل، وينفصل إلى حدٍّ ما عن مصادر الحبّ السابقة كحبّ الأب والأُمّ، ويبدأ بالبحث عن مصادر جديدة للحبّ، وهذا الإحساس يخلق لديه نوعاً من الاندفاع والانجذاب الاستثنائي إلى الجنس الآخر، وغالباً ما يُسبّب هذا الاندفاع ضغطاً نفسيّاً وعصبيّاً، وتناقضات واختلالات داخليّة وخارجيّة، وإحباط وتقاعس عن العمل وعدم الانتظام وضعف في الإبداع وانحسار في المهارات، وينتهي بانهيار نظام شخصيّة الفرد.

مقابل ذلك لو تمكّن الإنسان من التحكّم بالقوّة الجنسيّة ستتحرّر الكثير من قواه النفسيّة، وثمرة هذا الجهد هو الحصول على الصحّة النفسيّة، وتعزيز قوّة التركيز في أداء الحواس، وعزّة النفس، والحفاظ على القوى العاطفيّة والجنسيّة من التآكل، وراحة البال وسكونه.

ومن هنا؛ تكون العفّة هي ضبط القوى الباطنيّة للنفس والحدّ من هدرها واستهلاكها في غير مجالها الصحيح، قال الإمام علي عليه السلام: «**ثمرةُ العفّة الصيَانة**»(١).

إنّ التهتّك وانعدام العفّة يعني إطلاق العنان للنفس لتكون في معرض إثارة الشهوة، وفي هذه الصورة، وفي ظلّ تضاعف اللذّة وتزايد الرغبة، يتضاءل السكون النفسي ويضطرب البال، وسيعقب ذلك إرهاق شديد وضغوط مستمرّة. وعليه فمَن يُطفئ نار الطمع والجشع في نفسه ويُخمد الشهوة الجامحة في أعماقه، ويتحلّى بالعفّة، سوف ينتابه شعور أقلّ بالحاجة، وينجلي حزنه وعناؤه، وينقلب ذلك إلى طمأنينة وسعادة أكبر وأعمق. قال أمير المؤمنين عليه السلام: «**وأَصْلَ العَفَافِ القَنَاعَةُ، وثَمَرَتَهَا قِلَّةُ الأَحْزَانِ**»(٢).

---

(١) التميمي الآمدي، عبد الواحد، تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ص٢٥٦، ح٥٤٢٣.

(٢) المجلسي، محمّد باقر، بحار الأنوار: ج٧٥، ص٧.

إلى الآن فإنّ نظريّة سفور المرأة تجعل للرجل الحظّ الأوفر من النفع والرضا، حيث إنّه كلّما أُزيل الحاجز بين شيئين متنوّعين كان حقّ الحريّة والتحرّك الأكثر والحياة الأفضل لَمَن هو أقوى وأعظم سطوة، والمتضرّر من ذلك هو الأضعف والأكثر هشاشةً. وعلى هذا الأساس؛ فإنّ المرأة من حيث البنية الجسمانيّة والعاطفيّة والاجتماعيّة هي أكثر انكساراً وأقلّ حيلة، ولذلك فهي بحاجة إلى حماية ودعم ويقظة أكثر(١).

وفي سياق العلاقات الإنسانيّة فإنّ الفرد يكتسب محبوبيّة أكثر وجذابيّة أكبر كلّما قلّ التواصل معه، ولم يكن متاحاً على الدوام، وعليه فكلّما كان الامتناع أكثر تضاعفت في المقابل المحبّة نحو الشيء الممنوع. ولهذا السبب قرن الله تبارك وتعالى العزّة بالعفّة، وزيّن الجمال بالحياء، وزاده بهاءً.

وبناءً على ما تقدّم؛ فإنّ كلّ جوهر يصعب تناوله والوصول إليه سوف يأسر الخيال ويزداد الشوق إليه، وستُدرَك لطائفه ومزاياه بشكل أكثر ويكون أشدّ سحراً وجذابيةً.

وممّا لا شكّ به فإنّ الجمال المستور يمزج الحسن والعظمة، ويُظهر الجمال مقترناً بالجلال، ويُثير تجاه صاحبه حُبّ الجمال والشعور بالاحترام والإجلال في آنٍ واحد، ويجعل الفرد محبوباً بشخصه وشخصيّته.

الحلول والمعالجات

لأجل اكتساب صفة العفّة كسائر الصفات الأُخرى لا بدّ من نيل اللطف الإلهي، فيوسف عليه السلام مثلاً قد أخذ بعين الاعتبار حضور الله وتجلّي ربوبيّته ونعمته في ذلك الامتحان الصعب، واستظلّ بتمام وجوده بعنايته سبحانه، قال تعالى:

---

(١) أُنظر: غلامي، يوسف، أخلاق ورفتارهای جنسي (=الأخلاق والسلوكيّات الجنسيّة): ص١٢٧.

﴿وَرَاوَدَتْهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾(١).

ومن هنا، فإنّ التوجّه إلى الله عنصر مهمّ في الصدّ عن المعصية، كما أنّه بدون العون الإلهي يكبر احتمال الزلل، حيث تُمثّل الغفلة عن ذكر الله أرضيّة مساعدة على ارتكاب المعاصي.

إنّ العشق الذي يُؤسر صاحبه، والذي ينتهي بالفشل غالباً، عادةً ما يتبلور بالتدريج وبالمراودة والعلاقة المستمرّة، فالمعاصي الكبيرة حصيلة المرونة واللين، فلو لم يُبدِ الفتيان والفتيات الأجانب عن بعضهما نعومة في التعامل، لا يُفتح باب الحديث بينهم بالتدريج، ولا تُثار شهوة الرجال نحو النساء، وبذلك يُصان المجتمع من الكثير من الآفات. وقد نبّهنا أمير المؤمنين عليه السلام إلى اختلاف سلوك المرأة عن الرجل، واعتبر أنّ التكبّر من الخصال الحميدة للنساء، حيث يقول عليه السلام: «**خِيَارُ خِصَالِ النِّسَاءِ شِرَارُ خِصَالِ الرِّجَالِ: الزَّهْوُ والجُبْنُ والبُخْلُ، فَإِذَا كَانَتِ المَرْأَةُ مَزْهُوَّةً لَمْ تُمَكِّنْ مِنْ نَفْسِهَا، وإِذَا كَانَتْ بَخِيلَةً حَفِظَتْ مَالَهَا ومَالَ بَعْلِهَا، وإِذَا كَانَتْ جَبَانَةً فَرِقَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ يَعْرِضُ لَهَا**»(٢).

وكما يقول الشهيد مطهّري، فإنّ اتّصاف المرأة بخصال التكبّر والخوف والبخل ليس حسناً، بل على المرأة أن تظهر بمظهر المتكبّر أمام الأجنبي، وأن تظهر بمظهر الجبان في بعض المواقف، مع التزامها بصفتي التواضع والشجاعة(٣).

---

(١) يوسف: آية٢٣.

(٢) نهج البلاغة: ص٥٠٩ ـ ٥١٠، الحكمة ٢٣٤.

(٣) يُفرّق الشهيد مطهّري بين اتّصاف المرأة بهذه الخصال الثلاثة، وبين سلوكها طبق هذه الصفات، فيرى أنّ صفات التكبّر والخوف والبخل من الصفات الذميمة بحدّ ذاتها للرجال والنساء، وما ⬅

وقد ورد عن الإمام الصادقعليه السلام أنّه قال: «**وكَانَ رسول الله**صلى الله عليه وآله وسلم **يُسَلِّمُ عَلَى اَلنِّسَاءِ، ويَرْدُدْنَ عليه السلام، وكَانَ أمير الْمُؤْمِنِينَ**عليه السلام **يُسَلِّمُ عَلَى اَلنِّسَاءِ، وكَانَ يَكْرَهُ أَنْ يُسَلِّمَ عَلَى اَلشَّابَّةِ مِنْهُنَّ، ويقول: أَتَخَوَّفُ أَنْ يُعْجِبَنِي صَوْتُهَا، فَيَدْخُلَ عَلَيَّ أَكْثَرُ مِمَّا أَطْلُبُ مِنَ الأَجْرِ**»(١).

ومن هذه الرواية تتبيّن بوضوح أهمّيّة ضبط العلاقات بين المرأة والرجل حتّى في حدود الحديث والمحاورة، وأنّه لو التزمنا بالعفّة والحياء فإنّنا سنُخمد نار الشهوات وثورة الرغبات النفسيّة، ونحدّ من آثار الوساوس والأوهام الزائفة. قال الإمام عليعليه السلام: «**العفّة تُضعّف الشّهوة**»(٢)، وقال: «**ضادّوا الشره بالعفّة**»(٣).

الأسئلة

١ـ ما الذي تعنيه مفردة الحكمة من الناحية اللغويّة والاصطلاحيّة؟ وما هي علاقتها بالعقل؟

٢ـ ما هي النواحي الجسديّة والروحيّة المؤثّرة في تحصيل الحكمة؟

٣ـ أرجو ذكر علائم الحكمة، وشرح تأثيرها على شخصيّة الإنسان.

٤ ـ ما هو معنى العزّة والكرامة؟ وما هي المزايا والخصائص التي يتّصف بها الإنسان العزيز؟

⬅

تُريد الرواية بيانه هو: أن تُظهر المرأة التكبّر والأنفة أمام الأجنبي حفاظاً على عفّتها، وأن تسلك سلوك الجبان في الحذر مما يُهدّد كرامتها، مع احتفاظها بصفات التواضع والشجاعة في الوقت نفسه، لا أن تكتسب صفات التكبّر والجبن والبخل. (خ).

(١) الكليني، محمّد بن يعقوب، الكافي: ج٢، ص٦٤٨.

(٢) التميمي الآمدي، عبد الواحد، تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ص٢٥٦، ح٥٤٢١.

(٣) المصدر السابق: ح٥٤١٠.

٥ ـ أرجو ذكر بعض آثار وفوائد العزّة؟

٦ـ ما هي الوسائل العمليّة لبلوغ العزّة؟

٧ ـ كيف يمكن الحصول على فضيلة العفّة؟ وما هي المزايا والخصائص التي يتميّز بها الإنسان العفيف؟

٨ ـ أرجو بيان ضرورة ضبط الغريزة الجنسيّة وترويضها من خلال بيان معنى فضيلة العفّة.

٩ ـ كيف تؤدّي الاختلافات الطبيعيّة بين المرأة والرجل إلى الاختلاف في مصداق العفّة بينهما؟

١٠ ـ ما الذي يُؤثّره التحكّم بالرغبات الجنسيّة في الطمأنينة والاعتدال النفسي للشباب؟

للبحث والتأمّل

١ ـ ما هي العلاقة بين اصطلاح الحكمة لدى العلماء واصطلاحها في المصادر والنصوص الدينيّة؟

٢ ـ مع ملاحظة دور العفاف في رُقي الإنسان ورفعة منزلته، وتأثير ذلك على السلامة الفكريّة والمعنويّة لأفراد المجتمع، ماهي السبل التي تقترحونها لترسيخ العفاف في المجتمع؟

٣ ـ أرجو البحث في الآثار الجسميّة والنفسيّة والأخلاقيّة لانعدام العفّة ورواج التهتّك.

٤ ـ ما هي علاقة (تقدير الذات) في علم النفس بعزّة النفس والكرامة في الروايات الشريفة؟

الفصل العاشر

آفات العلاقة مع الله

الأهداف

يُتوقّع من الطلبة الأعزّاء بعد دراسة هذا الفصل:

١ ـ إدراك مفاهيم: الغفلة، واليأس، والقنوط، والأمن من مكر الله، والكفران، والتمكّن من بيان دورها في رسم علاقة الإنسان بالله سبحانه وتعالى.

٢ ـ التمكّن من توضيح ارتباط نسيان الله بنسيان النفس، وكذلك توضيح علاقة الغفلة بتعظيم الذات.

٣ ـ فهم أثر نسيان الله في استصغار الذنوب الكبيرة، واستعظام الطاعات.

٤ ـ معرفة العوامل الأساسيّة للغفلة عن الله والطرق العمليّة لإزالتها.

٥ ـ فهم الميزان الصحيح لاستشعار الخوف والرجاء في قلب الإنسان.

٦ ـ التعرّف على آثار اليأس من رحمة الله، والأمن من مكره، وإدراك علاقة كلا الأمرين بالطغيان.

٧ ـ الاطّلاع على الأسباب الأساسيّة للكفران.

***

أ) الغفلة ونسيان الله

كلّ ما يقوم به الإنسان من عمل صالح أو قبيح أو ما يبلغه من لذّة وما يُصيبه من ألم سيترك أثراً في روحه وقلبه، ويُوجِد تعلّقاً أو نفوراً في أعماقه، وكلّما كانت اللذّة أو الألم أكثر اشتدّ تعلّق الإنسان بعوامل المتعة وتنفّره من مسبّبات الألم؛ حتّى يكون كلّ اهتمام الإنسان بتلك العوامل وتركيزه عليها؛ ومن هنا تنقطع علاقته مع الآخرين.

فعن زرارة، عن أبي جعفر عليه السلام قال: قال: «**ما من عبد إلّا وفي قلبه نكتة بيضاء، فإذا أذنب ذنباً خرج في النكتة نكتة سوداء، فإن تاب ذهب ذلك السواد، وإن تمادى في**

الذنوب زاد ذلك السواد، حتّى يغطّي البياض، فإذا غطّى البياض لم يرجع صاحبه إلى خير أبداً، وهو قول الله عزّ وجلّ: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾»(١).

والتعلّق بالدنيا من أبرز المصاديق لهذا الحديث، فإنّ السعادة الطفوليّة العابرة الناشئة من هذا التعلّق لا تجتمع مع ذكر الله. وبعبارة أُخرى: فإنّ الإنسان كلّما كان تعلّقه بالدنيا وحبّه لها أكثر، فإنّه بمقدار ذلك يضعف اهتمامه بعالم الآخرة وينقص ذكره لله(٢).

وهذا الانقطاع وعدم الذكر للباري تعالى يسمّى (الغفلة)، وهي أصل الشقاء، ومصدر كلّ النقائص والعيوب(٣). ولحالة الغفلة مراتب ودرجات تتناسب مع مستوى التعلّق بغير الله، ولكلّ مرتبة ومنزلة منها آثار ومساوئ خاصّة بها.

النتائج

قد يكون نسيان النفس هو الأثر الأشدّ ألماً لنسيان الله، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾(٤).

فمَن يخرج عن عبوديّة الله، ويعيش كيفما يهوى ويشتهي، فإنّه يعبد في الحقيقة هوى نفسه، قال تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾(٥).

ومَن ينسَ نفسه جرّاء الغفلة عن حقيقة ذاته سوف يُحرم من الطهارة والتزكية؛ وفي النتيجة يُحرم من التكامل والتسامي.

---

(١) الكليني، محمّد بن يعقوب، الكافي: ج٢، ص٢٧٣.

(٢) أُنظر: الموسوي الخميني، روح الله، چهل حديث (= الأربعون حديثاً): ص٢٩٣.

(٣) المصدر السابق: ص٤٤٦.

(٤) الحشر: آية١٩.

(٥) الفرقان: آية٤٣.

من خلال نسيان الله والغفلة عنه سوف تتمّ الغفلة عن عظمة الله وكبريائه؛ وبذلك يستحوذ على الإنسان الغرور والتكبّر والأنانيّة، ومثل هذا الإنسان سوف يستصغر الذنوب والمعصية مهما كبرت، وفي المقابل فإنّه سوف يكترث بالقليل من العبادة ويعتبرها مؤثّرة جدّاً، فيعتمد عليها. ويرى نفسه بعد هذه الغفلة في مأمن من غضب الله ومكره؛ ولذلك فهو لا يراعي أدب وأخلاق العبوديّة مع الله ولا يخشاه، ولا يهاب عذابه وغضبه يوم القيامة.

ولكنّ مَن يستيقظ من الغفلة سوف يُدرك عظمة الله تعالى، ويُراعي حرماته بقدر ما يحمله من وعي ويقظة، فيستعظم الذنوب والمعاصي مهما كانت صغيرة أو تافهة، ويرى أنّ ما يقوم به من عبادة وطاعة قليل جدّاً أمام معبوده وخالقه، ودائماً ما يعتبر نفسه مقصّراً بين يدي الله عزّ وجلّ.

إنّ عدم المبالاة بحقيقة الذنب وآثاره المدمّرة، كلّ ذلك هو من نتائج الغفلة، فإنّ المعصية مهما كانت صغيرة فإنّها تكبر وتتعاظم بشكل تدريجي؛ فتستحوذ على وجود الإنسان وتميُت قلبه، قال تعالى: ﴿كَلَّاۖ بَلۡۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾[١]، وتحوّله إلى حجر صلد من الجلادة والقساوة، فقد جاء في الحديث الشريف: «**مَا جَفَّتِ الدُّمُوعُ إِلّا لِقَسَاوَةِ القُلُوبِ، وَمَا قَسَتِ القُلُوبُ إِلّا لِكَثْرَةِ الذُّنُوبِ، وَمَا كَثُرَتِ الذُّنُوبُ إِلّا مِنْ كَثْرَةِ العُيُوبِ**»[٢]. فيكون القلب قد تحوّل بسبب هذه الغفلة عن حالته الطبيعيّة وانقلب رأساً على عقب «**مَا مِنْ شَيْءٍ أَفْسَدَ لِلْقَلْبِ مِنَ خَطِيئَةٍ، إِنَّ القَلْبَ لَيُوَاقِعُ الخَطِيئَةَ، فَمَا تَزَالُ بِهِ حَتَّى تَغْلِبَ عَلَيْهِ، فَيَصَيِّرَ أَعْلاهُ أَسْفَلَهُ**»[٣].

إنّ الغافلين لا يكترثون بذنوبهم الماضية ولا يبالون بما سيؤلون إليه من سوء

---

(١) المطفّفين: آية١٤.

(٢) القمي، محمّد بن علي ابن بابويه، علل الشرائع: ج١، ص٨١.

(٣) الكليني، محمّد بن يعقوب، الكافي: ج٢، ص٢٦٨.

العاقبة؛ وعليه فإنّ مثل هؤلاء لا يحاولون تنقية بواطنهم من لوث الذنوب، ولا يسعون إلى ادّخار الطاعة والعمل الصالح، وهؤلاء فرحون بما بلغوه من مستوى الإيمان، ولديهم أمل عريض بجدوى الأعمال الناقصة التي قاموا بها، ويعتقدون أنّهم يسيرون في طريق الهداية والصواب، ولكنّهم في الواقع قد ضلّوا الطريق، قال تعالى: ﴿ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ ۗ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴾(١). وقد خسر هؤلاء خسراناً مبيناً، قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا۟ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَرُسُلِى هُزُوًا﴾(٢).

الحلول والمعالجات

نقرأ في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾(٣). فإنّ ذكر الله سبحانه من أهمّ عوامل التربية الروحيّة، فهو يُحيي القلب، ويُنير العقل، ويُزيل صدأ الغفلة عن صفحة القلب. ولهذا الذكر جملة من المراتب والمراحل، وحقيقته هو توجّه القلب إلى ساحة القدس الربّانيّة، وإذا ما كان الذكر يُطلق على الذكر اللفظي أيضاً فلجهة كونه يؤدّي إلى الذكر القلبي أيضاً، ويتفاعل معه؛ ومن هنا فإنّ الإنسان، ومن أجل الحيلولة دون غلبة الغفلة وانتصارها على القلب، يجب عليه المشاركة في مجالس الذكر والموعظة باستمرار، والمبادرة إلى قراءة الآيات والروايات والكتب الأخلاقيّة، فقد ورد عن رسول الله ﷺ أنّه قال:

---

(١) الأعراف: آية ٣٠.

(٢) الكهف: آية ١٠٣ ـ ١٠٦.

(٣) الأحزاب: آية ٤١.

«أكثروا من ذكر هادم اللذّات، فقيل: يا رسول الله فما هادم اللذّات؟ قال: الموت، فإنّ أكيس المؤمنين أكثرهم ذكراً للموت، وأشدّهم له استعداداً»(١).

ويُعدّ ذكر الموت والقيامة من أهمّ الأسلحة التي يقاوم الإنسان بها الغفلة ويدمّرها، ولكن للأسف تحوّلت اليوم ـ وفي ظلّ الثقافة الدنيويّة المعاصرة ـ قيمة معرفة الموت وذكره والتفكّر بالقبر وعذابه والقيامة إلى قِيَم سلبيّة، في حين أنّ الثقافة الدينيّة تعتبر الموت معبّراً حتميّاً للإنسان لبلوغ المنزلة الأبديّة، وتعدّ ذكره طارداً للغفلة.

قال الإمام الصادقعليه السلام: **«ذِكرُ الموتِ يُميتُ الشّهواتِ فِي النَّفسِ، ويَقلَعُ منابِتَ الغفلةِ، ويُقوِّي القلبَ بِمواعِدِ الله»**(٢).

وتُعتبر الابتلاءات الإلهيّة والمصائب التي تحلّ بالبشر مؤثّرة جدّاً في إزاحة الغفلة والتخلّص منها، فكلّما عجز الإنسان أمام المحن وقهرته المصيبة شعر بفقره الوجودي، ووعى أنّ الربّ الرحيم هو الوحيد القادر على مساعدته: **«إلهي وربّي مَنْ لي غَيْرُكَ اَسْئَلُهُ كَشْفَ ضُرّي وَالنَّظَرَ في أَمْري»**(٣).

ب) اليأس من رحمة الله والاغترار بها

اليأس في اللغة الاستسلام وفقدان الطمع في شيء، وقد عبّر القرآن الكريم عن ذلك بـ(القنوط). واليأس من رحمة الله بمعنى أنّ الإنسان ولأسباب شتّى؛ ككثرة الذنوب والمعاصي والعلم بعظمها، وعدم المبالاة برحمة الله الواسعة، يعتقد أنّه فقد الأمل تماماً ولا يمكنه الخلاص والنجاة ممّا حلّ به، وذلك من الصفات الكبيرة التي يتّصف بها الكافرون والضّالون، قال تعالى: **﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ**

---

(١) الكوفي، محمّد بن محمّد بن الأشعث، الأشعثيات (الجعفريات): ص١٩٩.

(٢) الإمام الصادقعليه السلام، مصباح الشريعة: ص١٧١.

(٣) ابن طاووس، علي بن موسى، إقبال الأعمال، مقطع من دعاء كميل.

رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴾[١]، وقال أيضاً: ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾[٢].

وينحدر اليأس من عدم خلوص الإيمان والاعوجاج في العقيدة. قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يَئِسُوا۟ مِن رَّحْمَتِى وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[٣]؛ وقال سبحانه أيضاً: ﴿ إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾[٤].

ومن هنا؛ فينبغي ضبط مستوى الخوف والرجاء وإيجاد حالة التوازن بينهما في باطن الإنسان، فلا يتحقّق الاغترار برحمة الله إلّا في حال غلبة الرجاء على الخوف، وهذا الرجاء هو الذي يعبَّر عنه في القرآن الكريم والروايات بـ(الأمن من مكر الله وغضبه)، والأمن هو الشعور بالطمأنينة وزوال الخوف من النفس، كما قال عن ذلك الراغب في مفرداته: «**أصل الأمن طمأنينة النفس وزوال الخوف**»[٥]. والخوف هو اضطراب يعرض على قلب الإنسان بسبب توقّع أمر غير مرغوب، والأمن هنا هو زوال القلق القلبي من حصول مكروه بسبب الغفلة عن عوامل وقوعه؛ وعليه تحصل حالة من الاطمئنان والنشاط القلبي الذي يمنحه الأمل والسكينة.

فكلّما غفل الإنسان عن ذنوبه أو استصغرها، وظنّ أنّه بعيد عن مرمى الجزاء الإلهي، واعتقد أنّه غير مستحقّ للغضب الربّاني، فقد اغترّ برحمة الله تعالى، ويُسيطر على قلبه بذلك اطمئنانٌ زائف. وهذه الصفة كصفة اليأس تُعدّ من الصفات الكبيرة

---

(١) الحجر: آية٥٦.

(٢) الزمر: آية٥٣.

(٣) العنكبوت: آية٢٣.

(٤) يوسف: آية٨٧.

(٥) الراغب الأصفهاني، الحسين بن محمّد، المفردات في غريب القرآن، مادة (أمن).

أيضاً، وهي من صفات الخاسرين، قال تعالى: ﴿أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾(١).

النتائج

إنّ اليأس يُجفّف النشاط ويُذيب الحيويّة في روح الإنسان، ويستبدلهما بالضعف والكسل، ونتيجة ذلك هو الخواء والعبثيّة والحيرة. وإنسان مثل ذلك سوف تذبل لديه الرغبة بالحياة، فلا يشعر بضرورة الالتزام بالواجبات والالتزامات الموكلة إليه، ويفقد المتعة بالبقاء في هذا العالم.

فالإنسان القانط يفقد الدافع والنشاط للقيام بالأعمال والواجبات العباديّة المطلوبة منه، فبأيّ قوّة وطاقة سيتحرّك مَن لا توجد لديه أيّ نافذة للأمل والخلاص؟ وعلى أمل الوصول إلى أيّ محبوب يُوطّن نفسه على بذل جهدها(٢)؟ ومن جهة أُخرى فإنّ اليأس سيُبعد الإنسان تدريجيّاً عن عبادة الله وطاعته(٣)، ويُسقطه في وادي العصيان والتمرّد والطغيان، فمَن يقنط من رحمة الله ويفقد الأمل بالنجاة لا يبادر إطلاقاً إلى إصلاح نفسه وتصحيح ما فسد منها.

إنّ العقاب الأُخروي لمعصية اليأس هي نار جهنم؛ لأنّ اليأس من الكبائر، وقد توعّد الله فاعل الكبيرة بهذه العقوبة(٤). وبالطبع، فإنّ كلّ الذنوب لو تحقّقت التوبة منها ستغفر بلطف الله ورحمته، ولكنّ روح اليـأس عندما تحبس الإنسان في سجنها، عندها سوف لا يوفّق للتوبة؛ لأنّه قد يحسب أنّ كلّ جسور العودة خلفه مدمّرة.

---

(١) الأعراف: آية٩٩.

(٢) أُنظر: النراقي، محمّد مهدي، جامع السعادات: ج١، ص٢٢٨.

(٣) فضل الله، محمّد حسين، تفسير من وحي القرآن: ج١٩، ص٣٥١.

(٤) أُنظر: الحر العاملي، محمّد بن الحسن، وسائل الشيعة، باب وجوب اجتناب الكبائر.

وفي المقابل فإنّ الإنسان الذي يشعر بالحصانة من مكر الله وعقابه، سوف يظنّ أنّه لا يخضع للابتلاء والاختبار، وسوف يكون مشمولاً بالعفو والرحمة الإلهيّة؛ كما أنّ الجرأة على اقتراف المعاصي والاستغراق في الذنوب وترك الأعمال الصالحة، سوف تكون من آثار هذه الصفة الرذيلة. ومَن يتّصف بذلك يعتبر الذنوب التي يقوم بها هي أفعالاً صغيرةً، ورحمة الله ومغفرته تتّسع لذلك فتمحوها؛ ومن هنا سينتابه شعور بالقرب الكاذب والمحبة المزيّفة، الأمر الذي يدعوه للجرأة مرة أُخرى لممارسة المعصية وترك الصالح من الأعمال[١]. إنّ هذه الجرأة سوف تُعقب صاحبها ـ إن لم يوفّق للتوبة ـ نارَ جهنم، علاوةً على ما تُسبّبه من أضرارٍ دنيويّة؛ ولذلك عبّر القرآن الكريم عن مثل هؤلاء بالخاسرين، فقال: ﴿أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِۚ فَلَا يَأۡمَنُ مَكۡرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾[٢].

وممّا تجدر الإشارة إليه في المقام هو أنّ الخوف من الله تعالى والخشية من سوء العذاب والعاقبة التي وعد الله بها العاصين على الرغم من أنّه الفضائل والخصال الحسنة، إلّا أنّ بعض أقسام الخوف كالخوف من غير الله هي من الرذائل التي أنكرها الله على عباده[٣].

فمَن لم يخف من الله ولا يخشاه سيخاف من كلّ شيء، وقد ورد في هذا الصدد عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «**مَنْ خَافَ الله أَخَافَ الله مِنْهُ كُلَّ شَيْءٍ، وَمَنْ لَمْ يَخَفِ**

---

(١) النراقي، محمّد مهدي، جامع السعادات: ج١، ص٢١٨. دستغيب، عبد الحسين، گناهان كبيره (=الذنوب الكبيرة): ص٨٧. مصباح اليزدي، محمّد تقي، أخلاق در قرآن (=الأخلاق في القرآن): ج١، ص٤١١ ـ ٤١٢.

(٢) الأعراف: آية٩٩.

(٣) أُنظر: النراقي، محمّد مهدي، جامع السعادات: ج١، ص٢٠٧ و٢٤٢.

الله أَخَافَهُ الله مِنْ كُلِّ شَيْءٍ»[١]، وكذلك يقول الله عزّ وجلّ في الحديث القدسي: «**وَعِزَّتِي لا أَجْمَعُ عَلَى عَبْدِي خَوْفَيْنِ، وَلَا أَجْمَعُ لَهُ أَمْنَيْنِ، إِذَا أَمِنَنِي فِي الدُّنْيَا أَخَفْتُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ، وَإِذَا خَافَنِي فِي الدُّنْيَا أَمَّنْتُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ**»[٢].

الحلول والمعالجات

إنّ اليأس والقنوط يقابل (الأمل) و (التفاؤل)، وهما يلازمان الإفراط في الخوف؛ وعليه فلو ازداد الخوف ولم يتبعه الأمل بنفس المستوى فإنّ ذلك سيؤدّي إلى اليأس.

إنّ التوجّه العميق إلى حقيقة أنّ الله هو الخير المحض والمنزّه من كلّ النقائص والعيوب، ولا سبيل لها إليه أبداً، وهو مصدر الفيض المطلق وينبوع الجود الذي لا حدّ له، وقد وسعت رحمته وعفوه سائر المخلوقات، سوف يؤدّي إلى إحياء الأمل في القلوب اليائسة[٣]. كما أنّه من أجل استئصال جذور رذيلة اليأس والقنوط ينبغي التفكّر في الآيات[٤] والروايات[٥] الدالّة على سعة رحمة الله وأنّها سبقت غضبه.

لقد أشار كبار المفسّرين في ضوء ما جاء في بعض الآيات القرآنية إلى نقطة دقيقة، وهي أنّ مصدر حالة اليأس في النفس الإنسانيّة هو عدم وجود الاعتقاد الصحيح والإيمان القوي؛ ومن هنا فإنّ السبيل الأساسي لمعالجة هذا المرض واستئصاله، هو إعادة صياغة الإيمان وبناء المعتقد الصحيح، فالإنسان المؤمن لا

---

(١) الكليني، محمّد بن يعقوب، الكافي: ج٢، ص٦٨.

(٢) القمّي، محمّد بن علي بن بابويه، الخصال: ج١، ص٧٩.

(٣) أُنظر: النراقي، محمّد مهدي، جامع السعادات: ج١، ص٢٥٨.

(٤) الأعراف: آية١٥١. يوسف: آية٦٤، وآية٩٢. المؤمنون: آية١٠٩، وآية١١٨. الأنعام: آية١٢، وآية٥٤، وآية١٤٧. غافر: آية٧. و...

(٥) أُنظر: محمّدي ري شهري، محمّد، ميزان الحكمة، موضوع سعة رحمة الله: ح٦٩٨٧ـ ٦٩٩٤.

ييأس أبداً ولا يقنط من سعة رحمة الله؛ لأنّه يوقن بأنّ الله يعلم بالظروف والحال الذي هو عليه، وهو قادر على تخليصه ونجدته، وهو أرحم به من كلّ أحد(١). وأمّا مَن يئس من رحمة الحقّ ومغفرته ففي الحقيقة قد انهار اعتقاده بواحدة من صفات العلم أو القدرة أو الرحمة الإلهيّة، أو أنّه شكّ بذلك؛ وبالتالي فعليه وبلا ريب أن يُعيد النظر في مبادئه الفكريّة ومعتقداته الدينيّة، ومن خلال تصحيح الاعتقاد وتجديد النظر في الإيمان سوف يخرج المرء من ظلمات اليأس ويبلغ برّ الأمل والتفاؤل ليصل إلى مواطن الأمن الربّاني.

ومن جهة أُخرى فإنّ الأمن من مكر الله يُلازم عدم الخوف والإفراط في الرجاء، فإنّ عدم الخوف من الله وانعدام الخشية والرهبة في قلب الإنسان من عذابه ومكره، هو مصدر أساسي للإحساس بالأمن والاعتماد الخاطئ على رحمة الله فحسب؛ وعليه فمن أهمّ السبل وأكثرها أثراً للتخلّص من هذه الرذيلة هو زيادة مستوى الخوف والخشية في قلب العبد، ومن أجل تقوية الخوف وتعزيزه يجب معرفة أسباب انعدام الخوف من الله وعذابه، والعزم على التخلّص منها وتجاوزها.

إنّ مصدر الخوف من كلّ شيء هو العلم بوجوده واحتمال بلوغ الخطر والضرر منه إلى الإنسان؛ ومن هنا فكلّما كانت معرفة الإنسان بوجود العوامل المؤدّية إلى الخطر أكثر واليقين بها أكبر واحتمال التضرّر بها آكد كان الخوف والهلع وشدّة الحذر والاجتناب أكثر. ومن وجهة نظر البحث الأخلاقي فإنّ هذه النكتة صادقة وصحيحة، فكلّما كان اعتقاد الإنسان ومعرفته ويقينه بصفات الله وحكمته ومكره وشدّة عذابه وعقابه من جهة، وبضعف الإنسان وعجزه وعظم ذنوبه

---

(١) «اللّهُمَّ أَنْتَ وَلِيُّ نِعْمَتي، وَالقادِرُ عَلى طَلِبَتي، تَعْلَمُ حاجَتي، فَأَسْأَلُكَ بِحَقِّ مُحَمَّد وَآلِهِ عَلَيْهِ وَعليهم السلام لما قَضَيْتَها لي». الطوسي، محمّد بن الحسن، الأمالي، قنوت صلاة الغفيلة: ص٦٧٦.

وقبحها من جهة أُخرى أكثر، كان خوفه من الله وابتلائه بالقهر والغضب الربّاني أكبر، ومن هنا يجب القول:

إنّ الغفلة وقلّة المعرفة وكذلك ضعف الإيمان واليقين من جملة العوامل الموجبة لضعف مستوى الخوف، فلو ترسّخ اليقين بالله والإيمان بيوم القيامة والاعتقاد بالجنّة وعذاب القبر في القلب، فلا شكّ سوف يزداد مستوى الخوف لدى الإنسان[١].

إنّ التفكّر المستمرّ بأحوال يوم القيامة وأنواع العذاب الأُخروي، والاستماع للمواعظ والإرشادات المنذِرة، والتأمّل بسيرة عباد الله الخائفين منه والاستئناس بما لديهم من سلوك وموعظة وكلام، وكذلك التأمّل في سيرة الأنبياء والأولياء، لهي طرقٌ أخرى لتعزيز الخوف والخشية[٢].

ج) الكفران والجحود

الكفران يقابل الشكر، ويعني جحود نعمة المنعم وإخفاءها[٣]، وهو نوع من عدم عرفان النعمة واحترامها، والغفلة عن لطف الله وإحسانه، ونسيان عنايته ورعايته. فلو لم يرَ المرء جميع هذه الألطاف، ولم يعمل بإزائها ما يؤدّي للاعتراف بها وشكرها، فإنّ ذلك سيوصله إلى الكفران، الذي يتحقّق عندما لا يعتبر الفرد النعمة والخير من الله، أو حينما لا يعدّ المواهب التي تصله نعماً وعطايا، أو أنّه يستصغرها ويرى نفسه مُطالباً لله بالمزيد، أو يحسب أنّ المواهب والعطايا الإلهيّة هي واجبات على الله، وليست فضائل منه.

---

(١) أُنظر: النراقي، محمّد مهدي، جامع السعادات: ج١، ص٢٣٠.

(٢) أُنظر: المصدر السابق: ص٢٣١.

(٣) أُنظر: المصدر السابق.

النتائج

إنّ الكفران بالنعمة ينتهي إلى سخط الله وغضبه، وخسارة نعم المنعم وهبات الخالق، قال الإمام الصادقعليه السلام: «**مكتوب في التوراة: اشكر مَن أنعم عليك، وانعم على مَن شكرك؛ فإنّه لا زوال للنَعماء إذا شُكرت، ولا بقاء لها إذا كُفرت، والشكر زيادة في النعم وأمان من الغِيَر**»(١). وعن الإمام عليعليه السلام أنّه قال: «**كُفرُ النعمةِ لؤمٌ**»(٢).

ومَن ينكر قدر النعمة، ولا يتعاطى معها بصورة مناسبة، فإنّه لم يبلغ المستوى المطلوب من التكامل والرشد، فشكر النعم يؤدّي إلى محبّة الله للعبد وقربه منه، وفي المقابل فإنّ كفران النعمة يُعقبه غضب إلهيّ وسخط منه، قال الإمام عليعليه السلام: «**أَحَبُّ النَّاسِ إلى الله سُبْحَانَهُ العَامِلُ فِيمَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْهِ بِالشُّكْرِ، وَأَبْغَضُهُمْ إليه العَامِلُ فِي نِعَمِهِ بِكُفْرِهَا**»(٣) وقالعليه السلام أيضاً: «**كافِرُ النِّعْمَةِ مَذْمُومٌ عِنْدَ الخالِقِ والخَلائِقِ**»(٤).

إنّ الكفر بالنعمة يُزيلها، والسبب في ذلك هو أنّه وبحسب الواقع حينما يُحبّ الله تعالى عبده فإنّه يُزوّده بنعمه، وعلى العكس من ذلك فإنّه سبحانه كلّما أعرض عن أحد العباد فسوف يسلبه نعمه. قال الإمام عليعليه السلام: «**آفةُ النّعمِ الكُفْرانِ**»(٥)، وقال أيضاً: «**كفر النعمة مزيلها، وشكرها مستديمها**»(٦).

---

(١) الكليني، محمّد بن يعقوب، الكافي: ج٢، ص٩٤.

(٢) التميمي الآمدي، عبد الواحد، تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ص٤٣٢، ح٩٨٥٥.

(٣) المصدر السابق: ص٢٧٧، ح٦١١٥.

(٤) المصدر السابق: ص٣٢٣، ح٧٤٩٢.

(٥) المصدر السابق: ص٣٢٢، ح٧٤٨٧.

(٦) المصدر السابق: ص٣٢٣، ح٧٥٠٥.

الحلول والمعالجات

يمكن أن تعود الغفلة عن نعم الله وعطاياه إلى جملة من الأسباب، وهي:

١ ـ عدم الإدراك الصحيح لواقع العلاقة بين الإنسان وربّه، والتي يعبّر عنها الحكماء بـ(النسبة الرَبْطيّة)، بمعنى أنّ الإنسان لا يحظى بالاستقلال في كلّ لحظة من لحظات وجوده عن الله، وأنّ أصل وجوده وكلّ قابليّاته، وما يمتاز به من قدرات واختيارات في كلّ لحظة من لحظات حياته تُفاض عليه من موجود مستقلّ وغنيّ بالذات، فإنّ بحر الاحتياجات البشريّة الذي لا تُدرك ضفافه لهو أهمّ علّة للتعلّق الأبدي بالمنعم المتعالي، ومن جهة أُخرى هو أهمّ الأدلّة على شكره والاعتراف بنعمته؛ ومن هنا يتبيّن قبح الكفران بالنعمة وجحدها.

٢ ـ عدم الالتفات إلى حقيقة أنّ جميع النعم الظاهريّة والباطنيّة المادّية والمعنويّة وكلّ العطايا الصغيرة والكبيرة هي من لطف الله سبحانه وتعالى وكرمه وفضله، فهو جلّ وعلى ليس مديناً لأحد من عباده. مع أنّ فضيلة الشكر والامتنان هي كرامة روحيّة، وأنّ الإنسان الفاضل لا يتردّد في تقديم الشكر والاحترام لمن يُقدّم له الدعم والخدمة وإن كان ذلك الدعم من محض القيام بالوظيفة والواجب.

٣ ـ الجهل بسعة النِعَم وعدم الالتفات إلى الدور الهامّ لكلّ واحد منها في ديمومة حياة الإنسان، فالجهل بأهميّة بعض النعم؛ كالماء والهواء ونور الشمس، والاستهانة بالنعم الكبيرة؛ كالصحّة والأمن، يُوجبان أن تبقى الكثير من هذه النعم مجهولة للإنسان، فقد قيل قديماً: «نعمتان مجهولتان؛ الصحّة والأمان».

٤ ـ اتّباع هوى النفس الذي يُعدّ مصدراً لعصيان الله والتمرّد على أوامره، والذي يأخذ بيد الإنسان لترك شكر ولي النعمة كتركه لسائر العبادات(١).

---

(١) أُنظر: النراقي، محمّد مهدي، جامع السعادات: ج١، ص٢٦٥ ـ ٢٦٨.

ولا شكّ بأنّ الإنسان لو أراد أن يتحلّى بصفة الشكر البنّاءة فعليه استئصال هذه الأسباب من قلبه.

الأسئلة

١ـ أرجو بيان الخسائر التي تحصل جرّاء نسيان الذات.

٢ ـ أرجو ذكر موردين من عوامل الغفلة، وثلاثة موارد من آثار الغفلة عن الله ونتائجها.

٣ ـ لماذا يسمّى الذكر اللساني ذكراً؟

٤ ـ ما هو دور الابتلاءات والمحن في طرد الغفلة والتخلّص منها؟

٥ ـ أرجو بيان العلاقة بين (اليأس من رحمة الله والأمن من مكر الله) والطغيان والتمرّد على الله تعالى.

٦ ـ كيف يمكن أن يساعدنا القرآن الكريم في إزاحة رذيلة اليأس؟

٧ ـ ما هي الصفات الإلهيّة التي يتمّ إنكارها عندما يعتقد المرء بعدم شموله برحمة الله وعفوه وغفرانه؟

٨ ـ ما هو أصل رذيلة الأمن من مكر الله؟ وما هي السبل في معالجة ذلك؟

٩ ـ ما هو المراد من الكفران؟ أذكر أهمّ أثر له، وعدّد أسباب اتّصاف الفرد به.

للبحث والتأمّل

١ ـ بحسب اللحاظ الفلسفي لا يمكن للإنسان أن ينسى نفسه، فما هو المقصود من نسيان النفس في القرآن الكريم والأحاديث؟ وكيف يمكن أن ينسى الإنسان نفسه؟ تحقّقوا من ذلك.

٢ـ للعوامل والدواعي البيئيّة دور أساسي في حصول الغفلة. وكنموذج على ذلك حاول مع زملائك استعراض دور الإذاعة والتلفزيون في هذا المضمار.

٣ـ ما هي العقدة الأساسيّة التي يُصاب بها المجتمع في الوقت الراهن؟ هل

هي اليأس من رحمة الله أو الأمن من مكره؟ وببيان آخر: هل إنّ جانب الخوف هو الذي يطغى على المجتمع الآن أو جانب الرجاء؟ ابحثوا عن ذلك.

٤ ـ على ضوء ما يرى علم النفس وعلم الأنسنة لماذا ـ برأيكم ـ ينسى المرء تدريجيّاً النعمة التي بلغها، وفي النهاية يكفر بها؟ فكّروا أيضاً بجملة المشاكل والمصائب والمحن التي يبتلي بها الله تعالى عباده في هذه الدنيا، وكيف يمكن تبريريها وتوجيهها؟

٥ ـ تحاوروا مع زملائكم حول بعض النعم؛ كالصحّة والشباب. وما الذي يمكن أن يقوم به العبد إذا ما أراد أن يشكر هذه النعم من خلال النظر في معنى ومفهوم الشكر؟ هل يكفي الشكر اللساني فقط؟

٦ ـ تخيّلوا أنّ أحداً استطاع صناعة رجل آليٍّ ذكيٍّ، يمتاز بعقل صناعيٍّ وله نوع من الإدراك والشعور، فهل يكون على هذا الإنسان الآلي واجبات ووظائف عليه القيام بها إزاء مَن صنعه وسوّاه؟

الفصل الحادي عشر

تحسين العلاقة مع الله

(الحدّ الأدنى في الأخلاق العباديّة)

الأهداف

يُتوقّع من الطلّاب الأعزّاء بعد الانتهاء من هذا الفصل أن:

١ ـ يتعرّفوا على أهميّة اليقظة وفوائدها.

٢ ـ يتعرّفوا على معنى الخوف من الله ورجائه، وكذلك التعرّف على فوائد تلك المعاني وسبل التوصّل إليها.

٣ ـ يمتلكوا معياراً لقياس الأمل الحقيقي بالله والخوف الحقيقي منه سبحانه.

٤ ـ يتعرّفوا على الرؤية الإسلاميّة فيما يخصّ علاقة الخوف والرجاء.

٥ ـ يقفوا على معنى الشكر وحقيقته وأقسامه وطرق التحلّي به.

❋❋❋

أ) اليقظة

تعني اليقظة الوعي من نوم الغفلة[١]، والإفاقة من سكر الطبيعة. وهي أوّل مرحلة من مراحل السير والسلوك المعنوي، بحسب رأي العرفاء. فبعد الإسلام والإيمان والالتزام بالحدود والأحكام الإلهيّة على المؤمن الخروج من حالة الغفلة التي تكتنف حياته، ويبدأ حركته نحو الحقّ تعالى[٢]. فالشرط الأساسي للسلوك هو

---

(١) ينبغي الالتفات إلى أنّ ما جاء هنا بشأن مفهوم الغفلة والوعي هو في مضمار الأخلاق العباديّة وعلاقة العبد بالمعبود، غير ما تمّ التطرّق إليه في مجال نسيان الذات ومعرفتها؛ فإنّ الأخير قد بُحِثَ في ميدان الأخلاق الفرديّة.

(٢) أُنظر: شجاعي، محمّد، مقالات: ج٢، ص٢٣.

أن يُدرك الإنسان أنّه مازال فقيراً ومحتاجاً إلى الله، وحتّى يصل إلى الكمال لا بدّ أن يكون متعلّقاً ومرتبطاً به سبحانه؛ ومن هنا فهو عبارة عن مسافر، ويلزمه عند السفر الزاد والمتاع إضافةً إلى وجود المرشد(١).

إنّ الاستيقاظ من سبات الغفلة هو نور وفيض من المحبّة الإلهيّة الذي يقذفه الله تعالى في القلوب التي تحمل قابليّة واستعداداً لذلك(٢). فإنّ النفحات الإلهيّة الرحمانيّة تعمّ بالطبع كلّ الأرواح والقلوب، لكن القلوب التي اقتبست بصيصاً من السماء هي التي تحظى بهذه النفحة وهذا النور؛ «**إِلَهِي لَمْ يَكُنْ لِي حَوْلٌ فَأَنْتَقِلَ بِهِ عَنْ مَعْصِيَتِكَ إِلّا فِي وَقْتٍ أَيْقَظْتَنِي لِمَحَبَّتِكَ، وكَمَا أَرَدْتَ أَنْ أَكُونَ كُنْتُ، فَشَكَرْتُكَ بِإِدْخَالِي فِي كَرَمِكَ ولِتَطْهِيرِ قَلْبِي مِنْ أَوْسَاخِ الغَفْلَةِ عَنْكَ**»(٣).

النتائج

عندما يسطع قلب العبد بنور الهداية الإلهيّة، فسوف يُؤثّر ذلك في طبيعة علاقته مع العالم، وسوف يتنبّه إلى أُمور وقضايا كثيرة كانت الغفلة وسبات النسيان قد حرمته منها.

إنّ أوّل أثرٍ إيجابي لحالة اليقظة هو الالتفات الخاصّ إلى نعم الله الظاهرة والباطنة، فالإنسان اليقظ هو الذي أنار قلبه وعقله بنور الله تعالى، ويعتبر أنّ كلّ ما ينظر إليه ويشعر به هو نعمة من نعم الله سبحانه، ويُدرك جيّداً أنّ هذه النعم التي لا تُعدّ ولا تُحصى قد خُلقت من أجل غرس الوعي واليقظة في أعماقه، والتي سيتمكّن

(١) أُنظر: جوادي آملي، عبد الله، مراحل أخلاق در قرآن (= مراحل الأخلاق في القرآن): ص٢٣.

(٢) أُنظر: شجاعي، محمّد، مقالات: ج٢، ص٣٠ ـ ٣٢.

(٣) ابن طاووس، علي بن موسى، إقبال الأعمال، المناجات الشعبانيّة للإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام: ص٦٨٦.

الإنسان على ضوئها من الحركة والنهوض، وحينما يتعزّز هذا الوعي والعلم سوف يُدرك منزلته وحجمه الحقيقي ويعي القصور الذي لديه مقابل هذه النعم الكثيرة، وسيشعر بالخوف والحياء من المساءلة الإلهيّة، ويبدأ بالتفكير بجدٍّ وعزم بضرورة تصحيح الأخطاء السابقة وجبران ما فسد من عمله وسلوكه، ومن جهة أُخرى سيكتشف أنّ هذه النعم واللطائف الربّانيّة، لا يتمتّع بها بسبب استحقاقه لها، بل هي لطف ومنّ وفضل وكرم منه تعالى، وهذا سيعزّز وعيه بتقصيره وخوفه وأسفه على ما بدر منه من سيّئات بشكل أجلى وأكثر.

إنّ إدراك حقيقة الذنب والوعي بخطره الكبير، هو أثر آخر لهذه اليقظة، وعندما يتضاعف نور هذه اليقظة في قلب المؤمن، وبمستوى هذه النورانيّة تتجلّى فظاعة الذنب وقبحه، ويتبلور خوف خاصّ ونوعي في أعماقه.

وأيّ مرتبة من مراتب اليقظة يبلغها المؤمن، فإنّه سوف يُدرك بمستوى تلك المرتبة حقيقة عواقب عصيان أوامر الله، ويعتري وجوده الخوف من مؤاخذة الله له[١].

الحلول والمعالجات

إنّ المشاركة المستمرّة في مجالس الذكر والموعظة، والخلوة مع النفس، والتوجّه إلى الله، واستذكار الموت وأهوال القيامة، وزيارة القبور، ومجالسة الصالحين، والابتعاد عن مخالطة أهل الدنيا وذوي النفوس المريضة ومعاشرتهم، والصلاة في أوّل وقتها، وتلاوة القرآن، وقراءة وملاحظة حياة الصالحين وأولياء الله وسلوكهم، والاتّعاظ بالعاقبة السيّئة للغافلين، والابتعاد عن أكل الحرام، ستجعل قوى الإنسان يقِظة وجوانحه واعية وحذرة، ويكون مستعدّاً لذكر الله والأُنس به؛ لذا

---

(١) أُنظر: الكاشاني، عبد الرزاق، شرح منازل السائرين: ص٣٧. شجاعي، مقالات: ص٤٤ ـ ٥٠. شيخ الإسلامي، علي، راه ورسم منزلها (= طريق المنازل): ج١، ص٤٠ ـ ٤١.

نرى أنّ الإمام السجّاد عليه السلام يدعو الله أن يجعله دائماً متفانياً في ذكره[١]، فيقول عليه السلام في دعائه: «**وَاشْغَلْ قُلُوبَنا بِذِكْرِكَ عَنْ كُلِّ ذِكْر**»[٢].

ب) الخوف والرجاء

الخوف بمعنى القلق والخشية بسبب احتمال وقوع أمرٍ غير مرغوب في المستقبل، قال الراغب في مفرداته: «**الخوف توقّع مكروه عن أمارة مظنونة أو معلومة**»[٣]، وهذا القلق يدفع الفرد إلى الإقدام على إزاحته ورفعه[٤]. وعليه يمكن القول: إنّ هناك فرقاً أساسيّاً بين الخوف و(الجُبن) الذي يُعدّ من الرذائل الأخلاقيّة، ويُعتبر علامة على ضعف النفس؛ وذلك لأنّ الأخير هو عبارة عن امتناع النفس عن الإتيان بما يعدّه العقل والشرع حَسناً.

وأمّا (الرجاء) فهو شعور بالراحة، والإحساس بنوع من الهدوء في القلب؛ بسبب توقّع ظهور ما يُحمد عقباه من أمور حسنة فيما لو اجتمعت جملة من الأسباب والحيثيّات التي تُساعد على حدوث ذلك، أمّا لو كانت تلك الأسباب والحيثيّات غير معلومة التحقّق، سمّي ذلك الانتظار والتوقّع رغبةً وتمنّياً، وأمّا لو لم تكن الأسباب والعلل متاحة، كان الانتظار (غروراً) و(حماقة).

ففي السير والسلوك الإلهي يجب أن لا تُطلب الهداية إلّا من الله، ولا يتعلّق الأمل والرجاء إلّا به «**مِنْ أَيْنَ لِيَ الخَيْرُ يا رَبِّ، وَلاَ يُوجَدُ إِلاَّ مِنْ عِنْدِكَ، وَمِنْ أَيْنَ لِيَ النَّجَاةُ، وَلاَ تُسْتَطَاعُ إلاَّ بِكَ**»[٥].

---

(١) أُنظر: المدني، علي خان بن أحمد، رياض السالكين في شرح صحيفة سيّد الساجدين: ج٢، ص٤٥٣.

(٢) الإمام السجاد عليه السلام، الصحيفة السجّاديّة، الدعاء الحادي عشر.

(٣) الراغب الأصفهاني، الحسين بن محمّد، المفردات في غريب القرآن: ص١٦١.

(٤) أُنظر: الفيض الكاشاني، ملّا محسن، المحجّة البيضاء: ج٧، ص٢٤٩، وص٢٥٠ وص٢٦٩.

(٥) ابن طاووس، علي بن موسى، إقبال الأعمال، دعاء أبي حمزة الثمالي: ص١٤٨.

أمّا من جهة الله تعالى، فإنّ هدايته للعباد لونٌ من ألوان رحمته الواسعة التي كتبها على نفسه، قال تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾(١)، وقد ضمن لعبده الإجابة عندما يدعوه ويتضرّع إليه، فقال عزّ وجلّ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾(٢)، وقال أيضاً: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي وَلْيُؤْمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾(٣). وكذلك نحن نقرأ في دعاء كميل: «**فإنَّكَ قَضَيْتَ عَلى عِبادِكَ بِعِبادَتِكَ، وأمَرْتَهُمْ بِدُعائِكَ، وضَمِنْتَ لَهُمُ الإجابَةَ**»(٤)، فهل هناك أصدق قولاً من الله وهو القائل: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾(٥).

بحسب ما تقدّم بيانه نجد من البديهي أنّ ضعيف الإيمان لو تمسّك برحمة الله تعالى واعتمد عليها فقط بدلًا من العمل الصالح، فإنّ ذلك يُعتبر حمقاً وغروراً، وهذا من عوامل الهلاك والخسران(٦)، قال تعالى: ﴿أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾(٧).

وعن الرسول محمّد صلى الله عليه وآله أنّه قال: «... **والأَحْمَقُ والعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا، وتَمَنَّى عَلَى الله المغْفِرَةَ**»(٨).

---

(١) الأنعام: آية٥٤.

(٢) غافر: آية٦٠.

(٣) البقرة: آية١٨٦.

(٤) ابن طاووس، علي بن موسى، إقبال الأعمال، دعاء كميل: ص٧٠٩.

(٥) النساء: آية١٢٢.

(٦) أُنظر: الفيض الكاشاني، ملّا محسن، المحجّة البيضاء: ج٧، ص٢٤٩ وص٢٥٠.

(٧) الأعراف: آية٩٩.

(٨) ابن أبي الحديد المعتزلي، شرح نهج البلاغة: ج٦، ص٣٧٤.

النتائج

إنّ الخوف والرجاء يؤدّيان إلى مضاعفة السعي والنشاط من أجل أداء الوظائف العباديّة، روي عن الإمام علي عليه السلام أنّه قال: «**مَنْ رَجَا شَيْئاً طَلَبَهُ، وَمَنْ خَافَ شَيْئاً هَرَبَ مِنْهُ**»(١).

وفي هذه الحالة يسعى الإنسان إلى المحافظة على ما هو في معرض رجائه، ومنح العلل والأسباب المؤدّية إلى تحقّقه الديمومة والاستمرار، كما سوف يسعى إلى تحصيل العوامل الأخرى التي تكون دخيلة في تحقّق ما يرجوه.

إنّ الخلاص والفلاح هما أيضاً من الآثار الأُخروية للأمل بالله، فلو ظنّ العبد بربّه خيراً وعلّق آماله عليه، كان الله تعالى عند حسن ظنّه، وسوف لا يبدّل أمله باليأس والقنوط، ولكن لو أساء العبد الظنّ بالله ولم يتوقّع رحمته ولم ينتظر عفوه وعونه، فقد حُرم من تلك الرحمة، يقول الإمام الرضا عليه السلام: «**أَحسِن الظنّ بالله؛ فإنّ الله عزّ وجلّ يقول: أنا عند ظنّ عبدي المؤمن بي، إن خيراً فخيراً، وإن شرّاً فشرّاً**»(٢).

هذا، وفي رواية أكثر شموليّة واردة عن الإمام الباقر عليه السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنّه قال: «**والذي لا إله إلّا هو ما أُعطي مؤمن قطّ خير الدنيا والآخرة إلّا بحسن ظنّه بالله، ورجائه له، وحُسن خلقه، والكفّ عن اغتياب المؤمنين، والذي لا إله إلّا هو لا يعذّب الله مؤمناً بعد التوبة والاستغفار إلّا بسوء ظنّه بالله، وتقصيره من رجائه، وسوء خلقه، واغتيابه للمؤمنين، والذي لا إله إلّا هو لا يُحسن ظنّ عبد مؤمن بالله إلّا كان الله عند ظنّ عبده المؤمن؛ لأنّ الله كريم، بيده الخيرات، يستحيي أن يكون عبده المؤمن قد أحسن به الظنّ ثمّ يُخلف ظنّه ورجاءه، فأحسنوا بالله الظنّ، وارغبوا إليه**»(٣).

---

(١) الكليني، محمّد بن يعقوب، الكافي: ج٢، ص٦٨.

(٢) المصدر السابق: ص٧٢.

(٣) المصدر السابق: ص٧١ ـ ٧٢.

وقال الله في كتابه الكريم: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾(١).

كما أنّ الخوف الحقيقي يحول دون وقوع الإنسان في المعاصي والقبائح، ويدفعه إلى عبادة الله والالتزام بطاعته؛ إذ يحاول مَن يخشى ربّه أن يُصلح ما فسد من سلوكه، ويحرص على مراقبة نفسه في المستقبل؛ ومن هنا فالخائف هو الإنسان الذي يُخلّص نفسه مما يخشى فيه العذاب(٢)؛ يقول الإمام علي عليه السلام: «**نِعْمَ الحاجِزُ عَنِ المعاصي الخوْفُ**»(٣).

وهنالك أثر آخر للخوف وهو أنّه ينمّي الفضائل ويضاعفها، ويطهّر باطن الإنسان من الرذائل والقبائح، والخوف يُذيب الشهوات واللذائذ الباطلة، فيمتلئ قلبه خشيةً وخضوعاً وذلّةً ومسكنةً أمام عظمة الله وكبريائه؛ وينتج عن ذلك اقتلاع الكبر والأنفة والحقد والحسد، وجرّاء الخوف يُلازم الإنسان التفكير بعاقبة أمره، ويكون دائم المحاسبة لنفسه(٤). فقد وعد الله الذين يخشونه ويهجرون شهواتهم خوفاً منه بالجنّة، فقال: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ (٤٠) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾(٥).

الحلول والمعالجات

إنّ التفكّر في الأسباب والعوامل التي تنبّه الإنسان إلى خطر الأمور السيّئة،

---

(١) الكهف: آية ١١٠.

(٢) أُنظر: الفيض الكاشاني، ملّا محسن، المحجّة البيضاء: ج٧، ص٣٧٠. نصير الدين الطوسي، محمّد بن محمّد، أوصاف الأشراف: ص٩٩.

(٣) التميمي الآمدي، عبد الواحد، تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ص١٩٠، ح٣٦٩٤.

(٤) أُنظر: الفيض الكاشاني، ملّا محسن، المحجة البيضاء: ج٧، ص٢٧٠.

(٥) النازعات: آية ٤٠ـ ٤١.

والاستذكار المستمرّ لذلك، سيؤدّي بالإنسان إلى الخوف والخشية من تلك الأسباب والعوامل؛ وقد دعا كبار علماء الأخلاق إلى التأمّل والتفكّر في جملة من الأمور من أجل إيجاد الخوف ومضاعفة الخشية في قلوب العباد، والتي منها: استذكار صعوبات الموت وعنائه، وعذاب القبر ووحدته، والوقوف بين يدي الله ونشر أسرار الإنسان وخباياه في عرصة القيامة، والحساب الربّاني الدقيق، والعبور على الصراط، ونار جهنّم، والحرمان مِن نعم الجنّة، وفقدان القرب الإلهي، والحرمان من مجالسة الأولياء والمقرّبين. ويستحسن هنا التأمّل أيضاً في الآيات والروايات ومطالعة أحوال الأنبياء والأولياء الصالحين وسِيَرهم.

من أهمّ العوامل التي تغرس الأمل والرجاء في نفس الإنسان التفكير في الآيات والروايات الكثيرة والتي تتعرّض بعضها إلى بيان خاصّ لصفة الرجاء والأمل[١]، وفي المقابل تحذّر آيات وروايات أُخرى الإنسان وبشدّة من اليأس والقنوط من رحمة الله سبحانه، قال تعالى: ﴿وَلَا تَاْيْـَسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾[٢].

وجاءت بعض الآيات والروايات أيضاً تنهى العباد عن الاعتماد على أعمالهم فقط، وحثّتهم على التمسّك والاعتماد على رحمة الله ورغّبتهم بها، كما جاء ذلك في الحديث القدسي: «**فلا يتّكل العاملون على أعمالهم التي يعملونها لثوابي؛ فإنّهم لو اجتهدوا وأتعبوا أنفسهم، وأفنوا أعمارهم في عبادتي، كانوا مقصّرين غير بالغين في عبادتهم كنه عبادتي فيما يطلبون عندي من كرامتي والنعيم في جنّاتي ورفيع درجاتي العلى في جواري، ولكن فبرحمتي فليثقوا، وبفضلي فليفرحوا، وإلى حسن الظنّ بي**

---

(١) أُنظر: الفيض الكاشاني، ملّا محسن، المحجّة البيضاء: ج٧، ص٢٥٣ ـ ٢٦٨. النراقي، محمّد مهدي، جامع السعادات: ج١، ص٢٤٥ـ ٢٥٢.

(٢) يوسف: آية٨٧. وأُنظر أيضاً: الزمر: آية٥٣. الحجر: آية٥٦.

فليطمئنوّا، فإنّ رحمتي عند ذلك تداركهم، ومَنّي يبلّغهم رضواني، ومغفرتي تلبسهم عفوي؛ فإنّي أنا الله الرحمن الرحيم، وبذلك تسمّيت»(١).

وهناك آيات وروايات عديدة تدلّ على الرحمة الإلهيّة العظيمة والمغفرة الربّانيّة العريضة، وتزرع الأمل في قلب كلّ عبدٍ عاصٍ، مثال ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾(٢).

كذلك ما جاء منها في باب شفاعة النبي والأئمّة الأطهار عليهم السلام، أو التي ذكرت أنّ جهنّم قد أُعدت للكافرين فقط، والتي تُؤكّد جميعها على الأمل والثقة بالله وعدم اليأس من رحمته.

وتجدر الإشارة إلى أنّ الخوف والرجاء ينبغي أن يكونا متوازنين في الإنسان حتّى يكونا مثمرين، وبتعبير آخر: لو كان مستوى أحدهما أكثر من الآخر سوف يؤدّي إلى نتيجة معكوسة، فقد ورد عن الإمام الباقر عن أبيه عليهما السلام: «**إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ عَبْدٍ مُؤْمِنٍ إِلَّا وَفِي قَلْبِهِ نُورَانِ؛ نُورُ خِيفَهٍ، وَنُورُ رَجَاءٍ، لَوْ وُزِنَ هَذَا لَمْ يَزِدْ عَلَى هَذَا، وَلَوْ وُزِنَ هَذَا لَمْ يَزِدْ عَلَى هَذَا**»(٣).

وقد أكّدت بعض الآيات الشريفة على ضرورة توازن الخوف والرجاء في قلب المؤمن(٤). فإنّ هاتين الصفتين متلازمتان في أصل وجودهما، وبحسب الواقع إذا

---

(١) الكليني، محمّد بن يعقوب، الكافي: ج٢، ص٦٠ ـ ٦١.

(٢) الزمر: آية٥٣؛ وأُنظر أيضاً: البقرة: آية٢٦٨. النساء: آية٤٨. الرعد: آية٦.

(٣) الكليني، محمّد بن يعقوب، الكافي: ج٢، ص٧١.

(٤) وذلك من قبيل الآيات التالية: الأنبياء: آية٩٠، والسجدة: آية١٦.

كان حدوث أمرٍ ما غير مرغوب فيه، فإنّ عدم حدوثه يكون مرغوباً ومطلوباً، وهو أساس الأمل والرجاء. وفي النتيجة كلّما كان هناك خوف في قلب الإنسان رافقه رجاء أيضاً، وكلّ أمل يحمل في طيّاته خشيةً؛ ومن هنا ينبغي ضبط هذه العلاقة، وتحقيق التوازن بين هاتين الحالتين(١).

ج) الشكر

قال الراغب في مفرداته: «**الشُّكْرُ: تصوّر النّعمة وإظهارها**»(٢). وكلّما تعرّف الإنسان على صفات الباري تعالى وأفعاله واكتشف أنّ الله سبحانه منّ عليه بنعم وعطايا كثيرة، وأدرك أنّ المنعم قادر على مضاعفتها له وكذلك يقدر على أخذها منه ومنعها عنه، حينها ستتجلّى لديه جملة من الحالات، ومنها الشكر والثناء.

إنّ شكر المنعم وحمده هو ميل ورغبة فطريّة مغروسة في باطن الإنسان، وهي تتجلّى أمام كلّ محسن وكلّ منعم، فالإنسان يجد نفسه مضطرّاً للشكر إزاء مَن يُحسن إليه لساناً ولفظاً أو سلوكاً وعملاً، شكراً ينبغي أن يتناسب مع حجم الإحسان المقدّم إليه منه، ومصدر كلّ ذلك هو إحساس فطري وشعور باطني. وحيث إنّ الله هو مصدر الإحسان والإنعام بالنسبة للإنسان، فلا بدّ أن يكون هذا الشعور والإحساس آكد وأعمق إزاء تلك النعم غير المتناهية منه سبحانه، قال تعالى: ﴿... ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴾(٣).

ونجد أنّ الله سبحانه قد وصف نفسه بالشكور أيضاً؛ بمعنى أنّه يشكر عمل

---

(١) أُنظر: النراقي، ملّا أحمد، معراج السعادة: ص٢٥٣.

(٢) الراغب الأصفهاني، الحسين بن محمّد، المفردات في غريب القرآن: ص٢٦٥، مادّة (شكر).

(٣) سبأ: آية١٣.

عباده، ويعوّضهم عن ذلك، قال تعالى: ﴿...إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾(١). وهذه الصفة هي نعت للباري سبحانه يلازم ربوبيّته، فلو أنّ الله قد ترك مخلوقه وقطع التواصل عنه لم يكن شَكوراً إطلاقاً.

ثمّ إنّ الإنسان إذا ما أراد تحقيق كمال الشكر عليه القيام بما يلي:

١ـ أن يعتقد أنّ جميع النعم والعطايا من الله تعالى.

٢ ـ أن يكون مسروراً بما أعطاه الله وأنعم عليه من نعم، وسروره القلبي هذا ليس ناشئاً من طلب اللذائذ الدنيويّة، ومن هنا فإنّ كلّ نعمة تُنسيه ذكر الله وتسبّب له الغفلة عن نفسه، فإنّه سوف يغتمّ في حال الحصول عليها ولا يشعر بالفرح أو الراحة.

٣ ـ عليه أن يسعى دائماً لبلوغ رضا الله وطاعته، ويسخّر النعم والعطايا الربّانيّة في التقرّب إليه والابتعاد عن معصيته، وأن لا يكون الشكر والحمد لسانيّاً فقط، بل لا بدّ أن يكون عمليّاً أيضاً؛ قال الإمام علي عليه السلام: «**مَنِ اسْتَعَانَ بِالنِّعْمَةِ عَلَى المَعْصِيَةِ فَهُوَ الكَفُورُ**»(٢).

وبالطبع، ينبغي إدراك أنّ الشكر الحقيقي لنعم الله الكثيرة غير ممكن؛ لأنّه وبغضّ النظر عن النعم اللامتناهية التي وهبها الله للعباد فإنّ كلّ شكر على نعمة ما يستدعي شكراً وحمداً آخر؛ قال الإمام علي عليه السلام: «**مَنْ شَكَرَ الله سُبْحَانَهُ وَجَبَ عَلَيْهِ شُكْرٌ ثَانٍ إِذْ وَفَّقَهُ لِشُكْرِهِ، وَهُوَ شُكْرُ الشُّكْرِ**»(٣).

وكيف لليّد واللسان أن يُؤديا شكر الله؟

فحريٌّ بالعبد أن يعتذر لله عن تقصيره في أداء شكره.

---

(١) الشورى: آية٢٣.

(٢) التميمي الآمدي، عبد الواحد، تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ص٣٢٣، ح٧٤٩٤.

(٣) المصدر السابق: ص٢٧٨، ح٦١٣٣.

وإلّا فلا يمكن لأحد أن يُؤدّيَ حقّ ربوبيّته جلّ وعلى(١).

النتائج والآثار

إنّ شكر الله تعالى في أيّ مرتبة ومستوى كان فإنّ له آثاراً وثماراً خاصّة تناسب تلك المرتبة، وزيادة النعمة وكثرتها هي أحد آثار ونتائج الشكر. وفي المقابل فإنّ الكفران بنعم الله وخيره هو عذاب إلهي وهو يؤدّي إلى زوال النعمة، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾(٢).

فإنّ الله تعالى يرفع العذاب عمَّن يشكر من عباده(٣)، أي أولئك الذين يشكرون الله ويحمدونه شكراً وحمداً حقيقيّاً، ويوظّفون النعم الإلهيّة في سبيل طاعة الله جلّ وعلى. قال تعالى: ﴿ مَّا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴾(٤).

فقد وعد الله الشاكرين جزاءً طيّباً وعهد إليهم الثواب الكثير، وذلك كما جاء في قوله تعالى: ﴿... وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴾(٥).

---

(١) از دست وزبان كه برآيد | كز عهده شكرش به در آيد
بنده همان به كه ز تقصير خويش | عذر به درگاه خداى آورد
ورنه سزاوار خداونديش | كس نتواند كه به جاى آورد

سعدي، مصلح الدين، گلستان (= الروضة)، ديباجه (=المقدمة).

(٢) إبراهيم: آية٧. وللاطّلاع أكثر حول هذا الموضوع أُنظر: محمّدي الريشهري، محمّد، ميزان الحكمة، باب الشكر.

(٣) أُنظر: مكارم الشيرزاي، ناصر، وآخرون، تفسير نمونه (تفسير الأمثل): ج٤، ص١٨٢. البروسوي، إسماعيل حقّي، تفسير روح البيان: ج٢، ص٣١١.

(٤) النساء: آية١٤٧.

(٥) آل عمران: آية١٤٤.

إنّ الحبّ الإلهي هو ثمرة أُخرى وكنز ثمين من كنوز الشكر، الذي يحظى به الشاكرون الحامدون، فقد ورد عن الإمام السجّادعليه السلام قوله: «**إِنَّ الله يُحِبُّ كُلَّ قَلْبٍ حَزِينٍ، ويُحِبُّ كُلَّ عَبْدٍ شَكورٍ**»(١).

الحلول والمعالجات

إنّ الملاحظة والتفكّر المتواصل في المخلوقات المبثوثة في الكون، والتأمّل في النعم الإلهيّة الكثيرة، والتدبّر في سعتها ودقّتها، والتأمّل في تسخير الله تعالى كلّ هذه المخلوقات لهداية الإنسان وسعادته، كلّ ذلك سيدفع الإنسان إلى شكر الله وحمده من محض رغبته ومحبّته.

إنّ توفّر النعمة أحياناً وإتاحتها يُضمر قيمتها وقدرها؛ ومن هنا فلو وطّن الإنسان نفسه على تصوّر فقدان النعمة ستتجّلى له أهمّية تلك النعم وعظمتها بشكل أكثر، ومن أجل ذلك فإنّ التواصل مع من فقدوا بعض النعم وحُرموا منها سيكون نافعاً في هذا الصدد، كما أنّ إسعاد المحتاجين وزيارة المرضى يجعل من الإنسان واعياً بقدر وعظمة ما لديه من النعم الإلهيّة.

مضافاً إلى ذلك، فإنّ على الإنسان التأمّل في آثار كلٍّ من شكر النعمة وكفرانها، وينبغي له التفكير والتدبّر في الآيات والروايات التي حثّت على شكر الله وحمده، وحذّرت من الكفران وعواقبه.

الأسئلة

١ ـ ما هي النتائج الإيجابيّة لليقظة والوعي وآثارهما على حياة الإنسان؟

٢ ـ ماذا يعني الخوف من الله؟ وهل أنّ الله مخيف بحيث يجب الخوف منه؟

---

(١) الكليني، محمّد بن يعقوب، الكافي: ج٢، ص٩٩.

٣ ـ ما هي علامة الأمل الحقيقي بالله والخوف منه؟

٤ ـ ما هي أخطار التفريط والإفراط في مسألتي الخوف والرجاء؟ وما هي السبل الكفيلة للخلاص منها؟

٥ ـ ما هي مراحل شكر الله؟

٦ ـ كيف يمكن تعزيز حالة الشكر في القلب؟

للبحث والتأمّل

١ ـ هناك معانٍ أُخرى للخوف من الله لم ترد في هذا الدرس، أرجو البحث عنها من خلال مراجعة الكتب الأخلاقيّة والعرفانيّة؟

٢ ـ ما الذي يمكن أن يتركه اقتران الخوف بالرجاء من آثارٍ في قلب المؤمن؟

٣ ـ هل إنّ نظريّة توازن الخوف والرجاء وتعادلهما هي نظريّة فريدة من نوعها؟ ولماذا؟

٤ ـ هل إنّ الخوف والرجاء يُعدّان سبباً للانزواء والكسل واللامبالاة أو أنّهما يدفعان الإنسان للنشاط والحيوية والعمل؟ استدل على ذلك.

❃ ❃ ❃

الفصل الثاني عشر

العلاقة النموذجيّة مع الله

(الحدّ الأعلى في الأخلاق العباديّة)

الأهداف

بعد قراءة هذا الفصل يمكن للطلّاب الأعزّاء أن:

١ـ يتعرّفوا على مفاهيم التوكّل والرضا والتسليم، ويتمكّنوا من تحديد مصاديقها.

٢ ـ يحصلوا على تصوّر صحيح عن محبّة الله وعشقه.

٣ ـ يتعرّفوا على سبيل التحلّي بالمحبّة الإلهيّة، ويكتشفوا نتائج عشق الله في الميادين المختلفة في حياة الإنسان.

٤ ـ يصلوا إلى المعرفة الصحيحة المتعلّقة بالرزق، ويتمكّنوا من الجمع بين الرضا بالرزق المكتوب والمقدّر وبين السعي وراء سُبل تحصيله.

٥ ـ يتعرّفوا على السُبل الموصلة إلى مقام الرضا، وآثار الرضا من الله تعالى.

٦ ـ يبيّنوا ماهيّة العلاقة بين الرضا عن الله واصلاح العلاقة مع الآخرين.

* * *

أ) التوكّل

التوكّل لغةً: يعني اتّخاذ الغير وكيلاً وإناطة عملٍ ما به، ويُقال لَمَن يُنيط بعض أعماله بالغير موكّلاً، ولَمَن يقوم بتلك الأعمال ويُنجزها وكيلاً، والإنسان المتوكّل هو مَن يفوّض تدبير أُموره وقضاياه إلى الله تعالى، ويجعل الله وكيلاً عنه في ذلك.

وفي بداية الأمر ينبغي التساؤل عن الفارق الأساسي بين المتوكّلين وغير المتوكّلين، فهل أنّ التفاوت بين الطائفتين يعود إلى الاستفادة من الأسباب والعلل المادّية؟ إنّ الحقيقة هي أنّ المتوكّل وغير المتوكّل يستثمران الأسباب المادّية لبلوغ طموحهما.

في الواقع أنّ صرف التوكّل على الله دون الإفادة من العوامل والأسباب المادّية لا يُؤدّي إلى نتيجة؛ فإنّ الله تعالى ومن خلال جعل نظام العلل والمعلولات ومنح السببيّة للأسباب، فقد ضمن استجابة الدعاء وتحقيق ما يقصده العبد عبر هذه المنظومة السببيّة، فقد أوحى الله تعالى إلى موسىعليه السلام عندما أراد أن يتداوى من دون دواء: «**أرَدتَ أن تُبطِلَ حِكمَتي بِتَوَكُّلِكَ عَلَيَّ؛ مَن أودَعَ العَقاقيرَ مَنافِعَ الأشياءِ غَيري؟!**»(١).

فكما أنّ الاعتماد على الأسباب من دون الله ناقض للتوكّل، فكذلك يكون إنكار تلك الأسباب منافياً للتوكّل وإنكاراً للإرادة التي منحت تلك الأسباب والعلل أثراً ونتيجةً؛ لذلك ورد عن النبيصلى الله عليه وآله قوله: «**اعْقِلْهَا وَتَوَكَّلْ على الله**»(٢).

وفي مقابل ذلك، فإنّ هناك تأثيراً للأسباب والعلل بغضّ النظر عن الاعتقاد بالله والتوكّل عليه، فتجد في هذا الصدد أنّ مَن لم يكن لديه إيمان بالخالق إلّا أنّه يُطبّق نظام العلل والمعلولات، ويسخّر ذلك لبلوغ النتائج المطلوبة، تجده ينجح في الوصول إلى ما أراد. ومن هنا؛ فنحن نسأل عن طبيعة الفارق بين الطائفتين، لنقول: لا شكّ أنّ الاختلاف بينهما يعود إلى أمر هامّ وهو المعرفة والبصيرة، بمعنى أنّ الإنسان المتوكّل يرى الحقيقة الكامنة وراء تلك العلل والأسباب، الأمر الذي يُحرم منه غير المتوكّل؛ فإنّ نفس ذلك الوعي والمعرفة هو كمال الإنسان. فالمتوكّل عندما يُريد استخدام الدواء للعلاج يُدرك ويرى أنّ الدواء ليس هو سبب العلاج والشفاء، بل إنّ الله تعالى هو المعالج بواسطة السبب وهو الدواء. والفرق الآخر بين الطائفتين المتقدّمتين هو أنّ مستوى الأمل بالنجاح والتوفيق لدى الإنسان

---

(١) الفيض الكاشاني، ملّا محسن، المحجّة البيضاء: ج٧، ص٤٣٢.

(٢) الديلمي، حسن بن محمّد، إرشاد القلوب: ج١، ص١٢١.

المتوكّل أكثر من غير المتوكّل، وهذا نفسه يدفع بالإنسان إلى تعزيز الإرادة وشحذ الهمّة لبلوغ المقصد، ويكون دافعه إلى ذلك أكبر.

لقد اقتضت حكمة الله أن تجري الأُمور على ضوء عللها وأسبابها، فعَنْ أَبِي عَبْدِ اللهِ عليه السلام أَنَّهُ قَالَ: «**أَبى الله أَنْ يُجْرِيَ اَلأَشْيَاءَ إِلّا بِأَسْبَابٍ، فَجَعَلَ لِكُلِّ شَيْءٍ سَبَباً**»[١]. ولكن تبقى قدرة الله وإرادته فوق هذا القانون، فلا تتحدّد به، وكلّما علم الله صلاحاً فأنّه ينقض ذلك القانون، وذلك من قبيل جعل نار النمرود العظيمة برداً وسلاماً على إبراهيم عليه السلام، فإنّ الله تعالى يتدخّل في هذا المسار أحياناً من أجل تكامل المعرفة الإنسانيّة والتربية المعنويّة للإنسان. مثال ذلك: قد يخلق الله سبباً جديداً في حال تلاشي واضمحلال جميع الأسباب المادّية، وأحياناً يمحي ويقوّض بعض الأسباب المادّية المتاحة من أجل تلك المصلحة.

يقول الإمام علي عليه السلام: «**عَرَفْتُ اللهَ سُبْحَانَهُ بِفَسْخِ العَزَائِمِ، وَحَلِّ العُقُودِ، ونَقْضِ الهِمَم**»[٢].

فإنّ الإنسان عندما يلاحظ كيف أنّ العديد من القرارات تنهار، وتنهدم كلّ التحضيرات والاستعدادات لذلك دون الوصول إلى نتيجة تذكر، سوف تتعزّز معرفته، وتُفتح لديه عين البحث عن الحقيقة. حيث إنّ الله تعالى ومن خلال هذه الوقائع يُظهر للإنسان حضوره وتأثيره ويُفهم البشر أنّه الوحيد الذي يُدير الكون ويدبّره، وبيده سبحانه فقط تسير الأُمور.

وممّا ذكرنا يتّضح أنّ هناك ركنين أساسيّين في عمل وسلوك المتوكّلين هما: التمسّك بالأسباب والعلل المادّية، والآخر: إدراك مدى تأثير الله تعالى، وأنّ تلك الأسباب والعلل غير مؤثّرة من دونه.

---

(١) الكليني، محمّد بن يعقوب، الكافي: ج١، ص١٨٣.

(٢) نهج البلاغة، تحقيق: صبحي الصالح: ص٥١١، الحكمة ٢٥٠.

ثمّ إنّ الشيطان عندما يحارب الإنسان يعمل بخدعة مزدوجة، بتقريب أنّه كلّما يكون السياق جارياً في المسائل المادّية والقضايا الدنيويّة، فهو يسعى إلى تعظيم الركن الأوّل، ويحاول تضعيف دور الركن الثاني، وأمّا عندما يكون السياق جارياً في المسائل المعنويّة والقضايا الأُخرويّة فهو يعمل على العكس من ذلك، بمعنى أنّه بدلاً من أن يترك الإنسان يقوم بتهذيب نفسه والعمل على ترويضها، فإنّه يغرس في أعماقه أملاً وطموحاً عريضاً، ويقول له: إنّ الله لطيف كريم، وإنّ رحمته تشمل كلّ العباد(١).

النتائج والآثار

١ ـ الأمل: كلّما تحقّقت جميع الأسباب والعلل المادّية وأُتيحت كلّ الظروف المناسبة للوصول إلى المطلوب، فإنّ الإنسان المتوكّل لا يعقد أمله على تلك الأسباب في تحقّق ما يصبو إليه، بل على اللطف الإلهي الذي أودع السببيّة في تلك الأسباب. وكلّما عُدمت جميع الأسباب والعلل الماديّة، وفُقد الأمل ظاهراً بالوصول إلى النتيجة المرجوّة، فإنّ الإنسان المتوكّل لا يفقد أمله بتاتاً، ولا يقطع رجاءه من المشيئة الإلهيّة النافذة.

٢ ـ القوّة والإرادة التي لا تُقهر: فقد ورد عن الإمام الباقر عليه السلام: «**مَنْ تَوَكَّلَ عَلَى الله لَا يُغْلَبُ، وَمَنِ اعْتَصَمَ بالله لَا يُهْزَمُ**»(٢)، وقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَكُونَ أَقْوَى النَّاسِ، فَلْيَتَوَكَّلْ عَلَى الله**»(٣).

٣ ـ العزيمة والثبات عند مواجهة الصعاب: حيث إنّ الإنسان المتوكّل يُدرك أنّ الله تعالى هو سنده وعماده، فسوف لا يستسلم للمشاكل والعقد الحياتيّة، بل

---

(١) أُنظر: الخميني، روح الله، الأربعون حديثاً: باب التوكّل.

(٢) الطبرسي، علي بن حسن، مشكاة الأنوار: ص١٧.

(٣) ابن شعبة الحرّاني، الحسن بن علي، تحف العقول: ص٢٧.

يواجهها بثبات وثقة؛ فنحن نقرأ في دعاء الإمام الحسن عليه السلام: «**يا عليّ المكان، كيف أخاف وأنت أملي، وكيف أُضام وعليك متّكلي**»(١).

٤ ـ القدرة على اتّخاذ القرار: من الأُمور التي تقف حائلاً أمام اتّخاذ القرار الحاسم هو احتمال الفشل والإحساس بالضعف وفقدان السند والداعم القوي، إلّا أنّ مَن يتوكّل على الله سوف يكون لديه القدرة الكافية على حسم أُموره واتّخاذ القرارات بثقة أكبر.

٥ ـ نيل المحبّة الإلهيّة: قال تعالى: ﴿... **فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ**﴾(٢)، وقد جاء في الحديث القدسي: «**ووَجَبَتْ مَحَبَّتي لِلْمُتَوَكّلين عَلَيَّ**»(٣).

٦ ـ ترك المعاصي وقهر الشيطان: قال تعالى: ﴿ **إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ** ﴾(٤).

٧ ـ الثقة العالية بالنفس وتطوير الذات وعلوّ الهمّة: فعن الإمام الجواد عليه السلام: «**الثِّقَةُ بالله تعالى ثَمَنٌ لِكُلِّ غالٍ، وسُلَّمٌ إلى كُلِّ عالٍ**»(٥).

٨ ـ السكون والاطمئنان القلبي: قال الإمام علي عليه السلام: «**لَيْسَ لِمُتَوَكِّلٍ عَناءٌ**»(٦)، وقال أيضاً: «**مَن توكَّل على الله أضاءت له الشُّبهات، وكُفي المؤونات، وأمن التَّبعات**»(٧).

---

(١) العاملي الكفعمي، إبراهيم بن علي، المصباح: ص٢١٤.

(٢) آل عمران: آية١٥٩.

(٣) الديلمي، الحسن بن محمّد، إرشاد القلوب: ج١، ص١٩٩.

(٤) النحل: آية٩٩.

(٥) الديلمي، الحسن بن محمّد، أعلام الدين في صفات المؤمنين: ص٣٠٩.

(٦) التميمي الآمدي، عبد الواحد، تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ج١٩٧، ح٣٨٨٥.

(٧) المصدر السابق: ح ٣٨٨٧.

٩ ـ الغنى والاستكفاء: قال تعالى: ﴿... وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا﴾(١)، وقال الإمام علي‏عليه السلام: «**مَن وَثِقَ بالله أراهُ السُّرورَ، ومَن تَوَكَّلَ علَيهِ كَفاهُ الأُمور**»(٢)، وقال أيضاً: «**مَنْ كَانَ مُتَوَكِّلاً لَمْ يَعْدَمِ الإِعَانَة**»(٣).

١٠ ـ بلوغ الوجاهة وكرامة المنزلة: فقد جاء في الدعاء: «**اَللَّهُمَّ أَغْنِنِي بِاليَقِينِ، وأَعِزَّنِي بِالتَّوَكُّلِ**»(٤).

١١ ـ العزّة وعدم الحاجة: فقد ورد عن الإمام الصادق‏عليه السلام: «**إنّ الغنى والعزّ يجولان، فإذا ظفرا بموضع التَّوكُّل أوطنا**»(٥).

١٢ ـ تمييز الحقّ من الباطل: يقول الإمام علي‏عليه السلام عن ذلك ما يلي: «**مَن توكَّل على الله أضاءت له الشُّبهات**»(٦).

١٣ ـ الخلاص من الأعداء والموبقات: قَالَ أمير المُؤْمِنِينَ‏عليه السلام: «... **والتَّوَكُّلُ عَلَيْهِ نَجَاةٌ مِنْ كُلِّ سُوءٍ، وحِرْزٌ مِنْ كُلِّ عَدُوٍّ**»(٧).

الحلول والمعالجات

تولد خصلة التوكّل في أحضان الرؤية التوحيديّة، فإنّ طريق بلوغ التوكّل في الواقع هو المعرفة والوعي، أو قل: تصحيح الرؤية، ولكن ينبغي أن تنبثق هذه

---

(١) الطلاق: آية٣.

(٢) الإربلي، علي بن عيسى، كشف الغمّة في معرفة الأئمّة: ج٢، ص٣٤٦.

(٣) التميمي الآمدي، عبد الواحد، تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ص١٩٧، ح ٣٨٨٣.

(٤) الطوسي، محمّد بن الحسن، مصباح المتهجّد: ص٣٥٩.

(٥) الكليني، محمّد بن يعقوب، الكافي: ج٢، ص٦٥.

(٦) التميمي الآمدي، عبد الواحد، تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ص١٩٧، ح ٣٨٨٧.

(٧) الإربلي، علي بن عيسى، كشف الغمّة في معرفة الأئمّة: ج٢، ص٣٤٦.

الرؤية من العقل والفكر، وتنعكس ثمارها على روح الإنسان، وتستقرّ في قلبه. وهناك جملة من السُبل لتعبيد هذا الطريق وسلوكه، منها: التأمّل في الآيات والروايات الواردة في فضيلة التوكّل، والتفكّر في القدرة والعظمة الإلهيّة، وحضورها الواسع في تفاصيل الكون، وقراءة التاريخ والتدبّر في وجوده سبحانه في سائر المنعطفات والحوادث التاريخيّة، وقراءة أحوال الأولياء والصالحين المتوكّلين وسيرهم، وترويض النفس على التوكّل والقبول بلوازمه، ومعاشرة المتوكّلين ومصاحبتهم.

ومن الطبيعي أن تتطلّب المحافظة على صفة التوكّل المراقبة المستمرّة في سائر المنعطفات والظروف الحياتيّة.

ب) المحبّة

نقرأ في القرآن الكريم قول الله عزّ وجلّ: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴾[١].

العشق لون من ألوان الوله والهيام بشيء أو شخص ما، وتُرافق العاشق حالة من السُكر وفقدان الوعي والذهول عن الذات، وبدواً يمكن طرح السؤال التالي: هل يمكن تطبيق موضوع العشق على الذات المقدّسة؟ وبعبارة أُخرى: هل يمكننا عشق الله وحبّه والذوبان فيه أيضاً؟

فقد اختلفت وجهات النظر في عشق الذات المقدّسة، فبعضٌ اعتبر ذلك أمراً غير ممكن وغير مطلوب، وقال: إنّ ادّعاء العشق الإلهي لا أساس له إطلاقاً. كما

---

(١) البقرة: آية١٦٥.

ذكر البعض أنّ المحبّة والعشق هما وصفان شهوانيّان يتعلّقان فقط بالأُمور والأشياء المادّية؛ ولذا لا معنى لتعلّقهما بالله، وحينما تتعرض بعض الآيات والروايات إلى حبّ الله أو ما شابه ذلك، فالمقصود من محبّته هنا هو طاعته والاستجابة إلى أوامره وترك ما نهى عنه، قال تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾(١).

وقال عزّ وجلّ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾(٢).

وقال سبحانه أيضاً: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾(٣).

وبحسب ما يرى العشّاق فإنّ العشق ليس هو كما يسود الاعتقاد به، بل إنّ الهائمون بحبّ الله يرون، إلى جانب دعوتهم إلى تجربة الحبّ المنعشة وإكبارهم لساحة العشق المباركة، أنّه لا يمكن لكلّ أحد إدراك حقيقته، ويعتبرون العشق غير قابل للوصف والبيان.

إنّ العشق لا يمكن أن يتأتّى بارتداء الثياب البالية، ولا بالصمت أو طأطأة الرأس، بل إنّ العشق هو منهج خاصّ في الحياة، يناله الخواصّ الممحّصون فقط، الذين تكون عبادتهم عبادة الأحرار، من دون توقّع الأجر والجزاء، ولا يُدخلون في حساباتهم شيئاً عند خدمتهم لله تعالى، وتكون خشيتهم عن علم وإدراك، ولا

---

(١) آل عمران: آية٣١.

(٢) البقرة: آية١٦٥.

(٣) التوبة: آية٢٤.

يخرجون عن جنّة ذكر المحبوب، ولا يغيب عنهم ذكره الشافي للقلوب، فيُسعدون باسمه، ويحترزون بذكره، وتهتزّ قلوبهم له، ويعتريها الوله والهيام، فحين يُذكر اسمه يذهل العقل عن تدبيره، ويكون غارقاً في تصوّر المعشوق دون تخيّل شيء آخر، ويضعون اسمه على رأس كلّ منفعة؛ فهذه هي صور من تجلّيات العشق.

إنّ الحبّ حقيقة تسري في جميع الموجودات، فإنّ جميع البشر يعرفون الله بالفطرة، وتهوي قلوبهم إليه بشكل تلقائي، وأساس هذا العشق الفطري عبارة عن فقر عميق إلى الله، وكلّما كان هذا الاحتياج والفقر أعمق كانت الرغبة والتوق إليه سبحانه أشدّ وأكبر.

وما يميّز أهل العرفان عن الفلاسفة هو أنّ الطائفة الأُولى حيث إنّها تؤمن بقوّة العشق الفطري، فهي تسعى دائماً إلى تعزيز هذه القوّة، وهي تعتقد بضرورة تعزيز مركز الأحاسيس الإلهيّة السامية في النفس، والتخلّص من موانع التكامل والسموّ الروحي، وبحسب الاصطلاح: لا بدّ من تنقية القلب وتطهيره، عندها سيتمكّن الإنسان من الانطلاق بسفينة العشق القويّة والسريعة نحو الله(١).

النتائج والآثار

إنّ حبّ الله والتعلّق به يؤدّي إلى معرفته؛ ومن هنا فإنّ عشّاق الله الحقيقيين يُقال لهم: عرفاء. وتتميّز معرفة هؤلاء بالله والكون بأنّهم يرون الله في كلّ شيء، ولا يرون شيئاً سواه، ويعتقدون أن لا غنيّ سواه، والكلّ فقير إليه، وهو العزيز العظيم، وما سواه حقير لا قيمة له.

إنّ لهذا الفهم آثاراً خاصّة تنعكس على النظام العاطفي والسلوكي للعاشق،

(١) أُنظر: الطباطبائي، محمّد حسين، أُصول فلسفه وروش رئاليسم (=أُصول الفلسفة والمنهج الواقعي)، المقالة الرابعة عشرة.

منها: عدم طلب العون والمساعدة من غير الله، وعدم سؤال الحاجة من أهل الدنيا، والاعتقاد بأنّ النفس ليست مدينة ولا مفتقرة إلّا إلى الله. فإنّ العاشق الحقيقي للخالق العظيم هو مخلوق مضحٍّ ومتفانٍ فيه سبحانه، يستطيع أن يتجاوز كلّ ألوان التعلّق والتمسّك بالدنيا، كما أنّ الله تعالى شكورٌ لعبده، ويُثمّن جهوده، ويُثيبه عليها.

قال الشاعر:

لا تعبد الله بشرط الأجر كحال المتسوّلين

فالمولى نفسه يعرف طريقة رعاية العباد وتربيتهم(١).

الحلول والمعالجات

أوّل خطوة في مقام الحصول على محبّة الله والقرب منه هي معرفته، فلو لم نتمكّن من التعرّف على جمال الله وجلاله لا تستوطن المحبّة في القلب، هذا من جهة، ومن جهة أُخرى فإنّ استذكار نعمة الله وآلائه بشكل مستمرّ سوف يؤدّي إلى تعزيز المحبّة ومضاعفتها، فقد ورد عن النبي محمدﷺ: «**قال الله عزّ وجلّ لداودعليه السلام: أحببني، وحبّبني إلى خلقي، قال: يا ربّ نعم أنا أُحبّك فكيف أُحبّبك إلى خلقك؟ قال: أُذكر أياديَّ عندهم؛ فإنّك إذا ذكرت ذلك لهم أحبّوني**»(٢).

ومن جهة أُخرى ينبغي التخلّص ممّا يحول دون بلوغ المحبّة الإلهيّة والحصول عليها، ولا شكّ بأنّ حبّ الدنيا أحد الموانع الكبيرة لحبّ الله، كما قال النبي عيسىعليه السلام: «**لا يجتمع لكم حبّ الله وحبّ الدنيا**»(٣).

---

(١) تو بندگى چو گدايان به شرط مزد مكن   كه خواجه خود روش بنده پرورى داند

(٢) الراوندي، قطب الدين، قصص الأنبياء: ص٢٠٥.

(٣) ابن شعبة الحرّاني، الحسن بن علي، تحف العقول: ص٥٠٣. وقد ورد أيضاً: «حبّ الدنيا وحبّ الله لا يجتمعان». المالكي الأشتري، ورّام بن أبي فراس، تنبيه الخواطر ونزهة النواظر، (مجموعة ورّام): ج٢، ص١٢٢.

وقال الإمام علي عليه السلام: «**كيف يدّعي حبّ الله مَن سكن قلبه حبّ الدنيا**»(١).

هذا، وتعود أغلب العقبات المتعلّقة بالارتباط بالله إلى صعوبة إطاعة أوامره والتثاقل منها. وبعبارة أُخرى: لو تمكّنا من إزاحة هذه الصعوبة، واستبدلناها بلذّة العبادة، سوف تتجلّى لنا محبّة الله.

ج) الرضا والتسليم

الرضا يعني ألّا يكره العبد الحكم الذي صدر بحقّه من ربّه، ولا يبدر منه أيّ اعتراض ونفور على ما يقضيه الله ويقدّره. ويقابل الرضا السخط والنفرة، كذلك فإنّ الرضا يكون مصحوباً بترك أيّ اعتراض أو شكوى، قال الراغب في مفرداته: «**رضا العبد عن الله أن لا يكره ما يجري به قضاؤه، ورضا الله عن العبد هو: أن يراه مؤتمراً لأمره، ومنتهياً عن نهيه**»(٢).

والتسليم والتفويض هو: إيكال الأُمور إلى الله؛ بحيث لا يكون لرغبة العبد أيّ دخل فيها. وبتعبير آخر: فإنّ الرضا هو اندكاك رضا العبد ومراده في رضا الله ومراده، والتفويض هو: أن لا يرى العبد لنفسه أيّ حقّ في التصرّف(٣).

فعلى الرغم من تطابق ميل العبد ورغبته مع ما يُريده الله في مقام الرضا، إلّا أنّ ميل العبد لا يتلاشى تماماً، وأمّا في مقام التسليم، فإنّ الرغبة والميل القلبي للعبد يضمحل تماماً في ظلّ إرادة الله وقضائه؛ ومن هنا فإنّ مقام التسليم هو أرفع من مقام الرضا. وهناك اختلاف آخر بين المقامين، وهو: إنّ الرضا أكثر ما يُلاحظ فيه هو نتيجة العمل، فبعد أن يسعى العبد ويبذل جهده في العمل سيفرح بما قدّر الله

---

(١) التميمي الآمدي، عبد الواحد، تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ص١٤١، ح٢٥١٢.

(٢) الراغب الأصفهاني، الحسين بن محمّد، المفردات في غريب القرآن: ص٣٥٦، مادّة (رضي).

(٣) أُنظر: الخميني، روح الله، الأربعون حديثاً: ح١٣.

له، ويرضى به. ولكنّ الملاحظ في التسليم هو العمل نفسه، فالعبد في هذا المقام قد سلّم كلّ أموره إلى الله، وجعل نفسه تحت إرادته، ولا يفعل إلا ما يُريده محبوبه منه. وإن كان سيرضى بنتيجة عمله أيضاً.

وعليه يمكن تصوّر مراتب الرضا والتسليم على النحو التالي:

١ ـ مرحلة البدء والانطلاق، وهي مرحلة ألّا يكره العبد بقلبه ما يقدّره الله له.

٢ ـ المرحلة المتوسّطة، هي أن يتطابق ميله ورغبته مع ما يُريده الله، فيُريد ما يُريده الله.

٣ ـ المرحلة المتقدّمة، وهي أن يفنى العبد في إرادة الله، وتذوب كلّ رغباته وإراداته في إرادة الله تعالى.

فمَن أدرك أنّ الله عالم بحاجات العباد، وأنّه القادر على رفعها، وعرف أيضاً أنّه رؤوف رحيم بهم، سوف يوقن بأنّ ترك الاختيار لهذا الخالق العظيم سوف لا ينال من ورائه إلّا الخير والسعادة، وعندما يُذعن بأنّ كلّ وجوده وكلّ ما لديه منه سبحانه، ويعتقد كذلك أنّ الله هو علّة الوجود التي تفيض الوجود عليه وعلى سائر المخلوقات، سوف يودع العبد كلّ ما لديه إلى الله. وذلك يعني أنّ الإنسان قد بلغ مقام التسليم، وعلى أثر عبادته وطاعته لله سوف يُفني كلّ ميوله فيما يُريده الله تعالى. ومن هنا فإنّ أسمى درجات التسليم والرضا هو التمسّك بالشريعة، قال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «**يُستدلّ على إيمان الرجل بالتسليم ولزوم الطاعة**»[1]، وقال عليه السلام أيضاً: «**رضى الله سبحانه مقرون بطاعته**»[2].

إنّ العبد الذي يعتمد على الله بشكل كامل، ويرى أنّ جميع ما يقدّره ويقضيه خير

---

(١) التميمي الآمدي، عبد الواحد، تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ص٨٤، ح١٣٦٠.

(٢) المصدر السابق: ح ٣٤٢٨.

وسعادة، سوف لا يرى عندما تُصيبه البلايا والمحن إلّا إرادة الله وقضاؤه، فقد ورد عن الرسول الأكرم محمدﷺ: «**إنّ عظيم البلاء يُكافأ به عظيم الجزاء، فإذا أحبّ الله عبداً ابتلاه، فمَن رضي قلبه فله عند الله الرضى، ومَن سَخِطَ البلاءَ فله عند الله السخط**»(١).

إنّ العبد المؤمن لا يرى أنّ الابتلاءات مقدّمة للفوز بالثواب والعناية الإلهيّة فحسب، بل حيث إنّه يعتقد أنّه مملوك لله، فهو مقتنع تماماً بأنّ للمالك العظيم أن يتصرّف ويفعل في ملكه ما يشاء. والأهمّ من ذلك هو وعي العبد ويقينه بأنّ الله قد خصّه برعاية خاصّة من بين جميع العباد، فإنّ ذلك سيُشعره بالسعادة والسرور، وهو ما يجعله لا يشعر بمرارة البلاء والمصيبة.

ينبغي الوعي بأنّ الرضا والتسليم لا يعني القبول بمعطيات الأمر الواقع أو الرضا بظلم الآخرين، بل إنّ العبد الراضي والمسلِّم لقضاء ربّه إنّما يكون كذلك بعد أن يقوم بكلّ ما يجب عليه القيام به من وظائف وواجبات ويؤدّيها بشكل تامّ؛ فهو يرضى بالنتيجة المتأتّية من ذلك باعتبارها أمراً مقدّراً من الله تعالى؛ وهنا يتجلّى رضاه وتسليمه، وهو الأمر الذي أشار إليه الإمام الخمينيقدس سره، بقوله: «**نحن مأمورون بأداء واجبنا، وليس بالحصول على النتائج**». وهذا لا يعني عدم لحاظ الأهداف والنتائج حين الإقدام على العمل، بل يعني التسليم والرضا إزاء ما يقضي به الله، وذلك يكون بعد بذل الوسع والاجتهاد من أجل التشخيص الصحيح للوظيفة وإنجازها بشكل تامّ.

إنّ المؤمن يعلم أنّ الله سبحانه وتعالى قد أجرى الأُمور بأسبابها وعللها، لذلك تجده يستجيب ويعمل على ضوء هذا الإرادة والحكمة، ومن أجل بلوغه إلى المطلوب تراه يُوفّر أسبابه، ويسلك مسالكه الطبيعيّة، كذلك فهو يُدرك أنّ توظيف

---

(١) الكليني، محمّد بن يعقوب، الكافي: ج٢، ص٢٥٣.

تلك الأسباب الظاهريّة ليس إلّا جزءاً من العوامل المؤثّرة في النجاح وبلوغ النتيجة؛ وعليه فإنّ الرضا والتسليم ـ كخصلة التوكّل ـ لا يعنيان العزوف عن استخدام الأسباب الظاهريّة وإهمالها، بل وعلى العكس من ذلك هما مدعاة لتهيئة تلك الأسباب وتحصيلها. وتجدر الإشارة هنا إلى أنّ الأسباب لا تنحصر بالأسباب الطبيعيّة والفيزيائيّة، بل تشمل أموراً أخرى من قبيل: الدعاء، والإيمان، والتوسّل بأهل البيت عليهم السلام وسائر العوامل الغيبيّة بشكل عامّ.

إنّ السعي في سبيل الوصول إلى الأهداف يُعدّ من التعاليم الإلهيّة؛ لذا تجد الإنسان المؤمن يعتبر نفس هذا السعي من جملة مصاديق الطاعة والتسليم، فيبذل كلّ سعيه في طريق العبوديّة والطاعة، وفيما لو لم تتحقق النتيجة المرجوّة فإمّا إن يُرجع ذلك إلى تقصيره، فلا يكون راضياً عن نفسه، وإما أن يعدّ ذلك من القضاء الإلهي، وهو راضٍ بقضاء الله.

النتائج

من آثار الرضا والتسليم هو الاطمئنان والسكون الدنيوي، فمَن اعتقد بأنّ الله تعالى هو الفيّاض والرحيم، تجلّت له قدرته وحكمته في سائر الأُمور؛ ولذلك سوف يغادره الحزن والبؤس.

قال الإمام علي عليه السلام: «**الرّضا ينفي الحزن**»(١)، وقال أيضاً: «**ارضَ تسْترِحْ**»(٢)، وقال الإمام الصادق عليه السلام: «**إنّ الله بعدله وقسطه جعل الروح والراحة في اليقين والرضى، وجعل الهمّ والحزن في الشكّ والسخط**»(٣).

وأحد نتائج رضا العبد وتسليمه بقضاء الله وقدره هو رضا الله عنه، والذي

---

(١) التميمي الآمدي، عبد الواحد، تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ص١٠٣، ح١٨٢٢.

(٢) المصدر السابق: ح١٨٥١.

(٣) الكليني، محمّد بن يعقوب، الكافي: ج٢، ص٥٧.

هو الرضوان الإلهي، فقد قال الإمام علي عليه السلام: «**عَلَامَةُ رِضَا الله سُبْحَانَهُ عَنِ العَبْدِ رِضَاهُ بِمَا قَضَى بِهِ سُبْحَانَهُ لَهُ وعَلَيْه**»(١).

ببيان آخر: إنّ رضا العبد عن الله ورضا الله عن العبد أمران يتفاعل أحدهما مع الآخر؛ ومن هنا فإنّ مَن يُريد من العباد بلوغ المراتب المتعالية والحقيقيّة من رضا الله تعالى، يجب عليه أن يصل إلى منازل متسامية وحقيقيّة من الرضا بقضاء الله وقدره.

ومن الثمار الأُخرى للرضا هو تكامل النفس والبلوغ الحقيقي للإنسان، فكما تقدّم ذكره من أنّ الرضا هو تنظيم رغبة العبد مع ما يُريده الله. وبعبارة أُخرى: فإنّ مقام الرضا هو مخالفة الرغبة النفسيّة ودكّها في إرادة المولى تعالى، ففي الواقع أنّ نفس هذه المخالفة مع النفس وعدم الخضوع لأوامرها هو سببٌ لنضوج النفس ورشدها وتعزيز قوّتها ورفعتها، قال الإمام علي عليه السلام: «**في خلاف النفس رشدها**»(٢).

إنّ رشد النفس وتكاملها لا يعني دعم النفس الحيوانية وتعزيزها، بل بمعنى أنّ النفس الإنسانيّة تتعالى من المراتب السافلة إلى المراتب العالية.

ومن الثمار والنتائج الأُخرى لفضيلة الرضا هو غنى النفس وعدم الافتقار للغير، فإنّ تضاعف المال يوهم بدواً باستغناء الإنسان وعدم حاجته، ولكن عندما نتأمّل ونلاحظ حياة الأغنياء والأثرياء من بني البشر، نجد أنّها خلاف المدّعى؛ وذلك لأنّه كلّما ازداد المال والثروة تضاعف اللهث والحرص على جمعه وزيادته أكثر، وازداد القلق والاهتمام بالمحافظة عليه بشكل أكبر؛ ومن هنا قيل: إنّ عطش طالب الدنيا يزداد يوماً بعد آخر، حيث سيكون مَثَلَه مَثَل الذي يشرب من الماء المالح، بمعنى أنّه كلّما ازداد شربه منه ازداد عطشه وظمأه. إنّ سعي أهل الثروة

---

(١) التميمي الآمدي، عبد الواحد، تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ص١٠٤، ح١٨٣٨.

(٢) المصدر السابق: ح٤٨٠٥.

الحثيث نحو متاع الدنيا هو علامة الشعور بالحاجة، وبالتالي فإنّ أولئك الذين يطلبون الطمأنينة والغنى في الدنيا يعيشون في وهم كبير؛ إذ ربّما يكون مَن يمتلكون قليلاً من الثروة يحظون بحالة من السكون وراحة البال تفوق ما لدى الأثرياء مئات المرّات، قال الرسول محمدﷺ: «**ارض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس**»(١)، وقال الإمام علي عليه السلام: «**اِرضَ مِنَ الرِّزق بِما قُسِمَ لَكَ تَعِش غَنِيّاً**»(٢).

إنّ حالة الاستغناء هذه تمنح الإنسان عزّة النفس والشعور بالكرامة التي لا تتحقّق بالأسباب الظاهريّة والمقامات الدنيويّة.

ومن الثمار والنتائج الأخرى لهذا الاستغناء والطمأنينة هو أنّ الإنسان سيبادر إلى العبادة بحضور القلب؛ وذلك لأنّ ما يحول دون التركيز في العبادات هو انشغال القلب بالأُمور والقضايا الدنيويّة، الأمر الذي سيتلاشى ويغادر تماماً من خلال الزهد والرضا، فقد ورد عن الرسولﷺ أنّه قال: «**قَالَ الله عزّ وجلّ: وعِزَّتِي وجَلاَلِي وعَظَمَتِي وبَهَائِي وعُلُوِّ اِرْتِفَاعِي لاَ يُؤْثِرُ عَبْدٌ مُؤْمِنٌ هَوَايَ عَلَى هَوَاهُ فِي شَيْءٍ مِنْ أَمْرِ اَلدُّنْيَا إِلاَّ جَعَلْتُ غِنَاهُ فِي نَفْسِهِ، وهِمَّتَهُ فِي آخِرَتِهِ، وضَمَّنْتُ اَلسَّمَاوَاتِ والأَرْضَ رِزْقَهُ، وكُنْتُ لَهُ مِنْ وَرَاءِ تِجَارَةِ كُلِّ تَاجِرٍ**»(٣).

إنّ انحرافات الإنسان إمّا أن تكون ناتجة من نفسه الأمارة أو من الوسوسة وخداع الشيطان، والإنسان المؤمن من خلال وصوله إلى مقام الرضا والتسليم سيحول دون تأثير رغبات النفس وميولها، وأيضاً سوف يكون مانعاً من تأثير حبائل الشيطان ومكائده؛ ومن هنا فإنّ الشيطان إذا ما أراد أن يوسوس للإنسان

---

(١) القمّي، محمّد بن علي بن بابويه، الأمالي: ص٢٠١.

(٢) التميمي الآمدي، عبد الواحد، تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ص٣٩٧، ح٩٢١٨.

(٣) الكليني، محمّد بن يعقوب، الكافي: ج٢، ص١٣٧.

الراضي والمسلّم أمره لله سوف يفشل ويُهزم؛ وذلك لأنّ تأثير وساوس الشيطان منوطٌ بوجود الميول والرغبات، وقد تمكّن هذا العبد من ضبطها.

ومن الآثار المهمّة الأُخرى للرضا والتسليم لله سبحانه هي إصلاح العلاقة مع الآخرين، بمعنى أنّه حينما يلحظ الفرد الله في جميع أُموره وشؤونه، ويعتقد أنّ محبوبه الوحيد هو المؤثّر الحقيقي والمستقلّ في العالم، عندها سوف لا يلوم الآخرين بسبب ما يُعانيه ويعيشه من ظلامات ومصائب، وسوف لا ينزعج منهم إطلاقاً.

قال تعالى: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾(١).

إنّ هذا الأثر للرضا والتسليم في العلاقة مع الآخرين من المصاديق الواضحة لتأثير الأخلاق العباديّة في الأخلاق الاجتماعيّة.

ومن الآثار للرضا أيضاً استجابة الدعاء، فقد ورد عنهم عليهم السلام: «**أنا الضّامِنُ لِمَن لَم يهجُس في قَلبِهِ إلاّ الرِّضا أن يدعُوَ الله فَيستَجابَ لَهُ**»(٢).

الحلول والمعالجات

الإنسان المؤمن حينما يهتمّ ويعي جيّداً مقام الرضا والتسليم سيزداد شوقاً إلى هذا المقام وهذه الرتبة، وهذا الشوق هو أوّل شرط للسعي في سبيل بلوغ هذا المقام. كما أنّ معرفة قضيّة أنّ الله تعالى أبدعنا وخلقنا من العدم، وهو الخالق العالم والقادر والجواد والخير المحض، هو عنصر أساسي لبلوغ درجة التسليم والرضا. قال الإمام علي عليه السلام: «**الرّضا ثَمرةُ اليَقين**»(٣).

---

(١) النساء: آية٧٨.

(٢) الكليني، محمّد بن يعقوب، الكافي: ج٢، ص٦٢.

(٣) التميمي، الآمدي، تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ص١٠٣، ح١٨٢٣.

والعنصر الآخر الذي يعزّز الرضا والتسليم في وجود الإنسان هو كيمياء المحبّة، وخصوصيّة هذه المحبّة هي أنّ المحبّ يرى محبوبه دائماً في كلّ شيء، وتكون كلّ أعماله وحركاته وسكناته في ظلّ هذا اللون من الحبّ مطابقة ومتوافقة مع إرادة المحبوب ورغبته. وبتعبير آخر: فإنّ المحبّة تضفي لوناً من الشبه والتماثل بين المحبّ وحبيبه؛ ولذا تجد أنّ المصادر الدينيّة قد أكّدت على أهمّية حبّ أهل البيت عليهم السلام.

فالإنسان الذي يكون كلّ وجوده معجوناً في عشق خالقه ومنصهراً في حبّه، ليس أنّه لا يشعر بالمشاكل والعقد في الحياة فحسب، بل سوف يستقبل برحابة صدر كلّ ما يرده من مصائب منسوبة إلى محبوبه، ويعتبرها دليلاً على عناية محبوبه به وحبّه إيّاه، قال الإمام الصادق عليه السلام: «**إنّ أشدَّ النّاسِ بلاءً الأنبياءُ، ثُمّ الّذين يَلُونَهُم، ثُمّ الأمْثَلُ فالأمثلُ**»(١)، وقال عليه السلام أيضاً: «**إِنَّ عَظِيمَ الأَجْرِ لَمَعَ عَظِيمِ البَلَاءِ، ومَا أَحَبَّ الله قَوْماً إِلَّا ابْتَلَاهُمْ**»(٢).

أجل، فإنّ البلاء والمصيبة علامة حبّ الله وعنايته بالعبد، وهذا الاعتقاد يبلغ بإيمان العبد وعقيدته إلى أعلى درجات الرضا والتسليم، وعندها سيكون منقاداً ومفوّضاً كلّ ما لديه إلى محبوبه. والأكثر إثارة من ذلك أنّ الصبر على الرزايا والمصائب والتسليم بقضاء الله وقدره يمنحان العبد درجات أعلى من الرضا والتسليم؛ وذلك لأنّه كلّما بلغ المرء إلى مرحلة من مراحل الرضا والتسليم، سيحصل على درجة من درجات اليقين، قال الإمام علي عليه السلام: «**مَن رَضِيَ بالمَقدورِ قَوِيَ يَقينُهُ**»(٣).

وهنا نشير إلى آخر نكتة، وهي: لو كان أصل الرضا والتسليم هو اندكاك رغبة

---

(١) الكليني، محمّد بن يعقوب، الكافي: ج٢، ص٢٥٢.

(٢) المصدر السابق.

(٣) التميمي الآمدي، عبد الواحد، تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ص١٠٤، ح١٨٤٨.

الإنسان في إرادة الله، فإنّ هذا المقام لا يمكن الحديث عنه أو ادّعاؤه حينما يكون المرء تابعاً ومطيعاً لشهوات نفسه وأوامرها؛ ومن هنا فإنّ أحد أهمّ طرق الوصول إلى مقام الرضا هو مخالفة هوى النفس وعصيان رغباتها، وبعبارة أُخرى: هو جهاد النفس.

الأسئلة

١ ـ أرجو بيان علاقة التوكّل بالاعتماد على الأسباب العاديّة والعلل الطبيعيّة؟

٢ ـ ما هو الفرق بين الإنسان المتوكّل والإنسان غير المتوكّل في تسخيره للأسباب والعلل الطبيعيّة؟

٣ ـ في ظلّ الركنين الأساسيّين لفضيلة التوكّل أرجو بيان حيلتي الشيطان التي ينصبهما لخداع الإنسان؟

٤ ـ لماذا اعتبر بعض الأشخاص عشق الله وحبّه أمراً غير لائق؟

٥ ـ هل إنّ عشق الله والتعلّق به متاحٌ للجميع، أم أنّه يختصّ بشخوص معيّنين؟ ولماذا؟

٦ ـ كيف يكون عشق الله وحبّه مصدراً لسائر الفضائل؟

٧ ـ ما هو الفرق بين الرضا والتسليم؟ وكيف يمكن أن يبلغ الإنسان مرحلة تجعله لا يشعر بألم المصائب؟ كذلك كيف يكون الرضا مصدراً للطمأنينة والسكون؟

٨ ـ ما هي المعتقدات التي تُوجد الرضا بالله والتسليم له؟

٩ ـ أرجو توضيح العلاقة المتبادلة بين اليقين والرضا.

للبحث والتأمّل

١ ـ من أجل إدراكٍ أفضل لمفهوم التوكّل يُمكن ملاحظة علاقة الطفل بوالده؛ حيث يمرّ الطفل ببعض الظروف تجعله يشعر أنّه بحاجة حقيقيّة إلى مساعدة والده،

إنّ ما يعيشه الطفل نحو والده في تلك اللحظة هو حقيقة التوكّل. حاوِلوا التباحث مع زملائكم حول هذا الموضوع، وقارنوا بين ما يترشّح عنه من نكات ومعلومات بموضوع التوكّل على الله.

٢ ـ تقدّم في مبحث العشق أنّ عشق الله وحبّه مغروس في وجود الجميع، وهو شعور فطري أساساً، فكيف تتعرّض هذه القضية الفطريّة إلى الذبول والانطفاء، حتّى أنّنا لا نرى أيّ أثر لهذا الشعور لدى أغلب الناس؟

٣ ـ إنّ جوهر العشق هو اشتياق المحبّ وانجذابه إلى المحبوب. هل يُمكن أن نعتبر العشق الدنيوي وحبّ الإنسان لغير الله عشقاً أيضاً؟ ولو كان الأمر كذلك فما هي علاقته بعشق الله وحبّه؟

٤ ـ يحصل أن يحدث لنا العديد من المحن والبلايا، وعندها نتمكّن من التعرّف إلى حدٍّ ما على مقدار ما نتحلّى به من الرضا. حاوِلوا أن تستعرضوا جملةً ممّا حصل لكم من مكروه خلال الأشهر السابقة، واذكروا ردود أفعالكم إزاءه. ولو اتّفق وتكرّرت لكم تلك الظروف في الأيام القادمة، كيف تتوقّعون أن تواجهونها، هل سيتجلّى فيكم مقام الرضا إزاء ما سيحدث أو لا؟ وهل أنّ الرضا له تجلٍّ خارجي وتأثير على العمل، أم هو أمر باطني فقط؟

٥ ـ ابحثوا قصّة ذبح إسماعيل عليه السلام في إطار مفهوم الرضا والتسليم. ولو كان ذبح الأضاحي في مناسك الحجّ رمزاً لهذه القصّة، فما هي الرسائل والعِبَر التي يمكن أن نستلهمها من ذلك؟

٦ ـ علمنا أنّ على الإنسان أن يرى تجليّ قدرة الله في كلّ حادثة يعيشها، فلو ظلَمنا أحدٌ، فهل نعدّ ذلك فعلاً وصنعاً لله سبحانه أيضاً أم لا؟ وهل هذه الرؤية تنسجم مع اختيار الإنسان وإرادته، وألا يُؤدّي ذلك إلى القول بالجبر؟

الفصل الثالث عشر

آفات العلاقة مع الآخرين

الأهداف

يُتوقّع من الطلبة الأعزّاء بعد دراستهم لهذا الفصل أن:

١ ـ يستوعبوا الضوابط الأخلاقيّة للمعاشرة.

٢ ـ يتصوّروا مفهومي الظلم والتكبّر بشكل صحيح، ويتعرّفوا على ماهيّتهما ومصاديقهما ونتائجهما على المستويين الفردي والاجتماعي.

٣ ـ يفهموا الوظائف والواجبات الأخلاقيّة في مواجهة الظلم الاجتماعي.

٤ ـ يتعرّفوا على مفهوم (آداب المعاشرة) وأهمّية مراعاتها.

٥ ـ يطّلعوا على جملة من أهمّ جذور عدم المبالاة في آداب المعاشرة ونتائجها، ويعوا أسبابها ومجالاتها ونتائجها الإيجابيّة.

***

أ) الظلم والعدوان

(الظلم) مفردة مشهورة ومعروفة تعني عدم رعاية حقّ الغير، ونلاحظ بوضوح أنّ الحقّ في هذا التعريف له أهمّية محوريّة. وقد قسّم علماء الأخلاق الظلم باعتبار من يكون له بنحوٍ من الأنحاء حقٌّ على الإنسان، فجاءت عندهم على النحو التالي: ظلم الله، وظلم النفس، وظلم الآخرين[1]. والظلم في سائر هذه الأنواع يعني التقصير في أداء الحقوق التي يكون الإنسان مسؤولاً إزاءها.

وتُطلق مفردة الظالم على مَن تنكّر للنعم الإلهيّة غير المحدودة وجحد بها، ومَن

(١) وحيث إنّ موضوع هذا الفصل هو المشاكل المرتبطة بالعلاقة مع الآخرين، سنتناول هنا الظلم الواقع على الآخرين فقط.

لم يلتزم بالتكاليف الشرعيّة وتمرّد عليها، ولم يشعر بالمسؤوليّة إزاء طاقاته واستعداداته، ولم يسخّرها في مسارها الصحيح، ومَن تجاوز على حقوق الآخرين.

وتتجلّى بعض مصاديق الظلم في: خُلف الوعد، والخيانة، وخلق الضوضاء والصخب في الأماكن العامّة، وسلب راحة الآخرين، والغلاء في البيع، وترويج الإشاعات ونشر الفوضى في المجتمع، وتلويث البيئة، وتحكيم العلاقات الفرديّة والفئويّة بدلاً من المعايير العادلة في التعامل الاجتماعي، والكسب غير المبرَّر، والاستخدام السيّئ للممتلكات العامّة، والخيانة، والتعدّي على خصوصيّة الآخرين، والتجاوز على مقدّسات ومعتقدات الغير، قال الإمام علي عليه السلام: «**لِلظَّالِمِ مِنَ الرِّجَالِ ثَلاَثُ عَلاَمَاتٍ: يَظْلِمُ مَنْ فَوْقَهُ بِالْمَعْصِيَةِ، ومَنْ دُونَهُ بِالغَلَبَةِ، ويُظَاهِرُ القَوْمَ الظَّلَمَةَ**»(١).

وفي هذه الرواية يُشير الإمام عليه السلام إلى علامات الظالم وخصائصه، إضافة إلى سرد بعض أبرز مصاديقه.

النتائج

إنّ الحرمان من هداية الله وعونه ومحبّته يُعدّ من أهمّ علائم الظلم والعدوان، وقد اعتبر القرآن الكريم الظالمين من المحرومين من الحبّ الإلهي. قال تعالى: ﴿**وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ**﴾(٢). وقد عبّر الإمام علي عليه السلام عن العواقب السيّئة للظلم والتجاوز على الناس والتي منها: الحرمان من النجاة، والعقاب الدنيوي والأخروي، وانحسار النعم وضياعها ونزول البلايا والمحن المتنوّعة(٣)، فقال: «**اِتَّقُوا البَغْيَ؛ فَإِنَّهُ**

---

(١) نهج البلاغة: الحكمة ٣٥٠.

(٢) آل عمران: آية٥٧.

(٣) أُنظر: التميمي الآمدي، تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ص٥٢، ٩٩، ١٤٢، ٢٧٦، ح٣٨٣، ١٧٠٧، ٢٥٢٣، ٦٠٦٢.

يَجْلِبُ النِّقَمَ، ويَسْلُبُ النِّعَمَ، ويُوجِبُ الغِيَرَ»(١)، وقال عليه السلام أيضاً: «**اَلظُّلْمُ يَجْلِبُ النِّقْمَةَ**»(٢).

إضافة إلى ذلك فإنّ دمار البلدان، والحرمان من النعم، وكثرة الفتن وظهور البلاء والمحن من قبيل تسلّط الظالمين على المجتمع، كلّ ذلك من الآثار الاجتماعيّة للظلم، وهو ما أشار إليه القرآن الكريم في هذه الآية: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾(٣). وورد قوله سبحانه: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾(٤). وقال عزّ وجلّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾(٥).

إنّ الظلم في الواقع ناشئ عن تمرّد القوى على طاعة العقل، ونتيجة ذلك تنحرف الأحاسيس والمشاعر والميول والرؤى والأفكار الإنسانيّة إلى اتّجاه آخر، ومع استمرار هذا الانحراف ستضعف الحكومة الصالحة للعقل، وتنعطف عن مسارها الصحيح، وسوف يعمّ الظلم ـ في نطاق أوسع ـ المجتمع برمّته.

وعلى ضوء ما يرى القرآن الكريم فإنّ الظالم يكون ابتلاؤه أكثر بكثير من المظلوم، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾(٦). ثمّ إنّ آثار الظلم تتفاوت بحسب الشخص المظلوم وطبيعة الحقّ المُضيَّع. مثال ذلك: اختلاف إلْحاق الأذى بالأجنبي عن أذيّة الأُمّ والأب، وكذلك فإنّ ظلم شخص واحد يختلف تماماً عن ظلم أُمّة بأكملها.

---

(١) المصدر السابق: ص١٤٢، ح٢٥٢٣.

(٢) المصدر السابق: ص٥٢، ٧٢، ح٣٨٢، ٣٨٣، ١٠٦٨.

(٣) الأنعام: آية١٢٩.

(٤) الأنفال: آية٢٥.

(٥) المائدة: آية٥١.

(٦) النساء: آية١٠.

الحلول والمعالجات

من أهمّ أسباب الظلم هو ضعف الإيمان والمعتقدات الدينيّة، فلا شكّ بأنّ عدم الاعتقاد بالغيب والحياة الأُخرويّة، وإنكار البعث وعدم الإيمان بثواب الأعمال الصالحة وعقاب الأعمال السيّئة، سيؤدّي إلى التجرّؤ على الظلم. من الأسباب أيضاً الإدارة غير الصحيحة للقوى الإنسانيّة وعدم السيطرة الكافية على ضبط الرغبات والميول النفسانيّة، ويُعدّ هذا الأمر من أشهر دواعي الظلم وأسبابه، فحينما يعجز الإنسان عن كبح جماح نفسه الجَشِعة، سيضطر من أجل إرضائها إلى التجاوز على حقوق الآخرين وانتهاكها.

فالإنسان الحريص الذي يطمع بأموال الآخرين ـ مثلاً ـ ومن يتّصف بمزاج حادٍّ وطبيعة عدوانيّة، أو الشخص الشهواني الذي يكون أسير نفسه العنيدة والمتمرّدة، فإنّ هؤلاء جميعهم مرشّحون لممارسة الظلم، ويُشكّلون تهديداً للأمن الأخلاقي للمجتمع. وربّما يكون هذا السبب وراء عدّ السلطة والثروة من دواعي الظلم والعدوان، ففي الواقع إنّ الإنسان الجاهل وغير الحكيم يُسخّر هذه النعم والخيرات في سبيل الكفران والبغي، بدلاً من أن يستثمرها في الطريق الصحيح.

يُصاب الإنسان أحياناً بسوء الظنّ بسبب الضغوط الحياتيّة وعدم الاستعداد الروحي للتعامل المعقول مع المشاكل التي تُواجهه، ويقع في شراك الاضطراب وعدم الاتّزان، فيظنّ أنّ الأُمّ أو الأب أو الأقارب والأصدقاء قد تجاهلوه وانتهكوا حقوقه؛ وبالتالي يعطي لنفسه الحقّ في الاستخفاف بحقوق الآخرين، ويبرّر تعدّيه عليهم. إنّ من الطبيعي أنّ المرء حينما يكون في موطن الظلم والتعسّف يُمكنه المطالبة بحقّه والدفاع عن نفسه، ولكن ينبغي أن يتيقّن من وقوع ذلك الظلم فعلاً، وعليه أن لا يفرط في طريقة الدفاع عن نفسه والمطالبة بحقوقه.

ومن أجل إصلاح التقصير بحقّ الآخرين يُمكن التفكير في قبح الظلم والإجحاف بحقوق الناس، مضافاً إلى ذلك فإنّ ملاحظة بعض النماذج العمليّة هي الأُخرى تُعلِّم وتحثّ على ترك ذلك، وتُعدّ عاملاً مؤثّراً من أجل ملاحظة العواقب

الوخيمة للظلم والتعسّف؛ وذلك لأنّ التأمّل في النتائج الكارثيّة للتعدّي على حقوق الناس والتي لحقت بالظالمين على طول التاريخ، ومقارنة ذلك بثمار العدل والقسط، والتأمّل بالنتائج المترتبة على الأمرين، ستكون مؤثّرة بالتأكيد في التعلّم وكسب العِبَر، كما أنّ القرآن الكريم يدعو الناس بعد استعراض أحوال الظلمة والمعتدين إلى اقتباس العِبَر منها.

الخطوة التالية التي تعقب التفكير هي العزم على ترك الظلم، والحركة باتّجاه بسط العدل، وأداء الواجبات التي تجبر ما فات. وتتجلّى أهمّية العزم والإرادة هنا في إظهارهما للحقيقة الإنسانيّة والعنصر الذي يُميّز جوهر الإنسان عن الدوابّ والحيوانات، حتّى قيل في ذلك: إنّ درجات الإنسان تتفاوت بتفاوت درجات الإرادة والعزم لديه.

إنّ المواجهة الجادّة والمستمرّة والمنطقيّة مع الميول النفسانيّة غير المشروعة، ولا سيّما في إدارة القوّة الغضبيّة ستكون مؤثّرة في هذا الإطار؛ وذلك لأنّ الظلم في الواقع ينشأ عادة بسبب الرغبة والجموح غير المبرّر للقوّة الغضبيّة.

ومن المباحث المهمّة في إصلاح الظلم والعلاقات الاجتماعيّة الظالمة هو التحرّي عن العوامل الكابحة لأنواع الظلم والتعسّف، ولا شكّ فإنّ أحدها هو العفو والصفح، كما جاء ذلك في قوله تعالى: ﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾(١).

إنّ الصفح والتجاوز هما نتيجة الالتفات إلى الحقيقة التالية، وهي: إنّ الكثير من الناس يبتلون بالنسيان والخطأ ويقعون في شراك العادات السيّئة، هذا من جهة، ومن جهة أُخرى هما ثمار أصل الأُخوّة وتكريم أهل الإيمان وحسن الظنّ بسلوكهم

(١) الشورى: آية ٤٠.

ومقاصدهم، حتّى أنّ القرآن الكريم صرّح بضرورة السلوك العادل والتعاطي المنصف مع الظالم، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰ ﴾(١).

ب) التكبّر

نُقل عن الإمام جعفر بن محمد الصادقعليه السلام: «**مرّ رسول الله صلى الله عليه وآله على جماعة فقال: على ما اجتمعتم؟ قالوا: يا رسول الله هذا مجنون، فاجتمعنا عليه. فقال: ليس هذا بمجنون، ولكنّه المبتلى. ثمّ قال: ألا أُخبركم بالمجنون حقّ المجنون؟ قالوا: بلى يا رسول الله. قال: [إنّ المجنون حقّ المجنون] المتبختر في مشيته، الناظر في عطفيه، المحرّك جنبيه بمنكبيه، يتمنّى على الله جنّته وهو يعصيه، الذي لا يُؤمَن شرّه، ولا يُرجى خيره، فذلك المجنون، وهذا المبتلى**»(٢).

التكبّر بمعناه الأخلاقي هو: إظهار العلوّ والعظمة، وهو ناشئ من الشعور بالاعتداد بالذات وأفضليّتها. والعُجب يعني ذلك أيضاً، ولكن مع التفاوت والاختلاف التالي: إنّ العُجب هو الغرور الناشئ عن اعتداد الإنسان بالخصائص والمزايا الإيجابيّة والممتازة فيه، في حين نجد أنّ الكبر هو اعتقاد الإنسان بأنّه ليس أفضل ممّا عليه حقيقته وواقعه فحسب، بل يعتقد أنّه أفضل وأحسن من الآخرين أيضاً. نعم، إنّ مجرّد اعتقاد المرء أنّه أكثر نفعاً من الآخرين لا يعني بالضرورة تكبّراً، فإنّ الأب ـ مثلاً ـ أو القائد أو المربّي، الذي يعتقد أنّه أفضل من أبنائه أو جنوده أو تلاميذه، يكون مضطرّاً لتربيتهم وإصدار الأوامر إليهم ونهيهم عمّا يُريد.

---

(١) المائدة: آية٨.

(٢) القمّي، محمّد بن علي بن بابويه، الخصال: ج١، ص٣٣٢.

كذلك ينبغي التمييز بين التكبّر نفسه وبين سلوك التكبّر، إذ قد يسلك الشخص سلوك التكبّر أحياناً ليس بقصد التكبّر والتعالي، بل بقصد توجيه الشخص المتكبّر وتربيته، أو من أجل الاحتراز من شرّ غير الصالحين والغرباء، ففي مثل هذه الصور لا يكون التكبّر مذموماً، كما امتدح الإمام أمير المؤمنين عليه السلام تكبّر النساء وترفّعهنّ أمام الرجال الأجانب(١).

ثمّ إنّ التكبر تارةً يكون بسبب ما يتمتّع به الفرد من خصائص معنويّة من قبيل: الإيمان، والصفات النبيلة والفضائل الأخلاقيّة. وأُخرى يكون بسبب ما يتّصف به من صفات مادّية، من قبيل الجمال والمنزلة الاجتماعيّة، كما أنّ التكبّر بلحاظ المصاديق أيضاً قد يكون تارةً في قبال الله والتمرّد على أوامره ونواهيه، وأخرى يكون على الأنبياء والأولياء والصالحين والعلماء الربّانيّين، وأخرى يكون على الأصدقاء والأصحاب وأفراد العائلة.

النتائج

إنّ السلوك المشتمل على الغرور وطلب التفاضل للشخص المتكبّر، ستعقبه ردود فعل سلبيّة من الآخرين، والتكبّر ينتهي بشكل دقيق إلى نتيجة معاكسة لما يريدها المتكبّر.

وما الذلّة إلّا مآل كلِّ جبّار عنيد — فلا تترفَّع إن كُنتَ للرفعة تبغي المزيد(٢)

---

(١) أُنظر: نهج البلاغة، تحقيق: صبحي الصالح: ص٥٠٩ ـ ٥١٠، حكمة ٢٣٤.

(٢) [هنداوي، محمد موسى، سعدي الشيرازي شاعر الإنسانية: ص٤١٤]. وهو ترجمة لبيت شعري لسعدي الشيرازي، يقول فيه:

بـه گـردن فتـد سركـش تنـد خـوى — بلنـديت بايـد بلنـدى مجـوى

سعدي، مصلح الدين، بوستان (الحديقة): الباب الرابع.

وجاء عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام قوله: «**ذَلَّ مَنْ تَجَبَّرَ غَيْرَهُ، وصَغُرَ مَنْ تَكَبَّرَ دُونَهُ**»(١)، وقال عليه السلام أيضاً: «**مَن تكبّر على الناس ذلّ**»(٢).

فالتكبّر علامة الحماقة والسفه وغياب التعقّل، وهذا المعنى قد ورد في كلمات الإمام علي عليه السلام: «**التكبّرُ عينُ الحماقَة**»(٣).

وهذه الصفات والخصائص تجلب لصاحبها تنفّر الآخرين واستحقارهم ومعاداتهم له؛ لأن العقل لا يُجيز لأيّ شخص أن يعتبر نفسه أفضل وأعلى من الآخرين، لا سيّما لو كان ذلك الشخص صاحب تجربة وعلم ومعرفة فمثله لا يتوقّع صدور التكبّر منه.

مضافاً إلى ذلك، فإنّ التكبّر من الرذائل التي يُمكنها أن تجرّ خلفها جملة من الصفات المذمومة الأُخرى، فعن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال: «**الكِبْرُ دَاعٍ إلى التَّقَحُّمِ فِي الذُّنُوبِ**»(٤).

وربّما تُعدّ إحدى نتائج صفة التكبّر والاستعلاء هي أنّها تتسبّب في عدم فسح المجال لكسب العلم ونيل المعرفة وإغلاق الطريق أمام المتكبّر لبلوغ ذلك؛ وبناءً عليه يُبتلى الشخص المتكبّر بالجهل الذي يُعدّ مصدراً ومنطلقاً للكثير من الأخطاء، كذلك فإنّ المتكبّر سوف يُحرم من أداء بعض الأعمال الصالحة؛ ذلك لأنّه يعتقد أنّ شأنه أسمى من القيام بها. قال الإمام الصادق عليه السلام: «**إنَّ فِي جَهَنَّمَ وَادِياً لِلْمُتَكَبِّرِينَ يُقَالُ لَهُ: سَعِيرٌ، فَشَكَا إلى الله شِدَّةَ حَرِّهِ، وسَأَلَهُ أَنْ يَأْذَنَ لَهُ أَنْ يَتَنَفَّسَ، فَتَنَفَّسَ فَأَحْرَقَ جَهَنَّمَ**»(٥).

---

(١) الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي: ج١، ص١٤١.

(٢) المجلسي، محمّد باقر، بحار الأنوار: ج٧٧، ص١٤١.

(٣) التميمي الآمدي، تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ص٣٠٩، ح٧١١٧.

(٤) المصدر السابق: ص٣١٠، ح٧١٥٢.

(٥) الكليني، محمّد بن يعقوب، الكافي: ج٢، ص٣١٠.

وهذه الرواية تُشير إلى حقيقة هي أنّ صفة التكبر تُعدّ منطلقاً لكلّ الصفات الجهنميّة والقبائح المذمومة.

الحلول والمعالجات

اعتبر الكثير من علماء الأخلاق العُجب من أسباب التكبر ودواعيه(١)، فالعُجب ينشأ من خلال جهل الإنسان بمقدار حجمه ومكانته الحقيقيّة، وهو ناتج أيضاً عن غفلته عن علاقته بربّه، حيث إنّ جميع الأعمال الصالحة، بل سائر حركات الإنسان وسكناته إنّما تصدر بتوفيق ودعم إلهيّينِ، وتظهر بحول وقوّة من الله سبحانه. وعندما يتمّ نسيان كلّ ذلك العون والتأييد والهداية منه سبحانه يظنّ الإنسان أنّه قد حاز على الاستقلال عنه عزّ وجلّ فيصاب بالعُجب والتكبّر، ولكن عندما نستحضر ضعفنا وعجزنا سوف لن يُفسح المجال للتكبّر.

ومن أجل معالجة الكبر والعُجب بشكل عملي ينبغي تمرين النفس وترويضها على التواضع، ويُعدّ البيت والمحلّة والمدرسة والعمل والبيئة الاجتماعيّة مجالات مناسبة للتدريب على التواضع، فقد جاء في سيرة النبيﷺ أنّه كان يُرقّع ثيابه، ويخصف نعله، ويحلب الشاة بيده(٢)، ويوآكل الغلمان والعبيد، ويجلب المتاع من السوق ويحمله بنفسه، ويبتدئ مَن يلقاه بالسلام، ولا يحمّل الآخرين أعماله الخاصّة. وبلا شكّ فإنّ كلّ هذه السلوكيّات ناشئة من روح التواضع لديه.

ج) عدم الاكتراث بآداب المعاشرة

إنّ الإنسان كائن اجتماعي دون شكّ، يسعى للاستئناس بالآخرين، ويرتبط

---

(١) أُنظر: الخميني، روح الله، الأربعون حديثاً: ص٨٢.

(٢) أُنظر: المصدر السابق: ص٩٦. الطباطبائي، محمّد حسين، سنن النبيﷺ: ص٤١ ـ ٥٦.

بهم، ويخالطهم، وقد جاء الإسلام ممضياً هذه النزعة الفطريّة بنهيه عن العزلة والرهبنة، وأكّد على الأواصر الاجتماعيّة وضرورة مراعاتها.

وتتمايز آداب المعاشرة عن الأخلاق في أنّ الأخلاق عبارة عن المَلَكات الروحيّة الراسخة في النفس، وأمّا الآداب فهي الهيئة والقوالب السلوكيّة الحَسَنة التي تصوغ أعمال الإنسان. ومن جهة أخرى فإنّ اتّصاف النفس البشريّة بالأخلاقيّات يختلف عن اتّصاف العمل والسلوك بالآداب(١). بتقريب أنّ الآداب عادةً ما تكون قالباً وظرفاً لتحقّق الأخلاق وظهورها، وأمّا الأخلاق فهي تابعة للثوابت الفطريّة والبُنية الروحيّة والنفسيّة للإنسان، وتمتدّ جذورها إلى الحقيقة الكامنة في النفس. وبالواقع فإنّ الآداب تتبَع (المورفولوجيا الاجتماعيّة)(٢)، و(الانثروبولوجيا الثقافيّة)(٣) ـ كالجغرافيا، والتاريخ، والعِرق والطقس والبيئة ـ كما تتبَع أيضاً الذوق في معرفة الجمال والتقاليد المحليّة ـ الإقليميّة.

وتجدر الإشارة هنا إلى أنّ الآداب الاجتماعيّة عادة ما تعود إلى النُظم والمتبنيّات الاجتماعيّة، وتكون ناتجة عن نحوٍ من التوافق الجمعي حولها. ففي مجال الآداب إنّما يُعتبر العمل غير صحيح فيما لو لم يرعَ التوافق الاجتماعي. وأمّا الانتهاكات الأخلاقيّة فهي غير صحيحة دائماً، وإن لم يتحقّق أيّ توافقٍ اجتماعي عليها؛ لذلك

---

(١) أُنظر: الطباطبائي، محمّد حسين، الميزان في تفسير القرآن: ج٦، ص٢٧٣ ـ ٢٧٧.

(٢) يُراد منها: مجمل الظروف الماديّة الأساسيّة التي تبتني عليها الحياة الاجتماعيّة، وهي التي تتحكّم في قِيَم المجتمع وتصرفات أفراده وأفعالهم. (خ).

(٣) يُراد منها: العلم الذي يهتمّ بدراسة الثقافة الإنسانيّة، ويعنى بدراسة أساليب حياة الإنسان وسلوكياته النابعة من ثقافته. وهي تُركّز في دراستها على الشعوب القديمة، كما تدرس الشعوب المعاصرة أيضاً. (خ).

يكون خرق النظام الأخلاقي أشدّ قبحاً من خرق الآداب الاجتماعيّة والإساءة إليها، ويرتضيه عدد أقلّ من الناس قياساً بمخالفة الآداب.

كما أنّ المسائل والقضايا الأخلاقيّة هي أُمور غير قابلة للتغيّر والتبدّل في سائر الثقافات والشعوب المختلفة، ولكن الآداب الاجتماعيّة بخلافها؛ إذ إنّها تابعة لتاريخ الناس وثقافتهم؛ وعليه فهي غالباً ما تكون نسبيّة ومتغيّرة. إنّ المعارف الأخلاقيّة هي ـ بنحوٍ ما ـ انعكاس لمعرفة الإنسان بأهداف الحياة. وعلى هذا الأساس فإنّ المعرفة الأخلاقيّة تتكامل بتكامل معرفة الإنسان ووعيه بالعالم والأهداف الحياتيّة العامّة، وتتجلّى المعارف الأخلاقيّة في هذا الإطار بصورة (ما ينبغي) و(ما لا ينبغي). وبالطبع لن تكون الآداب الاجتماعيّة مؤثّرة في كمال الإنسان وسعادته بشكل مستقلّ وحصريّ، ولا يبلغ أثر مخالفتها كأثر مخالفة القضايا الأخلاقيّة(١).

ومن جهة أُخرى، يُمكن تقسيم الآداب الاجتماعيّة باعتبار مناشئها إلى آداب دينيّة، وآداب غير دينيّة. تُطلق الآداب الدينيّة على الآداب التي تنسب إلى الدين، وبتعبير آخر: هي تلك الآداب التي تستند بشكلٍ مباشر إلى النصوص الدينيّة، أو التي يعتقد أهل الإيمان أنّها من الدين أو مقتبسة عن المصادر الدينيّة؛ وعليه يعتبرون أنّهم ملزمون بمراعاتها. وأمّا الآداب غير الدينيّة فهي الآداب التي يعود السبب في نشأتها ورواجها إلى بعض الخصوصيّات المحليّة أو المناطقيّة أو العِرقيّة أو التاريخيّة ونحوها.

وعلى ضوء ما قيل فإنّ عدم المبالاة في المعاشرة الاجتماعيّة الذي اعتبرناه أمراً

---

(١) بي ريا، ناصر، وآخرون، روان شناسی رشد با نگرش به منابع إسلامي (= علم نفس النمو مع التركيز على المصادر الإسلامية): ص١١١ ـ ١١٤.

غير لائق، يعود إلى عدم الاهتمام بالتعاقدات الاجتماعيّة، من قبيل: إفشاء السلام، وارتداء الملابس المناسبة، إضافة إلى عدم مراعاة المتبنيّات التي تعاقد عليها الناس، والتي تُشير إلى احترامهم لبعضهم، وتُعدّ علامة على تكامل الشخصية الاجتماعيّة للفرد.

النتائج

إنّ عدم مراعاة آداب المخالطة والمعاشرة الاجتماعيّة، يؤدّي إلى فتور العلاقات بين الناس، ويساعد على ظهور فهم سلبي لدى الآخرين، ويقيّد التواصل بينهم، وينتهي بالفرد إلى الانزواء والعزلة الاجتماعيّة. فإنّ مراعاة الآداب في معاشرة الأب والأُمّ تعتبر من مصاديق الإحسان، ومقابل ذلك فإنّ الاستهانة بها وعدم مراعاتها أيضاً يُعدّ من مصاديق عقوق الوالدين. إضافة إلى ذلك فإنّ الإخلال بهذه الضوابط والآداب الاجتماعيّة بحقّ الأهل أو الأقارب، سيُسهم في إضعاف التماسك والارتباط العائلي والأُسري، ويكون أرضيّة خصبة لقطع تلك العلاقات وبرودها بينهم، في حين أنّ الإسلام يدعو إلى ضرورة التآلف والمحبّة، ويحثّ على تعزيز العلاقات الطيّبة بين الناس.

أمّا في مقام طلب العلم فإنّ عدم مراعاة آداب التعلّم ومعاشرة المعلّم أو المربّي سيحرم الطالب والتلميذ من اغتنام الفوائد العلميّة والمعنوّية منهم، وسيحول دون أداء ما يجب إزاء المعلّم والمرشد والمربّي.

كذلك فإنّ عدم المبالاة بالآداب تجاه الأصدقاء يُوهن التواصل الحميم والعلاقة القوّية معهم، إلى جانب ذلك فإنّ ترك مراعاة آداب المعاشرة مع الجنس الآخر سوف يجعل الفرد محطّ اتّهام ومسائلة، وسوف يترك الباب مفتوحاً لسوء الظنّ والعلاقات غير السليمة بين المرأة والرجل.

الحلول والمعالجات

أحد أهمّ مصادر إهمال آداب المعاشرة هو عدم إدراك مكانة المجتمع ودور

المعاشرة والمعاملة الاجتماعيّة، فإنّ الكثير من علماء الأخلاق يؤكّد على أنّ السعادة الفرديّة مرتبطة ومتعلّقة بالحياة الاجتماعيّة[١]، وقد أوصت بعض النصوص الإسلاميّة بأنّ الأُنس بالآخرين ومحبّة الناس بعضهم للبعض الآخر، كما ورد ذلك في قول الرسول الأكرم محمّدﷺ: «**خيارُكُمْ اَحْسَنُكُمْ أخلاقاً الذين يألفون ويُؤلفون**»[٢].

والمصدر الآخر لعدم المبالاة وإهمال أدب المعاشرة هو عدم المعرفة أو عدم الفهم للحقوق الاجتماعيّة المتبادلة، فربّما يوجد مَن يملك الاستعداد اللازم لتكوين العلاقات الاجتماعيّة السليمة، كما أنّه يتمتّع بفهم واعٍ للمكانة المهمّة للمجتمع، إلّا أنّه لا يفقه وظائفه إزاء المجتمع، وينتج عن ذلك إهماله لآداب المعاشرة. ومن جانبٍ آخر قد يتمتّع الشخص بروح الشعور بالوظائف بصورة جيّدة، لكنّه يفتقد المعرفة الصحيحة بالآداب. وعليه فإنّ إيجاد الالتزام الأخلاقي، ومعرفة الآداب، والالتفات إلى نتائج رعايتها، سوف ينتهي دون شكّ إلى تعالي العلاقات الاجتماعيّة وسلامتها.

الأسئلة

١ ـ ماهي معايير تشخيص الظلم عن غيره؟

٢ ـ مَن هم الذين يتحمّلون المسؤوليّة تجاه الظالم؟

٣ ـ أرجو تعريف التكبّر وبيان الاختلاف بينه وبين والعُجب؟

٤ ـ أرجو ذكر أهمّ الآثار الاجتماعيّة السيّئة للتكبّر؟

٥ ـ ما الذي ينبغي فعله لمعالجة التكبّر عمليّاً؟

---

(١) أُنظر: ابن مسكويه، أحمد بن محمّد، تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق: ص١٤.

(٢) ابن شعبة الحرّاني، الحسن بن علي، تحف العقول: ص٤٥.

٦ ـ أرجو ذكر أهمّ أسباب عدم المبالاة بآداب المعاشرة؟

٧ ـ ما هي الوسائل التي تقترحونها لترغيب الآخرين بمراعاة الآداب الاجتماعية؟

✵✵✵

للبحث والتأمّل

١ ـ إنّ التجاوز والتعدّي على حقوق الآخرين يحول دون بلوغ الكمال ونيل القُرب من الله تعالى، ويجعل الإنسان يقتنع بأنّ ترك الدنيا ولقاء الباري تعالى من الأمور غير المرغوبة. ومن خلال الالتفات إلى أهمّية هذا المطلب، ما هي موارد الظلم والتجاوز الخفيّة في حياتنا، التي غالباً ما نغفل عنها، ويلحقنا الضرر منها دون علمنا؟

٢ ـ تُعدّ بعض الصفات سيّئة وقبيحة دائماً، وبعضها يكون في ظروف خاصّة قبيحاً، وفي ظروف أخرى حَسَناً. فهل أنّ صفة التكبّر من الطائفة الأُولى لهذه الصفات أو من الطائفة الثانية برأيكم؟

٣ ـ كيف تُحلّل ـ من جهةٍ أخلاقيّة ـ وصيّة النبي الأكرم محمّد صلى الله عليه وآله بخصوص تكبّر المرأة على الرجل الأجنبي؟

٤ ـ في ظلّ شموليّة الدين وتعاليمه ألا تُغنينا مراعاة الآداب والأحكام الشرعيّة من مستحبّات ومكروهات عن الاهتمام بآداب المعاشرة العرفيّة والاجتماعيّة؟ أرجو توضيح ذلك.

الفصل الرابع عشر

تحسين العلاقة مع الآخرين

(الحدّ الأدنى في الأخلاق الاجتماعيّة)

الأهداف

يُتوقّع من الطلّاب الأعزّاء بعد مطالعة هذا الفصل أن:

١ ـ يتعرّفوا على مفاهيم العدالة، والتواضع، والأدب والآثار الاجتماعيّة لها.

٢ ـ يقفوا على العلاقة المباشرة بين الظلم والعدل الفرديّين، والظلم والعدل الاجتماعيّين.

٣ ـ يتعرّفوا على بعض أهمّ الأسباب والعلل لتحقّق العدالة، وأشهر الآفات والعقبات التي تحول دون ذلك.

٤ ـ يتمكّنوا من تشخيص مكانة التواضع، والحصول على نموذج مناسب لطريقة الحياة الفرديّة والاجتماعيّة.

٥ ـ يتمكّنوا ـ من خلال التعرّف على علامات التواضع ـ من الحصول على معيار مناسب لمعرفة الذات والحكم عليها أخلاقيّاً.

٦ ـ يمتلكوا معرفة جيّدة بمفهوم الآداب الاجتماعيّة وأهميّة التحلّي بها.

٧ ـ يطّلعوا على عوامل التخلّي عن الأدب ومجالاته.

٨ ـ يضعوا أيديهم على المنطق الصحيح في مراعاة الآداب الاجتماعيّة وتشخيص الآداب الصحيحة عن الخاطئة.

❊❊❊

أ) العدالة

إنّ المفهوم الذي يقابل الظلم هو العدل، وأنّ العدالة في إطار العلاقات الاجتماعيّة تُعدّ فضيلة بين رذيلتي الظلم والخنوع والقبول بالظلم؛ فهي إذاً بين (الظلم والانظلام).

والعدل هو الميزان الذي أودعه الله بين عباده ليُقام به الحقّ، كما ورد عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام قوله: «**إِنَّ العَدْلَ مِيزَانُ الله سُبْحَانَهُ الَّذِي وَضَعَهُ فِي الخَلْقِ، ونَصَبَهُ لِإِقَامَةِ الحَقِّ**»(١).

تنقسم العدالة إلى قسمين: الأنفسيّة والآفاقيّة، فالأُولى هي تلك التي يطلق عليها علماء الأخلاق مَلَكة العدالة، وهي تنتج عن السلامة النفسيّة والاعتدال والانسجام بين القوى العاقلة والشهويّة والغضبيّة. وأمّا العدالة الآفاقيّة فهي تتجلّى في آفاق المجتمعات نتيجة اتّساع دائرة أفراد العدالة الأنفسيّة، ففي العدالة الأنفسيّة الفرديّة تسير قوى الإنسان إلى الكمال في ظلّ هداية القوى العاقلة، أمّا في العدالة الآفاقيّة فستكون نفس هذه العناصر التي عملت على بناء ذاتها حتى بلغت مرحلة الاعتدال مصدر تطبيق العدل في المجتمع. ومن هنا يُمكن القول: إنّ عمليّة الإصلاح والتحرّر المعنوي للفرد مقدّمة لازمة للإصلاح والحريّة الاجتماعيين.

وتنقسم العدالة من منظار آخر إلى عدالة مطلقة وأُخرى مقيّدة، والعدل المطلق هو الذي يكون حسنه ثابتاً بحكم العقل، والذي لا يُنسخ ولا يتّصف بالجور والظلم أبداً، كالإحسان للناس والابتعاد عن إيذائهم. وأمّا العدل المقيّد، فهو العدل الذي قد يتعرّض للنسخ، وذلك من قبيل المواجهة بالمثل إزاء مَن تعدّى على الإنسان، وردّة الفعل هذه يُمكن أنّ تتّصف بالجور. قال تعالى: ﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ ﴾(٢). فقد أطلقت هذه الآية على جزاء العمل القبيح (سيّئة)، بمعنى أنّه لولا مقارنة هذا الفعل مع السيّئة السابقة لكان بحدّ ذاته عملاً سيّئاً أيضاً(٣).

---

(١) التميمي الآمدي، عبد الواحد، تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ص٩٩، ح١٦٩٦.

(٢) الشورى: آية ٤٠.

(٣) أُنظر: الراغب الأصفهاني، الحسين بن محمّد، الذريعة إلى مكارم الشريعة: ص٣٥٣.

فشيوع العدالة بين الناس أمرٌ حسنٌ في كلّ الأحوال، كما عبّر عن ذلك القرآن الكريم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا﴾(١).

وفي هذا الصدد يكتب الإمام أمير المؤمنين عليه السلام في عهده لمالك الأشتر ما يلي: «**لا يكوننّ المحسن والمسيئ عندك بمنزلةٍ سواء، فإنّ في ذلك تزهيداً لأهل الإحسان في الإحسان، وتدريباً لأهل الإساءة، فألزم كلّا منهم ما ألزم نفسه**»(٢).

لكن في الموارد التي يكون الإنسان فيها في سعةٍ من مراعاة العدل، يكون اتّباع طريق التفضّل والإحسان هو الأحسن والأحبّ. قال تعالى: ﴿...وَأَن تَعۡفُوٓاْ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۚ وَلَا تَنسَوُاْ ٱلۡفَضۡلَ بَيۡنَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ﴾(٣).

وعلى ضوء التعاليم الإسلاميّة فإنّ على المسلمين أن يبسطوا العدل والقسط ليس فقط في المجتمع الإيماني، بل ينبغي مراعاة ذلك بين جميع الناس ومع سائر المجتمعات الأُخرى، حيث أوصى الله سبحانه وتعالى المسلمين أن يقتفوا العدل حتّى مع الكفّار الذين يقاتلون المسلمين ويستبيحون دماءهم، قال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾(٤).

وقال الإمام علي عليه السلام: «**وَلَا تَكُونَنَّ عَلَيْهِمْ سَبُعاً ضَارِياً تَغْتَنِمُ أَكْلَهُمْ؛ فَإِنَّهُمْ صِنْفَانِ: إِمَّا أَخٌ لَكَ فِي الدِّينِ، وإِمَّا نَظِيرٌ لَكَ فِي الخَلْقِ**»(٥).

---

(١) النساء: آية٥٨.

(٢) نهج البلاغة، تحقيق: صبحي الصالح: ص٤٣٠ ـ ٤٣١، الكتاب ٥٣.

(٣) البقرة: آية٢٣٧.

(٤) البقرة: آية١٩٠.

(٥) نهج البلاغة، تحقيق: صبحي الصالح: ص٤٢٧، الكتاب ٥٣.

النتائج والآثار

يمكن تقسيم نتائج العدل إلى نوعين أحدهما فردي والآخر اجتماعي؛ ومن أهمّ نتائج العدل في المجال الفردي هو ترك الظلم وعدم التجاوز والعدوان على الآخرين، قال الإمام علي عليه السلام: «**مِنْ لَوَازِمِ العَدْلِ التَّنَاهِي عَنْ الظُّلْمِ**»(١).

وهذا الأمر ربّما يكون من أبرز خصائص العدالة، والذي يعتمد على العلاقة الخاصّة (المَلَكة وعدم المَلَكة) بين الظلم والعدل، بمعنى أنّ السير باتّجاه الحقّ والعدل والإنصاف، هو نفسه التوقّف عن الحركة في الميادين والمجالات الأُخرى، والتي تعني المصاديق البارزة للظلم والعدوان، فإنّ التمحور حول العدالة والقسط لا يمنع عن الظلم والتعسّف فقط، بل يحول دون القبول والخنوع لهما، كما ورد عن الإمام علي عليه السلام: «**العَدلُ يُريحُ العامِلَ بِهِ مِن تَقَلُّدِ المَظالِمِ**»(٢).

وعليه؛ فإنّ روح التمحور حول العدالة وإقامة الحقّ هي النسيم المُنعِش الذي لو هبّ على روح الإنسان فسوف يُزيل عنها شيئاً فشيئاً آثار الخمول والخنوع، ويبلغ بها مراتب العزّة والرفعة.

هذا، وأنّه من الثمرات والنتائج الأُخرى للعدالة هو جبران وإصلاح ما فات، فعندما يلقي غصن العدالة المبارك بظلاله على روح الإنسان بهدوء فسوف يستوعب كلّ أبعاد وجوده، وحيث إنّ ماضي الإنسان هو الآخر يُسهم في صياغة وبلورة هويّة الإنسان، فإنّ إقامة العدل ستساعد في توفير الأرضيّة المناسبة لإصلاح وجبران ذلك الماضي. وهذا الاستعداد والقابليّة دليل على تثبيت العدالة في وجود

---

(١) التميمي الآمدي، عبد الواحد، تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ص٤٤٦، ح١٠٢١٨.

(٢) المصدر السابق: ح١٠٢٠٥.

الإنسان، وهي من المراحل الأخيرة والشديدة الصعوبة للخضوع لمحكمة الضمير. ومن هنا يقول الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «**لا عَدلَ أفضَلُ مِن رَدِّ المَظالِمِ**»(١).

ومن الثمرات الأُخرى للعدالة الأنفُسيّة هي ترسيخ العدالة الاجتماعيّة التي تُعزّز النضج والنموّ والتطور الاجتماعي، وتقضي على جملة من الآفات والأخطار من قبيل الفقر والفحشاء والإدمان والطبقيّة والإسراف والتبذير، وعلى ضوء ذلك فإنّ شيوع الرفاهيّة والرخاء هي نتيجة أُخرى لاستقرار العدالة الآفاقيّة، الأمر الذي يُعقب العدالة الأنفسيّة، قال الإمام علي عليه السلام: «**مَا عُمِّرَتِ البُلْدَانُ بِمِثْلِ العَدْلِ**»(٢).

إنّ العدالة علاوة على أنّها أحد أسمى الضرورات الأخلاقيّة في الحياة الاجتماعيّة، فهي تُعدّ أيضاً من أهمّ الغايات الدينيّة، فإنّ استقرار الدين في الحياة المجتمعيّة يُؤدّي إلى تحقيق العدالة والقسط والإنصاف، كما أنّ شيوع العدالة كما يرتقي بالمستوى الأخلاقي، فإنه يُساهم في نشر الدين في المجتمع، ويُعين في تعزيز الاستعداد والقابليّة على إجراء الحدود والأحكام الإلهيّة، قال الإمام علي عليه السلام: «**جَعَلَ الله سُبْحَانَهُ العَدْلَ قَوَاماً لِلْأَنَامِ، وتَنْزِيهاً مِنَ الْـمَظَالِمِ والآثَامِ، وتَسْنِيَة لِلْإِسْلَامِ**»(٣).

إنّ العدالة في القيادة والإدارة على المستويات الكبيرة والصغيرة في المجتمع تبعث الحياة فيه. قال الإمام علي عليه السلام: «**العدلُ حياة**»(٤). كما أنّ وضع الدساتير والانصياع إليها بشكل منصف وعادل يزيح الظلم والفساد، ويساعد على توطيد

---

(١) المصدر السابق: ح١٠٢٢٢.

(٢) المصدر السابق: ص٣٤٠، ح ٧٧٧٨.

(٣) المصدر السابق: ص٩٩، ح ١٦٩٧.

(٤) المصدر السابق: ص١٦٩٩، ح ٧٧٤٩.

الحياة الواقعيّة، فتغدو الحياة سالمة معنويّاً وماديّاً في المجتمع، ومن جهة أُخرى سيكون ذلك سبباً للثبات والانسجام في أُمور الدولة وشؤونها، قال الإمام عليعليه‌السلام: «**العدل نظام الإمرة**»(١).

هذا، وأنّ العدالة بهذا المستوى لها مصاديق كثيرة من جملتها وضع القوانين الكفيلة بتوفير العدل، والأخذ بعين الاعتبار الاستعدادات والقابليّات لمنح المسؤوليّات والوظائف، وكذلك التشخيص الصحيح للمصادر والفرص.

الحلول والمعالجات

لا شكّ أنّ رعاية حقوق الآخرين وبسط العدالة بينهم، يرتبط باعتقاد الإنسان وقوّة إيمانه بالعدل، وأن يكون هذا الاعتقاد مغروساً في نفسه. هذا من جهة، ومن جهة أُخرى فإنّ الإنسان حريص من دون شكّ على الخير لنفسه وسلامته قبل الغير، ومن أجل ذلك يتفانى ويبذل الغالي والنفيس في سبيل تحصيله، فلو كان قد ارتكب ظلماً وعدواناً بحقّ نفسه، ووضع كلّ شؤونه بيد نفسه التي قيل عنها: إنّها أعدى أعداء الإنسان(٢)، فإنّه سيكون مع الآخرين ـ الذين ربما لا يعرفهم، وليس له تجاههم أيّ علاقة عاطفيّة ـ أكثر ظلماً وتعسّفاً. قال أمير المؤمنين عليعليه‌السلام: «**كيفَ يَعدِلُ في غَيرِهِ مَن يَظلِمُ نفسَهُ؟**»(٣).

إنّ ظلم النفس في الواقع يعني عدم توازن القوى في وجود الإنسان؛ والنتيجة الطبيعيّة لذلك هي عدم الاكتفاء بما تحصل عليه نفسه من حقّ، فيتعدى حينها على حقوق الآخرين من أجل إرضاء رغباته غير المبرّرة. ومن هنا فإنّ أحد الحلول التي

---

(١) المصدر السابق: ص، ح٧٧٤٩.

(٢) كما ورد عن النبيصلى‌الله‌عليه‌وآله أنّه قال: «**أَعْدَى عَدُوِّكَ نَفْسُكَ الَّتِي بَيْنَ جَنْبَيْكَ**». الحلّي، ابن فهد، عدّة الداعي ونجاح الساعي: ص٣١٤.

(٣) التميمي الآمدي، عبد الواحد، تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ص٤٥٥، ح١٠٣٩٦.

تُفضي لتحقق العدالة هو إيجاد التوازن في قوى النفس والانضباط الروحي في أعماق الذات.

ومن أبرز الآفات التي تواجه تحقّق العدل هو غياب العزم والإرادة الاجتماعيّة لإجراء وتطبيق العدالة، فعندما يرى الفرد أنّ سائر أفراد المجتمع لا يراعون حقوق الآخرين، بل إنّ المجتمع نفسه عاجز عن القيام بإجراءات تضمن رفع الظلم والتعسف، فإنّه سوف يشعر أنّ إجراء العدالة بحقّه فقط إجراء انتقائي وظالم؛ وبالنهاية يعد نفسه متضرّراً، على نحو يؤدّي به إلى فقدان الدافع والحافز للسلوك العادل وتطبيقه في مجتمعه. ومن هنا فإنّ أحد أبرز المعالجات لهذا الأمر هو رفع الأصوات وزيادة المطالبات بإجراء العدالة وتحقيقها على المستوى الاجتماعي دون تمييز.

ومن جملة الآفات والمشاكل الأُخرى التي تواجه العدالة هي العداوة والحقد والتباغض، فقد يحصل في الكثير من الأحيان أنّ الإنسان يكره سلوك فرد من الأفراد أو مجتمع من المجتمعات، أو يتضجّر من نمط تفكيره أو ذوقه أو طبعه أو منهجه، فإنّ هذه الكراهية وتحت أيّ ذريعة كانت تُساعد في توفير أرضيّة مناسبة للحقد والظلم. قال تعالى: ﴿... وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا۟ ۘ وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾(١).

وقال أمير المؤمنين علي عليه السلام: «**أَعدَلُ النّاسِ مَن أَنصَفَ مَن ظَلَمَهُ**»(٢).

وعليه؛ فإنّ شيوع المحبّة والرأفة والعطف المتبادل بين الناس والشعوب

---

(١) المائدة: آية٢.

(٢) التميمي الآمدي، عبد الواحد، تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ص٣٩٤، ح٩١٠٤.

والمجتمعات وتجنّب إثارة الحقد والضغينة، تعتبر المعالجة الثالثة من أجل إرساء قواعد العدالة في روح الإنسان وبسطها في المجتمع.

ومضافاً إلى ذلك، فإنّ الغفلة التي تستحوذ على الإنسان حال القوّة والنفوذ، تُعدّ من الآفات البارزة التي تواجه موضوع العدالة أيضاً؛ وذلك لأنّ المرء في هذه الحالة يكون معرّضاً للانحراف والسقوط في فخّ الظلم أكثر من أيّ حالة أُخرى؛ ومن هنا قال الإمام علي عليه السلام في بعض كلامه: «**أَعْدَلُ النَّاسِ مَنْ أَنْصَفَ عَنْ قُوَّةٍ، وأَعْظَمُهُمْ حِلْماً مَنْ حَلُمَ عَنْ قُدْرَةٍ**»(١).

ب) التواضع

التواضع يقابل التكبّر، ومعناه أن يعتقد الإنسان أنّه أقلّ من الآخرين، ويرى عدم وجود ما يُميّزه عنهم في الواقع أو يُقدّمه عليهم، وأن يكتفي في مقام العمل حينما يختلط بالآخرين بشأن ومنزلة أقلّ ممّا ينعته بها الآخرون أو يصفون أمثاله؛ ومن هنا نجد أنّ الإمام السجّاد عليه السلام كان يطلب من الله سبحانه التواضع في دعائه قائلاً: «**اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّد وَآلِهِ، وَلا تَـرْفَعْنِي فِيْ النَّاسِ دَرَجَـةً إلّا حَطَطْتَنِي عِنْدَ نَفْسِي مِثْلَهَا، وَلا تُحْدِثْ لِي عِزّاً ظَاهِرَاً إلّا أَحْدَثْتَ لِي ذِلَّةً بَاطِنَةً عِنْدَ نَفْسِي بِقَدَرِهَا**»(٢).

ويرتبط التواضع بالخشوع والخضوع، ويقابل التكبّر والتعالي، بمعنى أنّ الإنسان عندما يُصاب بحالة التكبّر يرى نفسه أكبر وأعظم من الآخرين، في حين يعتقد الإنسان عند التواضع أنّه أقلّ وأصغر ممّا هو عليه في الواقع. وقد جاء في بعض الروايات: «**أَشْرَفُ الخَلَائِقِ: التَّوَاضُعُ، والحِلْمُ، ولِينُ الجَانِبِ**»(٣). فإنّ التواضع

(١) المصدر السابق: ح٩١٠٥.

(٢) الإمام السجّاد، الصحيفة السجّاديّة، دعاء مكارم الأخلاق.

(٣) التميمي الآمدي، عبد الواحد، تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ص٢٤٩، ح٥١٤٢.

هي النعمة التي لا يُحسد عليها صاحبها، والتكبّر هو البلاء الذي لا يكون صاحبه موطناً للترحّم والذكر الطيّب.

وللتواضع في الحياة الفردية والاجتماعيّة مصاديق عديدة: كارتداء الثياب العاديّة التي يستعملها عامّة الناس، وقيام الإنسان بواجباته الشخصيّة بيديه، وتقديم الأصحاب والرفاق على النفس في شؤون الحياة اليوميّة، فقد ورد عن الإمام الصادقعليه السلام عند حديثه عن مصاديق التواضع ما يلي: «**مِنَ التَّواضُعِ أَنْ تَرْضى بِالمَجْلِسِ دُونَ المَجْلِسِ، وأَنْ تُسَلِّمَ عَلى مَنْ تَلْقى، وأَنْ تَتْرُكَ المِراءَ وإِنْ كُنْتَ مُحِقّاً، وأن لا تُحب أن تُحمَدَ على التَّقْوَى**»(١).

النتائج

من ثمرات التواضع البارزة هي جلب محبّة الناس ومودّتهم، لذلك قال الإمام عليعليه السلام: «**ثَمَرَةُ التّواضُعِ المَحَبَّةُ**»(٢)؛ إذ لا شكّ أنّ أهمّ ما تفتقر إليه الحياة الاجتماعيّة هو روابط المحبّة واللطف بين أفراد المجتمع، فالتواضع من الصفات التي لا تخلق تلك الروابط فحسب، بل تُؤثّر في بسطها وتعزيزها تأثيراً بليغاً أيضاً.

مَن يُتقن التواضع ويُجسّده أكثر ستكون قلوب أحبائه سعيدة به أكثر(٣)

ومن نتائج صفة التواضع أيضاً هي السلامة من شرور العديد من مشاكل المجتمع، فليس كلّ مَن نعاشرهم من الأفراد والشخوص يكونون سالمين من الناحية الأخلاقيّة، فإنّ هناك العديد ممّن أُصيبوا بمشاكل وأمراض أخلاقيّة، ويبرزون آثارها في سلوكهم دون وعي، ومثل هؤلاء سوف لا يؤذون أنفسهم

---

(١) الكليني، محمّد بن يعقوب، الكافي: ج٢، ص١٢٢.

(٢) التميمي الآمدي، عبد الواحد، تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ص٢٤٩، ح٥١٧٩.

(٣) كسى كو فروتن تر و رادتر دل دوستانش از او شادتر

فردوسي، أبو القاسم، شاهنامه [=الشاهنامه].

فحسب، بل سوف يؤذون حتّى أهاليهم وأقاربهم وكلّ مَن له صلة بهم؛ من هنا نقول: إنّ التواضع سيحفظ الإنسان من حسد هؤلاء. قال أمير المؤمنين عليه السلام: «**التّواضع يكسبك السلامة**»(١).

والتواضع يعلو بالإنسان إلى منزلة أسمى بين أفراد المجتمع، قال الرسول محمّد صلى الله عليه وآله: «**مَنْ تَوَاضَعَ لله رفعه**»(٢)، كما أنّه يجعل اسم صاحبه يُذكر على الألسن بالخير والمحبّة والاحترام، فقد ورد: «**التواضع يكسوك المهابة**»(٣). وهو كذلك سبب في سيادة الأخلاق الحسنة وشيوع الفضيلة، وبه يتقدّم المجتمع وينمو من الناحية الأخلاقيّة، ويمضي نحو التكامل «**التَّوَاضُعُ يَنْشُرُ الفَضِيلَةَ**»(٤). إلى جانب ذلك سوف يُمهّد الطريق لكسب سائر الفضائل والكمالات المرتبطة بهذه الخصلة. قال الإمام الكاظم عليه السلام: «**إنّ الزَّرعَ يَنبُتُ في السَّهلِ ولا يَنبُتُ في الصَّفا؛ فكذلكَ الحِكمَةُ تَعمُرُ في قَلبِ المُتَواضِعِ، ولا تَعمُرُ في قَلبِ المُتكبِّرِ الجَبّارِ؛ لأنّ الله جَعلَ التَّواضُعَ آلَةَ العَقلِ، وجَعَلَ التَّكبُّرَ مِن آلةِ الجَهلِ**»(٥).

ومن هنا؛ فإنّ الثمرات والنتائج التي تحصل نتيجة الحكمة من قبيل السكينة والاطمئنان والمحبّة في قلوب الناس ستكون من نصيب الإنسان عندما يتحلّى بصفة التواضع.

الحلول والمعالجات

من أهمّ عقبات التواضع في المجتمع هي الهالة النفسيّة والتصوّر الخاطئ لهذا

---

(١) الكراجكي، أبو الفتح، كنز الفوائد: ج١، ص٣٢٠.

(٢) الكليني، محمّد بن يعقوب، الكافي: ج٢، ص١٢٢.

(٣) المصدر السابق: ج ٨، ص٢٣.

(٤) التميمي الآمدي، عبد الواحد، تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ص٢٤٨، ح٥١٣١.

(٥) ابن شعبة الحرّاني، الحسن بن علي، تحف العقول: ص٣٩٦.

المفهوم واللغط في تفسيره، فإنّ الكثير من الناس يفهم التواضع على أنّه استصغارٌ للنفس وإذلالٌ لها، وهذا الفهم له جملة من الدواعي والأسباب، نذكر هنا أهمّها:

١ ـ مشاهدة بعض الناس أنّ الإنسان عندما يتواضع يتمّ استغلاله، ويُساء له بطريقة أو بأخرى.

٢ ـ الاعتقاد بمضامين بعض الكلمات القصار أو بعض القصص والحكايات المسموعة أو المقروءة، والتي أرجعت التواضع إلى الذلّ والمهانة، من قبيل ما يتناقله البعض من أنّ القلوب المتواضعة هي مركز الآمال التافهة.

٣ ـ ما يُلاحظ أحياناً من تلقّي المرء الاستحقار والإهانة بسبب التواضع، فيظنّ خطأً أنّ التواضع يجلب الهوان والذلّ.

٤ ـ الهالة العظيمة التي يجعلها البعض لمفاهيم عزّة النفس والثقة بها والشجاعة والإقدام سواء في سلوكهم أو في مرتكزاتهم الذهنيّة؛ ومن هنا فهم يعتبرون أنّ التواضع ولين الجانب يتناقض مع تلك الصفات النبيلة.

٥ ـ ما يُعتقد خطأً من أنّ الإنسان عندما يكون متواضعاً إنّما يظهر نقطة ضعف ونقص فيه.

٦ ـ ما يُظنّ من أنّ التواضع مرتبط حتماً بالفقر والعوز، في حين أنّ الكثير من الفوادح والخسائر الاقتصاديّة تحصل نتيجة التكبّر.

٧ـ ما يعتقده البعض من أنّ هناك ارتباطاً وثيقاً بين التواضع وبين الحياة المُملّة.

ومن هنا؛ فلو أردنا تحقيق التواضع يجب أن ندع هذه الظنون والاعتقادات السلبيّة جانباً.

ومن العقبات المهمّة التي تحول دون التحلّي بالتواضع هو الابتلاء بالتكبّر، فعلينا أن نلتفت دائماً إلى أنّ الإنسان لا يُمكنه ادّعاء التواضع والتخلّص من الكِبْر ما لم يحصل له الاطمئنان التامّ بذلك، والعلامة التي يُطمئن إليها في إحراز كون

النفس قد تحلّت بالتواضع بالفعل هي: أنّ يُمارس الإنسان الأعمال المتواضعة دون تكلّف أو ضغط على النفس[١]. ولكن ينبغي عليه الحذر من أن ينتهي به التواضع إلى التذلّل والمسكنة.

ج) التحلّي بالآداب الاجتماعيّة

غالباً ما يتقاعس بعض الشباب عن الالتزام بممارسة الآداب الاجتماعيّة بسبب ما يظنّونه من أنّ هذا الالتزام ينافي إبداع الإنسان وحريّته، ولكن ينبغي العلم بأنّ التقيّد بمثل هذه الآداب والتحلّي بها يُعدّ مظهراً للأخلاق وهي الصورة الخارجية لها. وبالواقع فإنّه بلحاظ التأثير المتبادل بين الظاهر والباطن[٢] تُعدّ الآداب امتداداً طبيعيّاً للجبِلّة الأخلاقيّة المغروسة في أعماق الإنسان، وربّما يكون ذلك هو السبب وراء احتواء النظام القيمي الإسلامي على الكثير من التعاليم والتوصيات المتعلّقة بالآداب، ولا شكّ أنّ التقيّد بمثل هذه الآداب وإسقاطها على السلوك والعمل سوف يختصر عمليّة التربية ويسهّل إنجازها[٣].

النتائج والآثار

إنّ مراعاة الآداب الاجتماعيّة سبب في تحقيق علاقات أوثق وأعمق وأوطد وأكثر أثراً ووقعاً بين أفراد المجتمع، وبشكلٍ عامّ فإنّها ستؤدّي إلى تكامل القِيَم الإنسانيّة ونضجها. وعليه فإنّ فقدان الأدب الاجتماعي وانعدامه سيقصي العديد من دواعي العلاقات الاجتماعيّة وأسبابها.

---

(١) أُنظر: النراقي، ملّا أحمد، معراج السعادة: ص٢٠٦.

(٢) أُنظر: باقري، خسرو، نگاهي دوباره به تربيت إسلامي (نظرة أُخرى إلى التربية الإسلاميّة): ص٢٢ ـ ٢٣، وص٦٩ ـ ٧٧.

(٣) لقد ذُكِرَ أنّ دور الأدب في التربية كدور التربية في التأديب.

كذلك فإنّ التحلّي بكلّ واحد من هذه الآداب يُحسّن صورة الإنسان ويُجمّلها في نظر الآخرين، كما قال الإمام علي عليه السلام: «**الآدَابُ حُلَلٌ مُجَدَّدَةٌ**»(١).

ومن جهة أُخرى فإنّ رعاية الآداب الفرديّة والاجتماعيّة الحسنة سبب لحصول الفرد على مكانة مرموقة لدى الآخرين، والذي سيدعوهم إلى أن يوكلوا إليه مسؤوليّات هامّة نتيجة الثقة العالية بشخصه وسلوكه. قال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «**لا يَرْأسُ مَنْ خَلا عَنِ الأدَبِ وصَبا إلى اللَّعِبِ**»(٢).

ويضاف إلى ذلك، فإنّ التأدّب بالآداب الاجتماعيّة مليء بالجاذبيّة والروعة والمتعة، وسيُتيح فرصة جيّدة لخلق نماذج عمليّة يُقتدى بها.

الحلول والمعالجات

إنّ أحد عقبات تطبيق الآداب الاجتماعيّة هي عدم فهم وإدراك أدوارها الإيجابيّة بشكل صحيح، فإنّ الإنسان في الواقع حينما يجهل شيئاً سوف يهمله ويخالفه ويعاديه، قال الإمام علي عليه السلام: «**المرءُ عدوّ ما جهِل**»(٣). ومن هنا علينا أن نبحث في الآداب الاجتماعيّة، ونتحرّى عنها حتّى نعرفها ونعيها بصورة جيّدة.

ومن الأُمور التي تحول دون التأدّب بالآداب الاجتماعيّة أيضاً هي الاعتقاد بعدم منطقيّة بعض تلك الآداب، وهذا الأمر يعود إلى صفة البحث عن الحقيقة لدى الإنسان التي تدعوه إلى عدم الرضوخ لأيّ قضيّة ما لم تثبت لديه صحّتها. ومن هنا ينبغي إصلاح بعض الآداب حتّى تُتاح فرصة مراعاتها وتطبيقها.

---

(١) التميمي الآمدي، عبد الواحد، تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ص٢٤٧، ح٥٠٧١.

(٢) المصدر السابق: ح ٥٠٦٩.

(٣) المصدر السابق: ص٧٤، ح١١٤٢.

الأسئلة

١ـ أرجو شرح معنى العدالة وبيانها؟

٢ ـ ما هي العقبات التي يجب تخطّيها للتحلّي بصفة العدالة؟

٣ ـ ما هي العلاقة بين التواضع والتذلّل والتكبّر؟

٤ ـ أرجو ذكر بعض النماذج البارزة للسلوك المتواضع في الحياة الفرديّة والاجتماعيّة؟

٥ ـ ما هو المراد من الآداب الاجتماعيّة، وما هو مدى ارتباطها بالأُمور الأخلاقيّة؟

٦ ـ ما هي آثار الآداب الاجتماعيّة التي نكون ملزمين برعايتها والقيام بها؟

للبحث والتأمّل

١ ـ ما هي العلاقة بين العدالة في باب الأخلاق والعدالة في الفقه التي تُعدّ شرطاً في التصدّي لبعض المناصب الشرعيّة من قبيل الإمامة في صلاة الجمعة والجماعة، والقضاء، وولاية الفقيه؟

٢ ـ ما هي العقبات الأُخرى غير التي تمّت الإشارة إليها في الدرس، والتي يمكن أن تواجه العدالة على الصعيدين الفردي والاجتماعي؟

٣ ـ أرجو شرح بعض مصاديق التباين الملموسة بين عزّة النفس والتكبّر وبين ذلّ النفس والتواضع؟ وكيف يمكن أنّ نتبع أُسلوب التواضع في حياتنا اليوميّة من دون أن يُنقص ذلك من احترامنا؟

٤ ـ هل هناك علاقة أو ارتباط بين الدين والعدالة؟

٥ ـ لماذا لا يبالي البعض بالآداب الاجتماعيّة، أو يواجهونها وينقضونها؟

٦ ـ ما الذي ينبغي فعله إزاء بعض الآداب الاجتماعيّة الخاطئة؟

الفصل الخامس عشر

العلاقة النموذجيّة مع الآخرين

(الحدّ الأعلى في الأخلاق الاجتماعيّة)

الأهداف

يُتوقّع من الطلّاب الأعزّاء بعد قراءة هذا الفصل أن:

١ ـ يتمكّنوا من تصوّر الشكل المثالي لطبيعة العلاقات الاجتماعيّة بين المؤمنين.

٢ ـ يتعرّفوا على معنى الأُخوّة والإيثار ومنطقهما في الفكر الإسلامي، ويطّلعوا على مصاديقهما البيّنة والخفيّة، وتشخيص النتائج الفرديّة والاجتماعيّة لهما.

٣ ـ يفهموا التأثيرات المهمّة لهذه التعاليم، ودورها في الصحّة النفسيّة للفرد والمجتمع، ويتعرّفوا كذلك على الآثار السلبيّة التي تطال بالجميع نتيجة إهمال تلك التعاليم.

٤ ـ يتعرّفوا على السُبل والمجالات التي توصل إلى التحلّي بهذه الخصائص والصفات.

٥ ـ يعوا العلاقة المتقابلة بين الكفر والاستكبار من جهة، وبين الإيمان ومواجهة الاستكبار من جهة أُخرى.

***

أ) الأُخوّة والتراحم

لقد نُظّم المجتمع الإسلامي على أساس العلاقات الودّية الخالصة والموجبة للمحبّة، حيث تُشير الأخوّة في الثقافة الأخلاقيّة في الإسلام إلى الشعور بالقرابة والعلاقة القلبيّة الطيّبة بين أفراد الأُمّة الإسلاميّة، بمعنى أنّ أفراد المجتمع الذين يعيشون جنباً إلى جنب، يشعرون من أعماق أنفسهم بالقرب والتآخي مع الجميع. وقد عبّر القرآن الكريم عن ذلك بقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾[1].

---

(١) الحجرات: آية ١٠.

ودائماً ما يُعتبر مفهوم الأُخوّة في المنظومة الإسلاميّة ـ سواء على الصعيد الفكري أو السلوكي العملي ـ عنصراً فاعلاً في تبلور المجتمع الصحيح والأُمّة الناجحة وتشكيلهما.

وقد ذكرت رواياتنا حقوقاً كثيرة للأُخوّة، من قبيل: قضاء الإخوان حوائج بعضهم البعض، وعدم ذكر عيوبهم وبيان محاسنهم، والعفو عن زلّاتهم وإساءتهم، والدعاء لهم بالخير والصلاح. إنّ الإخوان في الدين لا يتساوون بالضرورة من حيث الثروة الماديّة والسنّ والمنزلة والمكانة الاجتماعيّة وحتّى في التقوى، فإنّ الأُستاذ والتلميذ والرئيس والمرؤوس ونحو ذلك من المسمّيات والألقاب كلّهم يُعدّون إخوة في المجتمع الإسلامي.

وتتجلّى الأُخوّة في الشعور بالحنوّ والعطف والإحساس القلبي بالآخر، وكذلك الدعم العاطفي والفكري، إلّا أنّ تطبيق هذه الأخلاق بشكل عملي هو سلوك لا يخلو من صعوبة؛ وذلك لأنّ الأُخوّة والمحبّة بين الأفراد قد تواجه سلوكيّات خاطئة كالخيانة ونحوها، إلّا أنّه وكيفما كان الأمر فإنّ مَن رسّخ السجيّة الأخلاقيّة في نفسه واستسهلّ تطبيقها وممارستها في عمله وسلوكه، سيكون محبّاً للناس دائماً حتّى لو واجه إساءةً أو أذىً منهم.

وقد أكّدت النصوص الإسلاميّة كثيراً على المحبّة ومصادقة الإخوان كثيراً، كما جاء ذلك عن الإمام الصادق عليه السلام: «**اِتَّقُوا الله وكُونُوا إِخْوَاناً بَرَرَةً مُتَحَابِّينَ فِي الله مُتَوَاصِلِينَ مُتَرَاحِمِينَ، تَزَاوَرُوا، وتَلَاقَوْا**»[١].

ولكن تجدر الإشارة إلى أنّ الإسلام ليس مع الصداقة من دون قواعد أو أُسس، ولا مع المحبّة بشكل مطلق، ولا يعطي القيمة المطلوبة لهذه المفاهيم بشكل

---

(١) القمّي (الصدوق)، محمّد بن علي بن بابويه، مصادقة الإخوان: ص٣٤.

مستقلّ، وإنّما نجده قد قنّن كلّ ذلك ضمن قوانين وأُطر، ووضع ضوابط خاصّة حتّى للأفراد الذين ينبغي حبّهم ومؤاخاتهم، فقد جاء عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام في وصفه للمتّقين أنّ المحور في علاقاتهم الإنسانيّة هو الله والفضائل الأخلاقيّة. قال عليه السلام: «**بُعْدُهُ عَمَّنْ تَبَاعَدَ عَنْهُ زُهْدٌ وَنَزَاهَةٌ، وَدُنُوُّهُ مِمَّنْ دَنَا مِنْهُ لِينٌ وَرَحْمَةٌ، لَيْسَ تَبَاعُدُهُ بِكِبْرٍ وَعَظَمَةٍ، وَلَا دُنُوُّهُ بِمَكْرٍ وَخَدِيعَةٍ**»(١).

وقال عليه السلام أيضاً: «**أفضَلُ المُؤمِنينَ إيماناً مَن كانَ للهِ أخذُهُ وعَطاهُ وسَخَطُهُ ورِضاهُ**»(٢).

إنّ تنظيم العلاقة مع الآخرين على أساس الدين والتقوى والعدالة من أفضل التعاليم التي نادى بها الأنبياء في الأخلاق الاجتماعيّة، وهي أيضاً من أهمّ الحلول والمعالجات التي يتّبعها المجتمع في سبيل الارتقاء بمستوى كمال الفرد وتقدّم الأُمّة الإسلاميّة وتساميها؛ فإنّ روح الأُخوّة الإسلاميّة هذه هي الضامنة لبقاء الصداقات والعلاقات المثمرة والحبّ العميق واستمرارها. كما أنّ أساس كلّ حبّ إنساني وغايته هو الحبّ الإلهي، فكلّما كان هذا الحبّ يسير في مسار الحقّ وطلب الكمال، كان أكثر بقاءً وأبلغ أثراً.

قال الإمام علي عليه السلام: «**إخوانُ الدُّنيا تَنقَطِعُ مَوَدَّتُهُم لِسُرعَةِ انقِطاعِ أسبابِها**»(٣).

وقد رود عنه عليه السلام أيضاً: «**تُبْتَنَى اَلْأُخُوَّةُ فِي الله عَلَى اَلتَّنَاصُحِ فِي الله، وَالتَّبَاذُلِ فِي الله، وَالتَّعَاوُنِ عَلَى طَاعَةِ الله، وَالتَّنَاهِي عَنْ مَعَاصِي الله، وَالتَّنَاصُرِ فِي الله، وَإِخْلَاصِ اَلْمَحَبَّةِ**»(٤).

---

(١) نهج البلاغة، تحقيق: صبحي الصالح: ص٣٠٦، الخطبة ١٩٣.

(٢) التميمي الآمدي، عبد الواحد، تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ص٩٠، ح١٥٤٨.

(٣) المصدر السابق: ص٤١٧ ـ ٤١٨، ح٩٥٤٦.

(٤) المصدر السابق: ص٤٢٢، ح٩٦٩١.

وقال الإمام الصادقعليه السلام بشأن حقيقة المحبّة والصداقة ما يلي: «**الصداقة محدودة، ومَن لم تكن فيه تلك الحدود فلا تنسبه إلى كمال الصداقة، ومَن لم يكن فيه شيء من تلك الحدود، فلا تنسبه إلى شيء من الصداقة؛ أوّلها: أن تكون سريرته وعلانيّته لك واحدة، والثانية: أن يرى زينك زينه وشينك شينه، والثالثة: لا يغيّره عليك مال ولا ولاية، والرابعة: أن لا يمنعك شيئاً ممّا تصل إليه مقدرته، والخامسة: أن لا يسلمك عند النكبات**»(١).

وسُئل الإمام أمير المؤمنينعليه السلام عن الإخوان، فقال: «**الإخوان صنفان: إخوان الثقة وإخوان المكاشرة، فأمّا إخوان الثقة فهم كالكفّ والجناح والأهل والمال، وإذا كنت من أخيك على ثقةٍ فابذل له مالك ويدك، وصافِ مَن صافاه وعادِ مَن عاداه واكتم سرّه، وأعنه، وأظهر منه الحسن، واعلم أيّها السائل أنّهم أقلّ من الكبريت الأحمر. وأمّا إخوان المكاشرة، فإنّك تُصيب منهم لذّتك، ولا تقطعنّ ذلك منهم، ولا تطلبنّ ما وراء ذلك من ضميرهم، وابذل ما بذلوا لك من طلاقة الوجه وحلاوة اللسان**»(٢).

إنّ تمنّي الخير للغير والنصيحة المخلصة، وغضّ الطرف عن تقصير الآخرين، والتعاون مع من حولنا، ومساعدة الفقراء، ومساعدة الآخرين في إتمام أعمالهم، والتذكير بالقصور والأخطاء ونحو ذلك، كلّها تُعدّ من أسباب الأُخوّة والأُلفة الإسلاميّة، وقد أكّدت عليها النصوص الدينيّة في مصادر إسلاميّة عديدة.

قال الإمام الصادقعليه السلام: «**مشي المسلم في حاجة المسلم خير من سبعين طوافاً بالبيت الحرام**»(٣).

---

(١) القمّي (الصدوق)، محمّد بن علي بن بابويه، مصادقة الإخوان: ص٣٠.

(٢) المصدر السابق.

(٣) المصدر السابق: ص٦٦.

النتائج

تُتيح الأُخوّة والصداقة أسمى سُبل التكامل المادّي والمعنوي لأفراد المجتمع. فإنّ جذور أغلب الأسباب التي تحول دون تطوّر الأفراد وتساميهم تعود إلى الأنانيّة، والتكبّر والغرور، وسوء الظنّ، والتشظّي والانقسام. ومثل هذه الأُمور تضيّع على المجتمع الفرص الحقيقيّة للارتقاء في المسير الطبيعي إلى الكمال، وتحرفه عن بلوغ النجاح والتطوّر، وتخلق منه مجتمعاً منهمكاً في الاختلافات الداخليّة والصراعات التافهة.

وكما جاء في علم النفس الاجتماعي فإنّ الكثير من معطيات الصحّة النفسيّة تنتعش بسبب الشعور بالتعلّق بالمجموعة، والتماسك بين الأواصر الاجتماعيّة، والتقارب بين أفراد المجتمع؛ فإنّ ما يحظى به المجتمع من الأمن النفسي والعاطفي، والانحسار الملحوظ لبعض الظواهر المنتشرة في مجتمعات الحداثة؛ كالاكتئاب والعزلة والانطواء على الذات ناتجة عن هذه الأُخوّة الإسلاميّة.

ومن ثمار الأُخوّة في المجتمع هو تبلور الأرضيّة الخصبة للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كما عبّر عن ذلك القرآن الكريم، عندما أعرب عن مكانة الأُمّة الإسلاميّة ومحوريّتها: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾(١).

ومن هنا؛ فإنّ كلّ ثمار الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتطبيق الحدود والأحكام الإلهيّة هي نتائج هذه الخاصيّة أيضاً.

إنّ شيوع روح الأُخوّة في المجتمع يُمهّد الطريق لبناء الذات وإصلاح

(١) آل عمران: آية ١١٠.

الآخرين وبناء ذواتهم أيضاً. قال أمير المؤمنين علي عليه السلام: **«احْمِلْ نَفْسَكَ مَعَ أَخِيكَ عِنْدَ صَرْمِهِ عَلَى الصِّلَةِ، وعِنْدَ صُدُودِهِ عَلَى اللُّطْفِ والمُقَارَبَةِ، وعِنْدَ تَبَاعُدِهِ عَلَى الدُّنُوِّ، وعِنْدَ جُرْمِهِ عَلَى العُذْرِ، حتّى كَأَنَّكَ لَهُ عَبْدٌ، وكَأَنَّهُ ذُو نِعْمَةٍ عَلَيْكَ، وإِيَّاكَ أَنْ تَضَعَ ذَلِكَ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ، أو تَفْعَلَهُ مَعَ غَيْرِ أَهْلِه»**(١).

ومن الواضح أنّ المرء كلّما تعامل في حياته الاجتماعيّة بهذا التعامل الطيّب، سينجذب إليه الآخرون أيضاً. وعبر هذا السلوك الحسن سوف تتاح أفضل الفرص لنشر الدين وتبليغ تعاليمه، فإنّ نتيجة العلاقات المتينة والمؤآخات الاجتماعيّة هي ظهور مجتمع تنتشر فيه هذه الصفات الحسنة، ويشعر جميع أفراده من خلالها بالأمن والشخصيّة المحترمة، ولا يُفكّرون إلّا بالتكامل والرقي والتسامي.

كذلك فإنّ الأُخوّة الإسلاميّة لها آثار ونتائج أُخرويّة عديدة أيضاً، فقد ورد عن الإمام الرضا عليه السلام أنّه قال: **«مَنِ استَفَادَ أخاً فِي اللهِ عَزَّ وجَلَّ استَفَادَ بَيتاً فِي الجَنَّةِ»**(٢).

وقال الإمام الصادق عليه السلام: **«أكثروا من الأصدقاء في الدنيا؛ فإنّهم ينفعون في الدنيا والآخرة، أمّا الدنيا فحوائج يقومون بها، وأمّا الآخرة فإنّ أهل جهنّم قالوا: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ۝١٠٠ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٖ﴾»**(٣)(٤)، وقال: **«استكثروا من الإخوان؛ فإنّ لكلّ مؤمن شفاعة»**(٥).

---

(١) التميمي الآمدي، عبد الواحد، تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ح ٩٦٣٠.

(٢) الطوسي، محمّد بن الحسن، الأمالي: ص٨٤.

(٣) الشعراء: آية ١٠٠ ـ ١٠١.

(٤) القمّي (الصدوق)، محمّد بن علي بن بابويه، مصادقة الإخوان: ص46.

(٥) المصدر السابق.

الحلول والمعالجات

إنّ الأُخوّة والمحبّة كسائر النعم لا تبقى ولا تدوم دائماً، فهي بحاجة إلى حماية؛ فإنّ المحافظة على حرمة الأُخوّة الدينيّة والحقوق المترتبّة عليها يُعدّ من أهمّ عوامل صيانة الأخوّة الإسلاميّة. يحدث كثيراً بين الأصدقاء المقرّبين أنّهم وبسبب شدّة الأُلفة والمحبّة لا يعتني بعضهم بحقوق وحرمات بعضهم الآخر، وأحياناً يبرّر ذلك بالعبارة المعروفة: «بين الأحباب تسقط الآداب»، في حين أنّه ينبغي أن تكون مراعاة حقوق الأصدقاء والإخوة المخلصين وحرماتهم أشدّ وأكثر.

إنّ الكثير من الرذائل الأخلاقيّة كسوء الخُلق والأنانيّة والغرور والتكبّر والحسد والطمع، وكذلك إيجاد مناخات للمنافسة الكاذبة في المجتمع تعتبر من الآفات التي تُصيب الأُخوّة الطيّبة. مثال ذلك: ما يحدث في بعض المسابقات الرياضيّة، حيث يبلغ الأمر ببعض الأشخاص إلى الاهتمام بنتيجة المسابقة بشكل مفرط، فيعدّون معايير الفوز الخسارة مبرِّراً لهم للقيام بمختلف السلوكيّات غير اللائقة في سبيل مناصرة فريقهم وتشجيعه. وما يساعد على إشعال حدّة المنافسة الكاذبة هذه هي وسائل الإعلام التي تُلهب حدّة المنافسة، وتبلغ بها مستويات غاية في التشنّج، ويخال لك أنّ ساحة المنافسة الرياضيّة أصبحت ساحة حرب، وتنتهي بالعداوة والبغضاء، ولا شكّ أنّ تجاوز هذه الأخطاء والمشاكل يُساعد في تعزيز الأُخوّة الإسلاميّة.

ب) الإيثار

ورد عن الإمام عليّ عليه السلام: «**عَامِلْ سَائِرَ النَّاسِ بِالإِنْصَافِ، وعَامِلِ الْمُؤْمِنِينَ بِالإِيثَارِ**»(١).

---

(١) التميمي الآمدي، عبد الواحد، تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ص٣٩٤، ح٩١٠٩.

يعتبر الإيثار والتضحية من مكارم الأخلاق الاجتماعيّة ومن أهمّ فضائل الأخلاق، ويعني تنازل المرء عن حقوقه ومصالحه من أجل الآخرين، وهو يُعدّ أسمى وأعظم درجات البرّ والإحسان، وقد عبّرت روايات أهل البيت عليهم السلام عنه بتعابير عديدة، منها: إنّ الإيثار: «**أحسنُ الإحسان**»، «**شيمةُ الأبرار**»، «**أعلى المَكارم**»، «**أفضلُ عِبادَة**»، «**أجلّ سيادَة**»، «**أعلى المَراتِب**»(١).

وجعل القرآن هذه الصفة في عداد أبرز الصفات النبيلة لأهل الإيمان، قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلۡإِيمَٰنَ مِن قَبۡلِهِمۡ يُحِبُّونَ مَنۡ هَاجَرَ إِلَيۡهِمۡ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمۡ حَاجَةٗ مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤۡثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ وَلَوۡ كَانَ بِهِمۡ خَصَاصَةٞۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾(٢).

ومن جملة موارد الإيثار التي أشار إليها القرآن الكريم هو تضحية الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام في ليلة المبيت عندما آثر على نفسه ونام في فراش النبي صلى الله عليه وآله ليخرج بسلام من مكّة مهاجراً إلى يثرب. وهكذا كانت سيرة أنبياء الله وأهل البيت الكرام عليهم السلام أيضاً، حيث قضوا حياتهم قانعين مكتفين بأقلّ مستلزمات العيش؛ من أجلّ تقديم يد العون والمساعدة وما تيسّر من الطعام وغيره للمعوزين والمظلومين.

مَن يرى الواقع بنظرة ضيّقة لا يرى إلّا همّه وبؤسه

ومَن له نظر وأُفق واسع يرى همّه وهمّ غيره من الناس(٣).

---

(١) المصدر السابق: ح ٩١٧٦، ٩١٥٥، ٩١٥٩، ٩١٦١، ٩١٦٢.

(٢) الحشر: آية٩.

(٣) كوته نظران نبود جز غم خويش   صاحب نظران را غم بيگانه و خويش

سعدي، مصلح الدين، الكلّيات.

النتائج

إنّ الإيثار والتضحية الذي يُعدّ تجاوزاً وتخطّياً لقيود هوى النفس، سيؤدّي إلى التحرّر من الدنيا وإزاحة كلّ العلائق المادّية، فعندما يقدّم الإنسان الآخرين على نفسه، يعني ذلك أنّه تخلّص من كلّ القيود المادّية التي يمكن أن تُؤسره. إنّ الإيثار يقي روح الإنسان من الاضطراب الناشئ من هاجس امتلاك زخارف الدنيا وفقدانها، وسوف يوسّع قابليّته الوجوديّة. وعليه فإنّ حاصل هذه القيمة الأخلاقيّة هو إضفاء نوع من اللطافة على الروح لبلوغ الكمال والتحرّر والتخلّص من حبائل الدنيا.

اعتبر القرآن الكريم أنّ الإيثار يوجب مرضاة الله، وهو سبب للمضي والثبات على طاعة الله. قال تعالى: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثۡبِيتٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ﴾(١). وبالطبع، فإنّ قطع هذه الثمار على الصعيد الشخصي والفردي سيعقبه ثمرة وفائدة ستسري إلى الأُمّة الإسلاميّة أيضاً، وسوف تتجلّى فيها المحبّة والنشاط والحيويّة، وبذلك سيقلّ مستوى المشاكل والعقد الاجتماعيّة إلى أقلّ مستوى.

إنّ التضحية والإيثار يُساعدان على الاتّحاد والتماسك الاجتماعي وشيوع روح الإيمان والاعتقاد بالله بين الناس، ويُؤدّي إلى مضاعفة الأمل بالحياة بين الطبقات المحرومة في المجتمع.

الحلول والمعالجات

إنّ أهمّ موانع الإيثار وعقباته هي التعلّق بالدنيا؛ ومن هنا فكلّما تخلّصت روح الإنسان من هذا التعلّق أكثر كان أكثر سعادة بما يقوم به من إيثار وتضحية ونكران الذات.

---

(١) البقرة: آية٢٦٥.

إنّ الإنسان المؤمن الذي يعتقد أنّه يعيش بتدبيرٍ ورعايةٍ من الله، ويُوقن أنّه الرزّاق الرحيم، ويعتقد أنّ كلّ ما يملكه هو ملكٌ لله تعالى، سوف لن يخشى من البذل والعطاء. فلو كان الإنسان يؤمن بوعد الله، ويعي أنّه يتعامل مع الله لا مع الناس، سوف يتوكّل عليه في ذلك، ويُدرك أنّه لا يبخل بما عنده، وأنّ خزائنه لا تنقطع ولا تنضب. قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾(١).

ومن هنا؛ فإنّ من موانع الإيثار عدم الإيمان بالثواب والجزاء الإلهي وتأثيره في السعادة الدنيويّة والأُخرويّة.

ج) مواجهة الاستكبار

يقع الاستكبار في مقابل الإيمان والتسليم، ويُشير مفهوم مواجهة الاستكبار إلى الوقوف أمام دوافع الشعور بالأفضليّة على الأخرين والهيمنة عليهم. وحيث إنّ أحد الأهداف الأساسيّة لجميع الأنبياء والرسالات الإلهيّة هو خلق الأرضيّة الخصبة لسموّ الإنسان وتكامله، وبما أنّ نموّ روح التكبّر والهيمنة لا سيّما بالنسبة إلى الأفراد المؤثّرين في محيطهم ومجتمعهم سيكون مانعاً عن بلوغ الآخرين إلى الكمال والرشد، تبرز أهمّية بحث هذه المقولة ودراستها. وقد ذكر القرآن الكريم المفسدين في الأرض ونعتهم بصفة الاستكبار، كما جاء ذلك بشأن فرعون في قوله تعالى: ﴿ وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴾(٢).

إنّ الإسلام لم يسمح أبداً باستعباد السلطة للناس، ولا يرتضي إطلاقاً أن

---

(١) سبأ: آية٣٩.

(٢) القصص: آية٣٩.

يكون النظام السياسي مشروعاً للهيمنة والتحكّم برقاب الناس؛ لذا حثّ جميع الأفراد على مقارعة الظلم والوقوف بوجه الاستكبار، وجمع ما بين العرفان الديني والمواجهة والجهاد الاجتماعي. وتعتبر مقارعة الظلم ومواجهة الغطرسة والاستكبار من الفضائل الإيمانيّة العظيمة، فقد جاء عن الرسول محمّدﷺ: «**إنّ أفضل الجهاد كلمة عدل عند إمام جائر**»(١).

لقد ذكر القرآن الكريم ما يربو على أربعين مورداً تناول فيها الخصائص النفسيّة والمكانة الاجتماعيّة للمستكبرين ودوافعهم لطلب المال والجاه والسلطة. وعلى ضوء ما يراه القرآن الكريم فإنّ المتكبّرين، ومن دون اتّباع معايير الفضيلة، يعدّون أنفسهم أفضل من الآخرين وأعلى منهم. أجل، يعتمدون في زعمهم هذا على بعض المعايير الدنيويّة؛ كالقدرة والثروة، جهلاً منهم بحقيقة مثل تلك المعايير، فهم ومن خلال القهر والظلم والخداع والكذب والأساليب المختلفة يسعون لإجبار الناس والضغط عليهم وتجهيلهم من أجل سوقهم إلى ما يُريدون، ويضطرّونهم للعمل حسب ما يشاؤون من دون مناقشة أو اعتراض(٢).

يحوز المستكبرون على النفوذ السياسي والقدرة الاقتصاديّة من خلال الهيمنة على الشعوب والمجتمعات الجاهلة، كما أنّه ومن أجل استمرارهم في هذا الاستغلال الظالم تراهم يُمسكون بزمام الثقافة والعقيدة السائدتين فيُشيعون بين الناس، وبأساليب مختلفة، نمطاً من التفكير الذي يُساعد على الخنوع والقبول بالظلم والاستبداد. لذلك تجدهم يقمعون كلّ دعوة للوعي والتنوير.

---

(١) الكليني، محمّد بن يعقوب، الكافي: ج٥، ص٥٩.

(٢) أُنظر: الخامنئي، علي، روح توحيد ونفي عبوديت غير خدا ـ ديدگاه هاى توحيدى (= روح التوحيد ونفي عبودية غير الله ـ رؤى توحيدية): ص٧٦.

وكما ذُكر في الفصول السابقة فإنّ مقتضى التوحيد العملي هو نفي الطاغوت، وهنا نُشير إلى بعض الآيات الكريمة التي أشارت إلى ذلك:

قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾(١).

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓاْ أَوۡلِيَآءَ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ إِنَّ كَيۡدَ ٱلشَّيۡطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾(٢).

﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ فَمِنۡهُم مَّنۡ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنۡهُم مَّنۡ حَقَّتۡ عَلَيۡهِ ٱلضَّلَٰلَةُۚ فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾(٣).

﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزۡعُمُونَ أَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدۡ أُمِرُوٓاْ أَن يَكۡفُرُواْ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمۡ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا﴾(٤).

النتائج والآثار

إنّ من أهمّ المكتسبات الفرديّة لخصلة رفض الاستكبار هو تعزيز روح الشهامة والمروءة والفتوّة لدى الفرد. وهذه الروح بالإضافة إلى أنّها سترعب

---

(١) البقرة: آية٢٥٧.

(٢) النساء: آية٧٦.

(٣) النحل: آية٣٦.

(٤) النساء: آية٦٠.

الظالمين وتخيف المفسدين وتزلزل عروشهم، فهي ستعطيهم بشكل عملي درساً في الشهامة والغيرة والتديّن، وقد تجلّى نموذج ذلك بأروع صورة في واقعة الطفّ، فإنّ النداء الإلهي الحماسي الذي أطلقه سيّد الشهداء عليه السلام سيبقى حيّاً في النفوس الغيورة، وسيظلّ دائماً يدعو الناس إلى القيام بخطوات مؤثّرة في مواجهة الظلم والمفاسد الاجتماعيّة. وهو ما أطلقه عليه السلام حين قال: «**أَلا وأَنَّ الدَّعِي ابنَ الدَّعِي** [أي: ابن زياد] **قَدْ رَكَزَ بَيْنَ اثْنَتَيْنِ، بَيْنَ السِّلَّةِ والذِّلَّةِ وهَيْهاتَ مِنَّا الذِّلَّةُ**»(١).

وبما أنّ مواجهة الاستكبار هي سلوك يدور مدار الحقّ، فإنّها ستُؤدّي إلى إضعاف الباطل وتدعيم الحقّ، وسوف تُهيّئُ الأرضيّة اللازمة لتثبيت حكومة الحقّ، وتُمهّد الطريق لتكامل المجتمع وتقدّمه.

الحلول والمعالجات

إنّ أعظم سبيل تربوي لإيجاد روح المواجهة مع الاستكبار، هو تدريب النفس على الحرّية والتخلّص من نقاط الضعف الموجودة في النفس، من قبيل: الخوف والطمع والحرص ونحو ذلك.

فمن العقبات والآفات التي تحول دون تحقّق هذه الروح، هي: طلب العافية والسلامة، والجُبن، والطمع، والتحفّظ، والتساهل والتسامح، والاعتياد على الذلّة والخنوع.

وربّما ينتاب الإنسان نوعاً من الخوف والقلق عندما يُشاهد كثرة الاستعدادات والتجهيزات التي تتوفّر لدى القوّة المستكبرة، فيُصاب بالضعف والإحباط، إلّا أنّ القرآن الكريم يحذّر المؤمنين من مثل هذا الخوف والضعف، ويعد بانتصار جبهة

---

(١) ابن شعبة الحرّاني، الحسن بن علي، تحف العقول: ص٢٤٩.

الحقّ ودحضها للباطل بالرغم من قلّة العدد والعدّة، وذلك كما جاء في قصّة المواجهة بين طالوت وجالوت، حيث قال تبارك وتعالى عنها: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾(١).

ومن العقبات الأُخرى التي تحول دون تعزيز روح المواجهة مع الاستكبار هي الرتابة والروتين في الحياة اليوميّة، والتعاطي السطحي مع القضايا من دون تأمّل أو تفكير، الأمر الذي يُعدّ نوعاً من الغفلة، وفي حال استمرار هذه الآفات والعقبات سيفقد الإنسان البصيرة والوعي، وبذلك تزول عنه القدرة على تشخيص وظيفته والعمل بها.

ومن جهة أخرى فإنّ حبّ الهيمنة والتسلّط، والتنافس، والتعصّب العِرقي والفئوي تُعدّ من معوّقات مواجهة الاستكبار، والتي يجب العمل على إزالتها أيضاً.

الأسئلة

١ ـ أرجو تعريف الأُخوّة والإيثار بحسب ما يراه الإسلام؟ وبيان أهمّ مصاديقهما؟

٢ ـ أرجو ذكر بعض الثمار الفرديّة والاجتماعيّة للأُخوّة والإيثار؟

٣ ـ ما هي أهمّ عقبات الاتّصاف بروح الإيثار؟

٤ ـ عرّفوا مواجهة الاستكبار من خلال ملاحظة المعاني المقابلة له.

٥ ـ صِفوا حال المجتمع الذي يتمتّع بروح المواجهة مع الاستكبار.

٦ ـ بيّنوا أهمّ عقبات التحلّي بروح المواجهة مع الاستكبار، وقوموا بتحليلها.

---

(١) البقرة: آية٢٤٩.

للبحث والتأمّل

١ ـ هل يُمكن بناء مجتمع سالم من دون غرس روح الأُخوّة فيه؟ وكيف استطاع المجتمع الغربي تعويض هذا النقص؟

٢ ـ لقد تجلّت في بعض المقاطع التاريخيّة من صدر الإسلام والعصر الحديث بعض النماذج الفريدة من صور الأُخوّة الإسلاميّة، كما أنّها وضعت بين أيدي البشر أمثلة رائعة للروح المعنويّة العالية، والتي تُوجب دائماً شموخ المسلمين وافتخارهم. والسؤال الذي يُطرح هنا هو: ما هي العوامل التي تُوجب القرب لهذه الروح المعنويّة في مجتمعنا، وما هي الأُمور التي تحول دون بلوغنا ذلك؟ وعلى ضوء ملاحظة هذه العوامل، ما هي الآليّات التي تقترحونها لتأصيل ثقافة الأُخوّة الإسلاميّة في المجتمع؟

٣ ـ ما هي العوامل والأجواء التي تناسب تأسيس روح مواجهة الاستكبار في المجتمع واستدامتها ؟ وما هي الأخطار التي تُهددها؟

مصادر الكتاب

❊ القرآن الكريم.

❊ نهج البلاغة، خطب الإمام علي عليه السلام، تحقيق: صبحي الصالح، بيروت ـ لبنان، ١٩٦٧م، بيروت. لبنان، ط: ١.

❊ الصحيفة السجّاديّة، أدعية الإمام علي بن الحسين عليهما السلام، نشر الهادي، قم ـ إيران، ١٣٧٦هـ ش.

❊ مصباح الشريعة، منسوب إلى الإمام جعفر بن محمّد الصادق عليه السلام، مؤسّسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ١٤٠٠هـ.

❊التفسير المنسوب للإمام العسكري عليه السلام، تحقيق ونشر: مدرسة الإمام المهدي عجّل الله تعالى فرجه الشريف، قم ـ إيران، ١٤٠٩هـ.

١. ابن أبي الحديد المعتزلي، عبد الحميد بن هبة الله، شرح نهج البلاغة، مكتبة آية الله المرعشي النجفي، قم ـ إيران، ١٤٠٤هـ.

٢. ابن أبي جمهور، محمّد بن زين الدين، عوالي اللئالي، سيّد الشهداء عليه السلام، قم ـ إيران، ١٤٠٥هـ.

٣. ابن الأشعث الكوفي، محمّد بن محمّد، الجعفريّات (الأشعثيّات)، مكتبة نينوى الحديثة، طهران ـ إيران، طبعة حجريّة.

٤. ابن بابويه القمّي (الصدوق)، محمّد بن علي، الأمالي، المكتبة الإسلاميّة، طهران ـ إيران، ١٣٦٢هـ ش.

٥. ابن بابويه القمّي (الصدوق)، محمّد بن علي، التوحيد، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرّسين، قم ـ إيران، ١٣٥٧هـ ش.
٦. ابن بابويه القمّي (الصدوق)، محمّد بن علي، الخصال، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرّسين، قم ـ أيران، ١٤٠٣هـ.
٧. ابن بابويه القمّي (الصدوق)، محمّد بن علي، علل الشرائع، مكتبة الداوري، قم ـ إيران، ١٣٨٥هـ ش.
٨. ابن بابويه القمّي (الصدوق)، محمّد بن علي، عيون أخبار الرضا عليه السلام، جهان، طهران ـ إيران، ١٣٧٨ هـ ش.
٩. ابن بابويه القمّي (الصدوق)، محمّد بن علي، كمال الدين وتمام النعمة، تصحيح: علي أكبر غفّاري، دار الكتب الإسلاميّة، طهران ـ إيران، ١٣٩٥هـ ش.
١٠. ابن بابويه القمّي (الصدوق)، محمّد بن علي، من لا يحضره الفقيه، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرّسين، قم ـ إيران، ١٤١٣هـ.
١١. ابن بابويه القمّي (الصدوق)، محمّد بن علي، مصادقة الإخوان، ليتوغرافي كرماني، قم ـ إيران، (طبع أُفست)، ١٤٠٢هـ.
١٢. ابن شعبة الحرّاني، الحسن بن علي، تحف العقول، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرّسين، قم ـ إيران، قم، ١٤٠٤هـ.
١٣. ابن شهر آشوب، محمّد بن علي، مناقب آل أبي طالب، مؤسّسة انتشارات علّامة، قم ـ إيران، ١٣٧٩هـ.
١٤. ابن طاووس، علي بن موسى، إقبال الأعمال، دار الكتب الإسلاميّة، قم ـ إيران، ١٣٦٧هـ ش.
١٥. ابن عدي، يحيى، تهذيب الأخلاق، مقدّمة وتصحيح وترجمة وتعليق: محمّد دامادي، مؤسّسة مطالعات وتحقيقات فرهنگي، طهران ـ إيران، ١٣٦٥هـ ش.

١٦. ابن فهد الحلّي، أحمد بن محمّد، عدّة الداعي ونجاح الساعي، دار الكتاب الإسلامي، طهران ـ إيران، ١٤٠٧هـ.
١٧. ابن قولويه، جعفر بن محمّد، كامل الزيارات، المرتضويّة، النجف ـ العراق، ١٣٥٦هـ.
١٨. ابن مسكويه، أحمد بن محمّد، تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق، تحقيق: قسطنطين زريق، الجامعة الأمريكيّة، بيروت ـ لبنان، ١٩٦٦م.
١٩. الإربلي، علي بن عيسى، كشف الغمّة في معرفة الأئمّة، مكتبة بني هاشمي، تبريز ـ إيران، ١٣٨١هـ.
٢٠. باقري، خسرو، نگاهي دوباره به تربيت إسلامي (= رؤيه أُخرى للتربية الإسلاميّة)، مدرسة، طهران ـ إيران، ١٣٨٣هـ ش.
٢١. البرقي، أحمد بن محمّد، المحاسن، دار الكتب الإسلاميّة، قم ـ إيران، ١٣٧٠هـ.
٢٢. البروسوي، إسماعيل حقّي، تفسير روح البيان، دار الفكر، بيروت ـ لبنان.
٢٣. بسنديده، عباس، پژوهشي در فرهنگ حيا (= بحث في ثقافة الحياء)، منظّمة دار الحديث للطباعة والنشر، قم ـ إيران، ١٣٨٣هـ ش.
٢٤. بهجت، محمّد تقي، به سوي محبوب (=السير إلى المحبوب) مواعظ وإرشادات شيخ الفقهاء والمجتهدين العارف محمّد تقي بهجت، إعداد وتنظيم: مهدي ساعي، شفق، قم ـ إيران، ١٣٨١هـ ش.
٢٥. بي ريا، ناصر (وآخرون)، روان شناسي رشد (= علم نفس التكامل)، سمت، طهران ـ إيران، ١٣٧٥هـ ش.
٢٦. التميمي الآمدي، عبد الواحد، تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم، مكتب الإعلام الإسلامي، قم ـ إيران، ١٣٦٦هـ ش.

٢٧. جوادي آملي، عبد الله، حيات حقيقي إنسان در قرآن (=الحياة الحقيقيّة للإنسان في القرآن)، إسراء، قم ـ إيران، ١٣٧٨هـ ش.
٢٨. جوادي آملي، عبد الله، مراحل أخلاق در قرآن (=مراحل الأخلاق في القرآن) إسراء، قم ـ إيران، ١٣٧٨هـ ش.
٢٩. جولمان، دانيال، هوش هيجاني (=الذكاء العاطفي)، ترجمة: نسرين بارسا، رشد، طهران ـ إيران، ١٣٨٣هـ ش.
٣٠. الحرّ العاملي، محمّد بن الحسن، وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، مؤسّسة آل البيت عليهم السلام لأحياء التراث، قم ـ إيران، ١٤٠٩هـ.
٣١. الحرّ العاملي، محمّد بن الحسن، الجواهر السنيّة في الأحاديث القدسيّة، ترجمة: زين العابدين كاظم خلخالي، دهقان، طهران ـ إيران، ١٣٧٧هـ ش.
٣٢. حسن زاده آملي، حسن، دروس معرفت نفس (=دروس في معرفة النفس)، شركت انتشارات علمي وفرهنگي، طهران ـ إيران، ١٣٧٨هـ ش.
٣٣. حسيني بهشتي، محمّد، ايدئولوژي إسلامي (=الإيديولوجيّة الإسلاميّة)، هجرت، قم ـ إيران، ١٣٦٥هـ ش.
٣٤. الحكيمي، محمّد رضا (وآخرون)، الحياء، مكتب نشر الثقافة الإسلاميّة، طهران ـ إيران، ١٤١٣هـ.
٣٥. الحويزي، عبد علي بن جمعة، تفسير نور الثقلين، مؤسّسة إسماعيليّان، قم ـ إيران، ١٤١٥هـ.
٣٦. خامنئي، علي، روح توحيد نفي عبوديت غير خدا ـ ديدگاه توحيدي (=روح التوحيد إبطال العبوديّة لغير الله ـ رؤى توحيديّة)، مكتب نشر الثقافة الإسلاميّة، طهران ـ إيران، ١٣٧٧هـ ش.
٣٧. خامنئي، علي، گفتار در باب صبر (=حديث عن الصبر)، مكتب نشر الثقافة الإسلاميّة، طهران ـ إيران، ١٣٨٣هـ ش.

٣٨. دستغيب، عبد الحسين، گناهان كبيره (=الذنوب الكبيرة)، مكتب النشر الإسلامي التابع لجماعة المدرّسين في الحوزة العلميّة، قم ـ إيران، ١٣٧٩هـ ش.
٣٩. دي. ناي، روبرت، سه مكتب روانشناسي (=ثلاث مدارس في علم النفس)، ترجمة: أحمد جلالي، بادرا، طهران ـ إيران، ١٣٨١هـ ش.
٤٠. الديلمي، الحسن بن محمّد، إرشاد القلوب، الشريف الرضي، قم ـ إيران، ١٤١٢هـ.
٤١. الديلمي، الحسن بن محمّد، أعلام الدين في صفات المؤمنين، مؤسّسة آل البيت عليهم السلام لأحياء التراث، قم ـ إيران، ١٤٠٨هـ.
٤٢. الرازي، محمّد بن زكريا، الطبّ الروحاني - رسائل فلسفيّة، جمع وتصحيح: بول كراوس، مطبعة بول باربيه، القاهرة ـ مصر.
٤٣. الراغب الأصفهاني، الحسين بن محمّد، الذريعة إلى مكارم الشريعة، الشريف الرضي، قم ـ إيران، ١٤١٤هـ.
٤٤. الراغب الأصفهاني، الحسين بن محمّد، المفردات في غريب القرآن، دار القلم، بيروت ـ لبنان، ١٣٧٥هـ ش.
٤٥. الراوندي، قطب الدين، الدعوات، مدرسة الإمام المهدي عجّل الله تعالى فرجه الشريف، قم ـ إيران، ١٤٠٧هـ.
٤٦. الراوندي، قطب الدين، قصص الأنبياء، تحقيق: غلام رضا عرفانيان يزدي، دائرة البحوث الإسلاميّة في الحرم الرضوي المقدّس، مشهد ـ إيران، ١٤٠٩هـ.
٤٧. السبزواري، الملّا هادي، شرح الأسماء الحسنى، مكتبة بصيرتي، أُفست من طبعة حجريّة (١٢٨١هـ).
٤٨. السعدي، مصلح الدين، گلستان(= الروضة)، تصحيح: محمّد علي فروغي، إقبال، طهران ـ إيران، ١٣٧٤هـ ش.

٤٩. السيوطي، جلال الدين، الدّر المنثور، في تفسير المأثور، مكتبة آية الله المرعشي النجفي، قم ـ إيران، ١٤٠٤هـ.

٥٠. الشجاعي، محمّد، مقالات، سروش، طهران ـ إيران، ١٣٧١هـ ش.

٥١. الشعيري، محمّد بن محمّد، جامع الأخبار، الشريف الرضي، قم ـ إيران، ١٣٦٣هـ ش.

٥٢. شيخ الإسلامي، علي، راه ورسم منزلها (=الطريق إلى المنازل)، مركز آية للثقافة والنشر، طهران ـ إيران، ١٣٧٩هـ ش.

٥٣. الطباطبائي، محمّد حسين، أُصول فلسفه وروش رئاليسم (=أصول الفلسفة والمنهج الواقعي)، تقديم وتعليق: مرتضى مطهّري، صدرا، طهران ـ إيران، ١٣٦٢هـ ش.

٥٤. الطباطبائي، محمّد حسين، الميزان في تفسير القرآن، مكتب النشر الإسلامي التابع لجماعة المدرّسين في الحوزة العلميّة، قم ـ إيران، ١٤١٧هـ.

٥٥. الطباطبائي، محمّد حسين، ترجمة تفسير الميزان، ترجمة: محمّد باقر الموسوي الهمداني، مكتب النشر الإسلامي التابع لجماعة المدرّسين في الحوزة العلميّة، قم ـ إيران، ١٣٧٤ هـ ش.

٥٦. الطباطبائي، محمّد حسين، سنن النبي، ترجمة وتحقيق: محمّد هادي فقيهي، مكتبة إسلامي، طهران ـ إيران، ١٣٥٤هـ ش.

٥٧. الطبرسي، الحسن بن الفضل، مكارم الأخلاق، الشريف الرضي، قم ـ إيران، ١٤١٢هـ.

٥٨. الطبرسي، علي بن الحسن، مشكاة الأنوار في غرر الأخبار، المكتبة الحيدريّة، النجف ـ العراق، ١٣٨٥هـ.

٥٩. الطوسي، محمّد بن الحسن، الأمالي، دار الثقافة، قم ـ إيران، ١٤١٤هـ.
٦٠. الطوسي، محمّد بن الحسن، تهذيب الأحكام، دار الكتب الإسلاميّة، طهران ـ إيران، ١٣٦٥هـ ش.
٦١. الطوسي، محمّد بن الحسن، مصباح المتهجّد، مؤسّسة فقه الشيعة، بيروت ـ لبنان، ١٤١١هـ.
٦٢. الطوسي، محمّد بن محمّد نصير الدين، آداب المتعلّمين، ترجمة: أحمد خليقي، دار الكتاب، قم ـ إيران، ١٣٧٠هـ ش.
٦٣. الطوسي، محمّد بن محمّد نصير الدين، أوصاف الأشراف، تصحيح: محمّد مهدي شمس الدين، طهران ـ إيران، دائرة الطباعة والنشر في وزارة الثقافة والإرشاد الإسلامي، ١٣٧٣هـ ش.
٦٤. الطوسي، محمّد بن محمّد نصير الدين، أوصاف الأشراف، تصحيح: نجيب مايل هروي، [نشر] زوّار، طهران ـ إيران.
٦٥. الغزالي، محمّد بن محمّد، كيماي سعادت (=كيماء السعادة)، جمع وإعداد: حسين خديوجم، شركت انتشارات علمي وفرهنگي، طهران ـ إيران، ١٣٧٥هـ ش.
٦٦. غلامي، يوسف، أخلاق ورفتارهاي جنسي (=الأخلاق والممارسات الجنسيّة)، مكتب معارف للنشر، طهران ـ إيران، ١٣٨٣هـ ش.
٦٧. الفارابي، محمّد بن محمّد، فصول منتزعة، ترجمة وشرح: حسن ملك شاهي، [نشر] سروش، طهران ـ إيران، ١٣٨٢هـ ش.
٦٨. فضل الله، محمّد حسين، تفسير من وحي القرآن، دار الملاك للطباعة والنشر، بيروت ـ لبنان، ١٤١٩هـ.
٦٩. الفيض الكاشاني، ملّا محسن، المحجّة البيضاء في تهذيب الأحياء، تصحيح وتعليق: علي أكبر غفاري، مكتب النشر الإسلامي التابع لجماعة المدرسين في الحوزة العلميّة، قم ـ إيران، ١٤١٧هـ.

٧٠. الفيض الكاشاني، ملّا محسن، علم اليقين في أُصول الدين، تصحيح وتعليق: محسن بيدارفر، بيدار، قم ـ إيران، ١٣٧٥هـ.ش.
٧١. القمّي، عباس، فيض القدير فيما يتعلّق بحديث الغدير (منتخب من كتاب عبقات الأنوار في إمامة الأئمّة الأطهار لأبي حامد حسين بن محمّد قلي كنتوري)، قم، مكتب النشر الإسلامي التابع لجماعة المدرسين في الحوزة العلميّة، قم ـ إيران، ١٣٧٦هـ.ش.
٧٢. كاسيرر، آرنست، رساله در باب إنسان؛ در آمدى بر فلسفة فرهنگ (=رسالة حول الإنسان؛ مدخل في فلسفة الثقافة)، ترجمة: برزگ نادر زاد، مركز العلوم الإنسانيّة للبحوث والدراسات الثقافيّة، طهران ـ إيران، ١٣٨٠هـ.ش.
٧٣. الكاشاني، عبد الرزّاق، شرح منازل السائرين، تصحيح: علي شيرواني، [نشر] الزهراء، طهران ـ إيران، ١٣٧٣هـ.ش.
٧٤. الكراجكي، أبو الفتح، كنز الفوائد، دار الذخائر، قم ـ إيران، ١٤١٠هـ.
٧٥. الكفعمي، إبراهيم بن علي، المصباح، الشريف الرضي، قم ـ إيران، ١٤٠٥هـ.
٧٦. الكليني، محمّد بن يعقوب، الكافي، تصحيح: علي أكبر غفّاري، دار الكتب الإسلاميّة، طهران ـ إيران، ١٣٦٥هـ.ش.
٧٧. كونيج، هارولد جورد، آيا دين براى سلامتى شما سودمند است؟ (=هل الدين مفيد لصحّتكم؟)، ترجمة: بتول نجفي، مركز العلوم الإنسانيّة للبحوث والدراسات الثقافيّة، طهران ـ إيران، ١٣٨٠هـ.ش.
٧٨. المالكي الأشتري، ورّام بن أبي فراس، تنبيه الخواطر ونزهة النواظر (مجموعة ورّام)، مكتبة الفقيه، قم ـ إيران.
٧٩. المتّقي الهندي، علي بن حسام الدين، كنز العمّال في سنن الأقوال والأفعال، مؤسّسة الرسالة، قم ـ إيران، ١٤١٣هـ.
٨٠. المجلسي، محمّد باقر، بحار الأنوار، مؤسسة الوفاء، بيروت ـ لبنان، ١٤٠٤هـ.

٨١. محقّق، مهدي، الدراسة التحليليّة في كتاب الطبّ الروحاني للطبيب الفيلسوف محمّد بن زكريا الرازي، مؤسّسة الدراسات الإسلاميّة ـ جامعة طهران، طهران ـ إيران، ١٣٧٨هـ ش.
٨٢. محمّدي ريشهري، محمّد، ميزان الحكمة، مؤسّسة دار الحديث للثقافة، قم ـ إيران، ١٣٧٥هـ ش.
٨٣. المدني، علي خان بن أحمد، تلخيص الرياض أو تحفة الطالبين: المقتطف من رياض السالكين في شرح صحيفة سيّد الساجدين، تلخيص: أبو الفضل الحسيني، مطبعة الحيدري، طهران ـ إيران، ١٣٨١هـ.
٨٤. المدني، علي خان بن أحمد، رياض السالكين في شرح صحيفة سيّد الساجدين، مكتب النشر الإسلامي التابع لجماعة المدرّسين في الحوزة العلميّة، قم ـ إيران، ١٤١١هـ.
٨٥. المشكيني، علي، المواعظ العدديّة، الهادي، قم ـ إيران، ١٤٢٤هـ.
٨٦. مصباح يزدي، محمّد تقي، أخلاق در قرآن (=الأخلاق في القرآن)، مؤسسة الإمام الخميني، قم ـ إيران، ١٣٧٧هـ ش.
٨٧. مصباح يزدي، محمّد تقي، خود شناني براي خود سازي (=معرفة الذات من أجل صناعة الذات)، مؤسسة الإمام الخميني، قم ـ إيران، ١٣٨٥هـ ش.
٨٨. مصباح يزدي، محمّد تقي، ره توشه ـ پندهاي پيامبر أكرم به أبي ذر (=وصايا النبي صلى الله عليه وآله الأكرم لأبي ذرّ)، مؤسسة الإمام الخميني، قم ـ إيران، ١٣٨٥هـ ش.
٨٩. مصباح، مجتبى، فلسفة أخلاق، مؤسسة الإمام الخميني، قم ـ إيران، ١٣٨٠هـ ش.
٩٠. مطهّري، إنسان كامل (=الإنسان الكامل)، صدرا، طهران ـ إيران، ١٣٨٣هـ ش.
٩١. مطهّري، مرتضى، آشنايى با قرآن (=معرفة القرآن)، صدرا، طهران ـ إيران، ١٣٦٧هـ ش.

٩٢. مطهّري، مرتضى، سيري در سيره نبوي (=في رحاب السيرة النبويّة)، صدرا، طهران ـ إيران، ١٣٨٣هـ ش.

٩٣. مطهّري، مرتضى، فطرت (=الفطرة)، صدرا، طهران ـ إيران، ١٣٨٣هـ ش.

٩٤. مطهّري، مرتضى، مجموعة الآثار، صدرا، طهران ـ إيران، ١٣٨٦هـ ش.

٩٥. مطهّري، مرتضى، نظام حقوق زن در إسلام (=حقوق المرأة في الإسلام)، صدرا، طهران ـ إيران، ١٣٧١هـ ش.

٩٦. مظاهري سيف، حميد رضا، تحليل حيات طيبه از ديدگاه قرآن (=دراسة الحياة الطيّبة على ضوء القرآن الكريم)، ماهنامه معرفت (=مجلّة المعرفة الشهريّة)، العدد: ١٠٩، شهر دى، ١٣٨٥هـ ش.

٩٧. معين، محمّد، فرهنگ فارسي (=معجم اللّغة الفارسيّة)، أمير كبير، طهران ـ إيران، ١٣٧٥هـ ش.

٩٨. المفيد، محمّد بن محمّد، الاختصاص، المؤتمر العالمي لألفيّة الشيخ المفيد، قم ـ إيران، ١٤١٣هـ.

٩٩. المفيد، محمّد بن محمّد، الإرشاد، في معرفة حجج الله على العباد، المؤتمر العالمي لألفيّة الشيخ المفيد، قم ـ إيران، ١٤١٣هـ.

١٠٠. المفيد، محمّد بن محمّد، الأمالي، المؤتمر العالمي لألفيّة الشيخ المفيد، قم ـ إيران، ١٤١٣هـ.

١٠١. المفيد، محمّد بن محمّد، الفصول المختارة، المؤتمر العالمي لألفيّة الشيخ المفيد، قم ـ إيران، ١٤١٣هـ.

١٠٢. المفيد، محمّد بن محمّد، المقنعة، المؤتمر العالمي لألفيّة الشيخ المفيد، قم ـ إيران، ١٤١٣هـ.

١٠٣. مكارم الشيرازي، ناصر (وآخرون)، تفسير نمونه (=تفسير الأمثل)، دار الكتب الإسلاميّة، طهران ـ إيران، ١٣٧٤هـ ش.

١٠٤. الموسوي الخميني، روح الله، چهل حديث (=الأربعون حديثاً)، مؤسّسة تنظيم ونشر آثار الإمام الخميني، قم ـ إيران، ١٣٧٣هـ ش.
١٠٥. الموسوي الخميني، روح الله، شرح حديث جنود العقل والجهل، مؤسّسة تنظيم ونشر آثار الإمام الخميني، طهران ـ إيران، ١٣٧٧هـ ش.
١٠٦. النراقي، محمّد مهدي، جامع السعادات، دار التفسير، قم ـ إيران، ١٣٨١هـ ش.
١٠٧. النراقي، محمّد مهدي، علم أخلاق إسلامي (ترجمة كتاب جامع السعادات)، ترجمة: جلال الدين مجتبوي، حكمت، طهران ـ إيران، ١٣٨١هـ ش.
١٠٨. النراقي، ملّا أحمد، معراج السعادة، العلميّة الإسلاميّة، طهران ـ إيران، ١٣٤٨هـ ش.

محتويات الكتاب

كلمة المؤسسة ٧

(مؤسسة الخُلق العظيم) ودوافع تأسيسها ٨

رؤية المؤسسة.. ٩

أوّلاً: الله تعالى بصفاته الكماليّة والجماليّة ٩

ثانياً: النظام الأخلاقي.. ٩

ثالثاً: الإنسان.. ١٠

أهداف المؤسسة ١١

هذا الكتاب ١٥

كلمة البدء.. ١٧

المقدمة ١٩

المفاهيم العامّة

مكانة الأخلاق في الدين.. ٢٦

الأخلاق ٢٧

أبعاد علم الأخلاق ومدياته ٢٨

التربية الأخلاقيّة ٣٠

الفصل الأول

معرفة الإنسان

الأهداف... ٣٣

طبيعة الإنسان ٣٣
الأبعاد المختلفة للوجود البشري ٣٦
قوى النفس الإنسانيّة ٣٦
أحوال النفس ٣٨
قابليّات الإنسان وقدراته ٣٩
فوائد الملكة ٤٠
قواعد تحصيل المَلَكة ٤٠
نظام التقييم الفطري والبيئي ودورهما في بلورة الفضيلة أو العادة ٤٥
الأسئلة ٤٨
للبحث والتأمّل ٤٨

الفصل الثاني

الهدف من التكامل الأخلاقي

الأهداف ٥٣
البُعد الاجتماعي والفردي في وجود الإنسان ٥٥
١ ـ هدف التكامل وقيمة الإنسان في الحياة الفردية ٥٦
مفهوم القُرب ٥٦
٢ـ الهدف من تكامل الإنسان في الحياة الاجتماعيّة ٦١
الأسئلة ٦٨
للبحث والتأمّل ٦٨

الفصل الثالث

موانع التكامل

الأهداف ٧٣
النوع الأوّل: الموانع الداخليّة الذاتيّة ٧٦

١ـ هوى النفس ٧٦
٢ ـ الجهل ٧٩
٣ ـ العجز ٧٩
٤ ـ العادات السيّئة ٨٠
النوع الثاني: الموانع والعقبات الخارجيّة (البيئيّة) ٨٠
١ـ الدنيا ٨٠
٢ ـ الشيطان ٨٢
٣ ـ الطاغوت ٨٣
الأسئلة ٨٤
للبحث والتأمّل ٨٤

الفصل الرابع

عناصر التكامل

الأهداف ٨٧
العامل الأوّل: العلم ٨٨
العلم والعمل ٨٩
العامل الثاني: القدرة ٩٢
العامل الثالث: الانتباه والوعي ٩٤
عوامل التذكّر والانتباه ٩٦
١ـ التفكّر ٩٦
٢ ـ الموعظة ٩٦
٣ ـ المشاهدة ٩٧
٤ ـ التجربة ٩٧
٥ ـ تداعي المعاني ٩٨

الأسئلة... ٩٩
للبحث والتأمّل ١٠٠

الفصل الخامس

خصائص الشخصيّة الأخلاقيّة المتكاملة

الأهداف.. ١٠٣
الخصوصيّة الأولى: الاطمئنان ١٠٦
الخصوصيّة الثانية: النجاح.. ١٠٩
الخصوصيّة الثالثة: التفاؤل والابتعاد عن اللاجدوى ١١٠
الخصوصيّة الرابعة: الابتهاج... ١١١
الخصوصية الخامسة: الجمال ١١٣
الخصوصية السادسة: اللذّة.. ١١٣
الخصوصية السابعة: الإبداع ١١٥
الخصوصية الثامنة: المحبّة لدى الآخرين ١١٧
الخصوصيّة التاسعة: القدرة.. ١١٨
الأسئلة... ١٢٠
للبحث والتأمّل ١٢٠

الفصل السادس

دور الأخلاق في تأسيس المجتمع النموذجي

الأهداف.. ١٢٥
المؤشّر الأوّل: الأمن الاجتماعي... ١٢٧
١ـ أمن الأرواح والأَنفس.. ١٢٨
٢ـ الأمن المالي.. ١٢٨
٣ـ صيانة المكانة والخصوصيّة (أمن الحيثيّة)................................... ١٢٩

المؤشّر الثاني: محاربة الفقر وإشاعة الرفاهية العادلة ١٣١
١ ـ عدم توفّر الرؤية الأخلاقيّة الصحيحة ١٣٣
٢ ـ الكسل والجزع ١٣٣
٣ ـ سوء التدبير.. ١٣٤
١ ـ الإسراف والتبذير ١٣٤
٢ ـ انتشار المعاصي والفساد.. ١٣٥
المؤشّر الثالث: التنمية المعرفية والازدهار العلمي ١٣٦
عقبات التنمية العلميّة.. ١٣٩
١ ـ الرذائل الفرديّة ١٣٩
٢ ـ الرذائل الاجتماعيّة.. ١٤١
الأسئلة.. ١٤٤
للبحث والتأمّل ١٤٥

الفصل السابع

آفات العلاقة مع الذات

الأهداف.. ١٤٩
أ ـ نسيان النفس وخداعها ١٤٩
النتائج والآثار ١٥١
الحلول والمعالجات.. ١٥٤
ب ـ الوسوسة وضعف الإرادة.. ١٥٦
النتائج والآثار ١٥٧
المعالجات والحلول.. ١٥٧
ج) الجشع والطمع ١٦١
النتائج ١٦٢

الحلول والمعالجات.. ١٦٤
الأسئلة.. ١٦٦
للبحث والتأمّل ١٦٦

الفصل الثامن
تحسين العلاقة مع الذات
(الحدّ الأدنى في الأخلاق الشخصيّة)

الأهداف.. ١٧١
ألف: معرفة الذات.. ١٧٢
النتائج ١٧٣
الحلول والمعالجات.. ١٧٣
ب ـ الالتزام الروحي وضبط النفس.. ١٧٥
النتائج ١٧٨
الحلول والمعالجات.. ١٨٠
ج) القناعة ١٨٢
النتائج ١٨٣
الحلول والمعالجات.. ١٨٦
الأسئلة.. ١٨٨
للبحث والتأمّل ١٨٨

الفصل التاسع
العلاقة النموذجيّة مع الذات
(الحدّ الأعلى في الأخلاق الشخصيّة)

الأهداف.. ١٩١
أ) الحكمة ١٩١
النتائج ١٩٣

الحلول والمعالجات...194
ب) الكرامة وعزّة النفس 195
النتائج 197
الحلول والمعالجات...199
ج) الحياء والعفّة 200
النتائج 202
الحلول والمعالجات...203
الأسئلة..205
للبحث والتأمّل 206

الفصل العاشر

آفات العلاقة مع الله

الأهداف...209
أ) الغفلة ونسيان الله 209
النتائج 210
الحلول والمعالجات...212
ب) اليأس من رحمة اللهّ والاغترار بها 213
النتائج 215
الحلول والمعالجات...217
ج) الكفران والجحود 219
النتائج 220
الحلول والمعالجات...221
الأسئلة..222
للبحث والتأمّل 222

الفصل الحادي عشر
تحسين العلاقة مع الله
(الحدّ الأدنى في الأخلاق العباديّة)

الأهداف........ ٢٢٧
أ) اليقظة........ ٢٢٧
النتائج ٢٢٨
الحلول والمعالجات........ ٢٢٩
ب) الخوف والرجاء........ ٢٣٠
النتائج ٢٣٢
الحلول والمعالجات........ ٢٣٣
ج) الشكر........ ٢٣٦
النتائج والآثار ٢٣٨
الحلول والمعالجات........ ٢٣٩
الأسئلة........ ٢٣٩
للبحث والتأمّل ٢٤٠

الفصل الثاني عشر
العلاقة النموذجيّة مع الله
(الحدّ الأعلى في الأخلاق العباديّة)

الأهداف........ ٢٤٣
أ) التوكّل........ ٢٤٣
النتائج والآثار ٢٤٦
الحلول والمعالجات........ ٢٤٨
ب) المحبّة........ ٢٤٩
النتائج والآثار ٢٥١

الحلول والمعالجات.. ٢٥٢
ج) الرضا والتسليم.. ٢٥٣
النتائج ٢٥٦
الحلول والمعالجات.. ٢٥٩
الأسئلة.. ٢٦١
للبحث والتأمّل ٢٦١

الفصل الثالث عشر

آفات العلاقة مع الآخرين

الأهداف.. ٢٦٥
أ) الظلم والعدوان ٢٦٥
النتائج ٢٦٦
الحلول والمعالجات.. ٢٦٨
ب) التكبّر ٢٧٠
النتائج ٢٧١
الحلول والمعالجات.. ٢٧٣
ج) عدم الاكتراث بآداب المعاشرة.. ٢٧٤
النتائج ٢٧٦
الحلول والمعالجات.. ٢٧٦
الأسئلة.. ٢٧٧
للبحث والتأمّل ٢٧٨

الفصل الرابع عشر

تحسين العلاقة مع الآخرين

(الحدّ الأدنى في الأخلاق الاجتماعيّة)

الأهداف.. ٢٨١

أ) العدالة.. ٢٨١
النتائج والآثار ٢٨٤
الحلول والمعالجات... ٢٨٦
ب) التواضع.. ٢٨٨
النتائج ٢٨٩
الحلول والمعالجات... ٢٩١
ج) التحلّي بالآداب الاجتماعيّة ٢٩٢
النتائج والآثار ٢٩٢
الحلول والمعالجات... ٢٩٣
الأسئلة.. ٢٩٤
للبحث والتأمّل ٢٩٤

الفصل الخامس عشر

العلاقة النموذجيّة مع الآخرين

(الحدّ الأعلى في الأخلاق الاجتماعيّة)

الأهداف.. ٢٩٧
أ) الأُخوّة والتراحم... ٢٩٧
النتائج ٣٠١
الحلول والمعالجات... ٣٠٣
ب) الإيثار... ٣٠٤
النتائج ٣٠٥
الحلول والمعالجات... ٣٠٥
ج) مواجهة الاستكبار... ٣٠٦
النتائج والآثار ٣٠٨

الحلول والمعالجات.. ٣٠٩
الأسئلة.. ٣١٠
للبحث والتأمّل ٣١١
مصادر الكتاب ٣١٣
محتويات الكتاب ٣٢٥